الدكتور عادل الفريجات

دراسات في المكتبة العربية التراثية



الدكتور عادل الفريجات

دراسات
في المكتبة العربية التراثية



دمشق

١٩٩٧

الطبعـة الأولى ١٩٩٧

١٠٠٠ / ٣ / ١٩٩٧

الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية
دمشق ص.ب ٣٣٩٧ ☎ ٢١٢٣٧٥٣

دار النمير للنشر والطباعة والتوزيع
دمشق ـ هاتف ٢٢٢٦٢٠٧ ـ ص . ب ٥١٧٥

موافقة وزارة الإعلام في الجمهورية العربية السورية
٣٩٣٠٨ تاريخ ١١ / ٢ / ١٩٩٧

تنضيد وإخراج : مركز الروضة للكمبيوتر
دمشق ـ جرمانا ـ ص . ب ٣٩١
هاتف ٥٦١٥١٤٩ ـ ٥٦١٥٨٠٨

المقدِّمة

المكتبة العربية التراثية محيط منداح الأبعاد، بـل هـي هيكـل معمـاري شـامخ متعـدِّد الوجوه والجهات، أو دوحة ضخمة وارفة الظِلال، تذكّر فروعها وأغصانها بفـروع المعـارف العربية الكثيرة وأغصانها.

وقد بُنيت هذه المكتبة، لَبِنَةً فوق لَبِنة، منذ أن عرف الإنسـان العربـي الكتابـة. وهـي معرفة قديمة دون ريب، يلمع في تاريخها اخـتراع أول أبجديـة في العـالم على أيـدي أسـلافنا الفينيقيين، منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام. بَيْدَ أنَّ تاريخ الكتابة أبعد بكثير. وقد مَرَّت البشرية بأطوار عديدة قبل أن تختزل رموز كتابتهـا إلى ثمانيـة وعشـرين رمـزاً، وجدهـا الآثـاريون في منطقة رأس شمرا (أوغاريت) شمالي سورية. وإذا كان اكتشاف مكتبة مملكة (إيبلا) جنوبي حلب عام ١٩٧٦، المؤلفة من سبعة عشر ألف رقيم، يُعدُّ اكتشاف القرن العشرين الأبرز من جهة أولى، فإنه من جهة ثانية يُعدُّ دليلاً على اهتمـام أبناء هـذه المنطقـة وأسـلافهم القدامـى بالحرف والكلمة والعبارة، وهي أدوات الفكر والعلم والحضارة. ولا أدلَّ على ذلـك مـن أن المكتبة العربية التراثيـة، الـتي نؤلـف فيهـا، تتكـوَّن مـن أربعة ملايين مخطوطـة حسـب أكـثر التقديرات رصانة.

وفي الوقت الذي عاينْتُ خلال إبْحاري في محيط مكتبتنا العربية لآلئ وجواهـر ثمينـة، فإنني عانيْتُ من إخفاق في الطموح إلى أن أحيط بها من كل جنباتهـا، وأنّـى لي ذلـك، وأنـا أعرف، على سبيل المثال، أن خزانـة الصـاحب بـن عبّاد (٣٨٥/ ٩٩٥) وجدهـا قـد بلغـت (٢٠٦) آلاف مجلّد، وأن خزانة الخليفة الفاطمي العزيـز بـا لله (٣٦٥ / ٩٧٥) في مصـر قـد ضمَّت نحـو (٦٠٠) ألـف كتـاب، فيهـا (٣٠) نسـخة مـن كتـاب العين للخليـل بـن أحمـد الفراهيدي، واحدة منها بخط الفراهيدي نفسه، وأن مكتبة جامعة قرطبـة في الأندلـس كـانت تحوي (٤٠٠) ألف مجلّد ؟؟ ومن هنا يتضـح لنـا حجـم العطـاء الفكـري لأجدادنـا القدامـى وتظهر ضخامته وغزارته.

وقد كنْتُ حرَّرْتُ في شؤون المكتبة التراثية دراسات وأبحاثاً، وصنّفْتُ حول بعض كتبها نقوداً وتعريفات، فعزمت، بعد مراجعتها، على أن أجعلها في كتاب سمّيْتُهُ: « دراسات في المكتبة العربية التراثية ». وعلى الرغم من أن كتباً ودراسات قد أُلِّفت قبلي في هذا الباب، أمثال كتاب الدكتور أمجد الطرابلسي: نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، وكتاب الدكتور عمر الدقاق: مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، وكتاب الدكتور عزالدين إسماعيل: المصادر الأدبيّة واللغوية في التراث العربي، وكتاب: دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث للدكتور محمود أحمد حسن المراغي، وكتاب: الوجيز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم للدكتور محمود محمد الطناحي، وكتاب: عيون المؤلفات لعبد الوهاب الصابوني، وكتاب: معجم المعاجم لأحمد الشرقاوي إقبال، وكتاب: اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية للدكتور عبد اللطيف الصوفي، وغيرها وغيرها... إلا أني رأيت أنه بقي لدلوي مكان بين الدلاء، ولسهمي مضرب بين السهام، فأدليت بدلوي وضربت بسهمي، وكانا موجهين إلى بحار الأدب واللغة وآفاقهما...

ومصنّفي هذا ثلاثة كتُب أو أقسام : الكتاب الأول عَنْوَنْتُه بـ (**جوانب من عالم المكتبة العربية التراثية**) وفيه عرضت أولاً، للتأليف النوعي والموسوعي في التراث العربي، الأدبي والتاريخي خاصةً، وتناولت ثانياً، مشكلة الكتب المفقودة أو المنشورة ناقصة في زماننا، وبحثت ثالثاً، في ظاهرة المتابعة والتتبع في كتب التراث، وهي ظاهرة استتبعتها المشكلة الأولى التي تقدّمتها، حتى إني وجدت بينهما صلات وثيقة صعب عليَّ تخليصها بعضها من بعض. ودرست رابعاً، قضية تصنيف المعارف العربية بالشعر، وفيها لاحظت أن العرب كادوا أن لا يتركوا باباً من أبواب المعرفة القديمة، إلاّ صنّفوه شعراً، أو صنّفوا بعضه. وذلك بغية حفظه وتبسيط تحصيله، فكانت لديهم المنظومات التعليمية الكثيرة جداً جداً.

أما الكتاب الثاني فقد وسمته بـ (**ضروب من كتب التراث**) وفيه وقفت عند ثلاثة عشر كتاباً مختلفاً كُنْتُ قد راجعتها بين فينة وأخرى. وكانت مراجعتي لها متفاوتة، فبعضها

توفرت عليه توفراً حسناً فنقدته وصححت بعض أوهامه، وأضفت إليه شيئاً من هنا وشيئاً من هناك. وبعضها لم أفصّل فيه كثيراً، وظل في نفسي منه شيء، و لم أستكمله تمام الاستكمال، فتركت الباب مفتوحاً لأناس غيري يُتمّونه ويستكملونه... وإني لأزعم أن وفرة المعارف وكثافة المعلومات اللتين اكتنزهما كتابي هذا يعدلان ما اعتراه من نواقص، ربّما أكون أعلم بمواطنها من غيري.

أما الكتاب الثالث وعنوانه : (**دراسات وكتب متصلة بالتراث**) فقد كرّسته لبعض الدراسات والكتب التي أُلّفت في زماننا، وانصبَّ اهتمام أصحابها على قضايا التراث أو مصادره أو مؤلفاته أو نصوصه أو أعلامه أو بلدانه... فكان لي مكث، يطول أو يقصر، عند تسعة كتب ذات محاور تراثية، أو متّصلة بالتراث بأسباب، فعرّفت بها، وقدمتُها للقارئ مشفوعةً ببعض الملاحظات والتصويبات والإضافات التي سُقْتها بروح نقدية وموضوعية معاً.

ولما كان القارئ العربي يتنزّل منازل، كانت دراساتي هنا تتنزّل منازل أيضاً، فمنها ما ينفع الدارس المتخصّص والباحث المتبحّر من الطلبة الجامعيين، ومنها ما يهمّ من يرغب بالاطلاع والخلوص إلى فكرة ما عن كتاب بعينه، ومنها ما يخدم قارئاً مُعْجلاً قد لا يكون من وكْدِهِ وطبيعة عمله ما يضطره للتريّث كثيراً عند كتب التراث اللغوية والأدبية والتاريخية، بل أنْ يُلِمَّ سريعاً بجانب من جوانب التأليف التراثي، من خلال صوى تمكّنه من ذلك.

ولقد خفّفَ من تردّدي في إلحاق بعض التعريفات القصيرة لبعض الكتب، بمصنفي هذا، اعتقاد مآلُهُ: أنّه كما يمكننا أن نخصّص دراساتنا لطلبة الجامعات والمختصّين، يمكننا أيضاً، بل ينبغي علينا، أن نوجه اهتمامنا إلى شداة يبغون معلومة قصيرة موجزة، تتصل بتراث الأجداد وجهودهم التأليفية العظيمة. ومن المسلم به أن جسم الإنسان كما يحتاج إلى وجبة دسمة، يحتاج أيضاً إلى وجبة خفيفة سريعة. وإذا استقام لنا تشبيه تينك الوجبتين بالقوادم والخوافي، فإننا نرى أن طائر العلم ينبغي له أن تتضافر قوادمه وخوافيه ليجوب أرجاء الفضاء الرحب الفسيح .

د. عادل الفريجات　　　　　　دمشق في ٢٠ / ٢ / ١٩٩٧

الكتاب الأول

(جوانب من عالم المكتبة التراثية)

آ – التأليف النوعي والموسوعي في التراث العربي

ب – الكتب المفقودة أو المنشورة ناقصةً

ج – المتابعة والتتبُّع في كتب التراث

د – التصنيف بالشعر في التراث العربي .

التأليف النوعي والموسوعي في التراث العربي

كان للعلم والمعرفة، في الحضارة العربية، مكانة بارزة، واحتلّ العلماء والمفكّرون فيها منزلة مرموقة، حتى إنهم وُصفوا في تراثنا بأنهم ورثة الأنبياء. وقد ورد في التنزيل العزيز ﴿ ويرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات ﴾ (سورة المجادلة ٥٨: ١١). وورد في الحديث الشريف عن الرسول عليه السلام: « أربعة تلزم كلّ ذي حجى وعقل من أمّتي، قيل: يا رسول الله وما هي ؟ قال: استماع العلم وحفظه، والعمل به ونشره » – وعن جعفر بن محمد أنه قال: " اطلبوا العلم وتزيّنوا معه بالحلم والوقار، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، ولا تكونوا علماءَ جبابرة فيذهب باطلكم بحقكم ".

ولعميق تقدير الرسول ﷺ للقراءة والكتابة، وهما مقدمة كل علم، جعل فِداء كل أسير من أسرى المشركين المتعلمين، في وقعة بدر، أن يعلّم عشرة من أبناء المدينة القراءة والكتابة، فكأني به كان يقايض حرية النفس وظلمة الأسر، بحرية الفكر ونور العلم.

إذاً استهوت المعرفة نفوس العرب، وجذب العلم قلوبهم، فكرّس بعضهم حياته كلها لهما، ووضع لمعاصريه وللأجيال اللاحقة مصنّفات تنمّ على عزائم يَعِزّ نظيرها، وعلى هِمَمٍ تطاول الجوزاء علوّاً وشموخاً. وكان من بين هؤلاء رجال آثروا شأن العلم وأنواره وأمجاده، على شأن السلطة وطماحها وأمجادها، حتى إن أحد العلماء قال، وقد تحلّق حوله طلاّبه، في ليلة بَرْدٍ قارس، وكانوا يجلسون معه في غرفة متواضعة، في مسجد عتيق، قال: " لو علم الملوك ما نحن فيه من نعيم لقاتلونا عليه ". والحق أن أنوار العلم الكاشفة التي تُبدّد ظلمات الجهل، وتجعل العالم بأسره مضاءً تحت أبصارنا، هي أثمن بكثير من كنوز الدنيا الفانية. وقد صدق من قال: " رتبة العلم أعلى الرُّتب ".

ولا غَرْوَ، بعد، أن تحفل المكتبة العربية القديمة بأسماء رجال آمنوا بالأفكار السابقة، فتعلّموا، واستوعبوا، وهضموا، ونضجوا، ثمّ راحوا ينهضون بأعمالٍ تأليفية وتصنيفية عظيمة ورائعة، لا يملك مَنْ يعاين الجهد المبذول فيها، إلاّ أن ينحني إجلالاً لأصحابها ومؤلّفيها...

وفي كل قرن من قرون الفكر العربي وُجدت أسماء بارزة تستوقف الدارس، وتستأني الباحث، لأنها اتصفت بغزارة العلم وموسوعية المعرفة ودأب البحث والدرس. وسنركز حديثنا هنا على التراث اللغوي والأدبي والتاريخي لأنه محور اهتمامنا ومناط عملنا.

ومن تلك الأسماء في هذا التراث، يبرز في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، وهو قرن التدوين والتأليف الجدّيّين عند العرب، العلاّمة الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠/٧٨٦) الذي ألّف معجم « العين »، وهو أول معجم عربي. وقد طبع في تسعة مجلدات بتحقيق الدكتورين إبراهيم السامرّائي ومهدي المخزومي.

ويعدُّ الخليل أيضاً المؤسّس الأول لعلم من علوم العربية، وهو علم العروض. وقد اكتشف أربعة عشر بحراً من الشعر العربي. كما يُعد أيضاً أستاذاً لسيبويه صاحب كتاب "الكتاب" في النحو.

وقد كان هذا الرجل مثالاً يحتذى في سيرته، قال فيه الفقيه سفيان الثوري: " من أحبَّ أن ينظر إلى رجلٍ خُلِق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد ". وقال عنه تلميذه النضر بن شميل: " أكلتُ الدنيا بعلم الخليل بن أحمد وكتبه، وهو في خصٍّ لا يشعر به" (نزهة الألباء، للأنباري ص٤٨). وخلاصة القول: إن الخليل مفخرة من مفاخر الحضارة العربية، وعبقري عظيم قلما يجود الزمان بمثله.

وإذا تركنا القرن الثاني وانتقلنا إلى الثالث الهجري / التاسع الميلادي، طالعتنا ثلّة من العلماء العظام في هذا القرن، نمثّل عليهم بأبي عبيد القاسم بن سلاّم (٢٢٤ / ٨٣٨) الذي صنّف العديد من الكتب، من بينها كتابهُ العظيم « الغريب المصنّف ». وقد أمضى أبو عبيد في تأليفه أربعين عاماً، فأنتج سفراً من أجلّ أسفار القرن الثالث، من الزاوية اللغوية والأدبية. ويمكننا أن نعدّه معجماً لغوياً بني على أساس الموضوعات. ويتألف هذا الكتاب من ألف باب متفرّقة في كتبه السبعة والعشرين التي منها مثلاً:

١- كتاب خلق الإنسان. ٢ - كتاب النساء. ٣ - كتاب اللباس. ٤ - كتاب الأطعمة. ٥ - كتاب الأمراض. ٦ - كتاب الدور والأرضين... الخ.

ويحوي الغريب المصنّف نحو ألف ومئتي شاهد من شواهد اللغة، وقد لقي من العلماء الذين عاينوه عنايةً فائقة، حتى إنّ ابن سيده الأندلسي، علي بن إسماعيل الضرير، حفظه غيباً. ومخطوطات هذا الكتاب توجد متفرقة في القاهرة وأيا صوفيا، والفاتح، والاسكوريال، وامبروزيانا، وتونس (انظر أحمد الشرقاوي إقبال: معجم المعاجم العربية ص ١٤٣، وكوركيس عواد: أقدم المخطوطات العربية في العالم ص ١٧٥). ومن المعروف أن الجزء الأول من هذا الكتاب قد صدر في تونس بتحقيق محمد مختار العبيدي. وحقق جزءاً منه رمضان عبد التوّاب سنة ١٩٦٢، ونشر أربعة فصول منه محمد حسن آل ياسين في مجلة المجمع العلمي العراقي عام ١٩٨٣ و ١٩٨٥ (مج ٣٥ و٣٦).

ومما قيل في شأن صاحب الغريب المصنّف: " علماء الإسلام أربعة: عبد الله بن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والقاسم بن معن في زمانه، والقاسم بن سلاّم في زمانه " - (الأعلام ٥: ١٧٦).

ومن علماء القرن الثالث الكبار أيضاً أبو عبيدة - مَعْمَر بن المثنى (٢٠٩/٨٢٤) ويُعْزَى إليه أكثر من مئتي مصنّف حسبما يذكر ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان، (وانظر مقال ناصر حلاوي: مؤلفات أبي عبيدة في مجلة المورد مج ٣ ع ٣) . ومنهم المدائني، وله نحو (٢٤٠) كتاباً حسبما أحصى له عبد السلام هارون من مؤلفات في كتاب الفهرست لابن النديم. وكذلك هشام بن محمد الكلبي، وله نحو (١٤٠) كتاباً. والشافعي وقد سرد له ياقوت الحموي نحو (١٤٢) كتاباً. أما الجاحظ (٢٥٥/٨٦٨) أديب العربية الأكبر، فذُكر أنه صنّف زهاء ثلاثمائة وستين كتاباً، في ألوان من المعارف شتّى. وقد ساق هذا سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان. ولعلّ أهم كتب الجاحظ على الإطلاق كتابه الحيوان، وقد طبع في سبعة أجزاء، وكتابه البيان والتبيين، وطبع في أربعة مجلدات. ولكنّ ثمة من ينزل بمؤلفات الجاحظ إلى مئة ونيّف وسبعين كتاباً. أما ياقوت الحموي فقد

تَنسَب إليه (١٢٨) كتاباً فقط. (انظر عبد السلام هارون: قطوف أدبية ص ١٧١) و(مقال هدى شوكة بهنام : الموروث الجاحظي مخطوطاً ومطبوعاً – مجلة المورد مج ٧ ع ٤).

وفي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي يطالعنا محمد بن جرير الطبري (٣١٠/ ٩٢٢) بقامته العالية في ميدان التأليف والتصنيف، فقد عُزي إليه (٤١) كتاباً، ونُسِب إليه خمسة كتب مابين مفقود ومنسوب.

وكان الطبري يكتب أربعين ورقة في كل يوم على مدى أربعين عاماً. وقد ذكر كتبه الواحد والأربعين عبد الرحمن حسين العزاوي مؤلّف كتاب (الطبري – السيرة والتاريخ) المطبوع ببغداد سنة ١٩٨٩. ومن مفاخر هذا العالم الكبير أنه ألّف كتابين ضخمين هما: تفسير القرآن، الذي طبع منه ثلاثون جزءاً في القاهرة (١٣٢١/١٩٠٣) وتاريخ الأمم والملوك، المعروف بتاريخ الطبري، وقد نشره المرحوم محمد أبو الفضل إبراهيم بالقاهرة في عشرة أجزاء . ومما أثر عن شغف الطبري بالعلم والمعرفة أن بعض الثقات روى أن الطبري قبل وفاته بساعة أو أقل ذكر أمامه دعاء عن جعفر بن محمد، فاستدعى محبرة وصحيفة فكتبه، فقيل له: أفي هذا الحال ؟ فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتّى الممات (تاريخ بغداد ٢: ١٦٣).

وفي القرن ذاته ظهر كتاب عظيم يمكن أن يُعَدّ عنواناً لهذا القرن، وهو يدخل في باب التراجم والسِّيَر، واسمه كتاب الأغاني، لمؤلفه أبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦ / ٩٦٦). وقد أمضى أبو الفرج في تأليف كتابه هذا نحواً من خمسين سنة، فانتهى إلى كتاب من أُمَّهات كتب المكتبة العربية، إذ ضم تراجم كثيرة لشعراء العرب في الجاهلية والإسلام والعصرين الأموي و العباسي. وقد أهدى كتابه هذا إلى سيف الدولة الحمداني، فوهبه ألف دينار. ولما بلغ نبأ هذه المكافأة الصاحبَ بن عبَّاد، قال: " قصَّر سيف الدولة، إن أبا الفرج يستحقُّ أضعافها ". وكان الصاحب يستصحب في أسفاره حمل أربعين بعيراً من كتب الأدب، فلما وصل إليه كتاب الأغاني استغنى به عنها. أما مجموع كتب الصاحب الشخصية، فكان يقدّر بحمل أربعمائة بعير أو أكثر (معجم الأدباء – ط الرفاعي ٦: ٢٥٩).

ويستوقفنا في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ثلاثة أعلام كبار عظام، هم: الثعالبي، والبغدادي، والبيروني. وأمّا الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد (٤٢٩ / ١٠٣٧) فقد نعته الباخرزي صاحب دمية القصر وعصرة أهل العصر بأنه " كان جاحظ نيسابور، وزبدة الأحقاب والدهور، لم ترَ العيون مثله، ولا أنكرت الأعيان فضله " – (الدمية ص ١٨٣). وقد عدّ المحقق (صادق النقوي) من مؤلفات الثعالبي المطبوعة والمخطوطة والمفقودة (١٢٥) مئة وخمسة وعشرين كتاباً، وذلك في مقدمته لكتاب الثعالبي « خاص الخاص ». ولعلَّ أهم كتب هذا الرجل يتيمة الدهر، ويقع في خمسة أجزاء، وثمار القلوب في المضاف والمنسوب، وهو جزآن، والتمثيل والمحاضرة، وآداب الملوك، وأحسن ما سمعت... الخ وربما لكثرة تصانيفه وصفه ابن بسَّام في كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة بأنه " رأس المؤلفين في زمانه".

وإذا كان الثعالبي، ومن قبله الأصفهاني، مؤلِّفَين موسوعيَّيْن، اشتُهرا بوفرة مصنفاتهما وغزارتها، فإن البيروني (٤٤٠ / ١٠٤٨) كان مؤلِّفاً نوعيّاً وموسوعيّاً معاً. وقد حُصرت مؤلفاته فبلغت (١٨٠) مئة وثمانين كتاباً ورسالة. ونظراً لقيمة هذه الكتب، أو بعضها، قال المستشرق (سخاو) عن البيروني «إنه من أضخم العقول التي ظهرت في العالم، بل هو أعظم علماء عصره، ومن أعظم العلماء في كل العصور » – (انظر د. عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدّمه ص ١٠٣). ووصفه (جورج سارطون) بقوله:" إن البيروني من أعظم علماء الإسلام ومن أكابر علماء العالم " – (انظر عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص ١٨٦). وقال فيه المستشرق (أريو بوب): " في أية قائمة تحوي أسماء أكابر العلماء، يجب أن يكون لاسم البيروني مكانه الرفيع ". واعترف (سميث) في كتابه تاريخ الرياضيات بأن البيروني كان ألمع علماء عصره في الرياضيات، وأن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرها في العلوم. ورأى بعض العلماء أن البيروني سبق (نيوتن) بعدة قرون في معرفة أن الفترات المتساوية بين الزوايا لا تقابلها تغيّرات متساوية في الجيوب... وللبيروني من الكتب الهامة: الآثار الباقية عن القرون الخالية، وتحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، والتفهيم لصناعة

التنجيم، والجماهر في معرفة الجواهر، والقانون المسعودي، ويقع في ثلاثة مجلدات في نحو (١٥٠٠) صفحة، وهو في الفلك والجغرافيا. وقد أصدرت أكاديمّية العلوم السوفيتية سنة ١٩٥٠ مجلداً بعنوان « البيروني » بمناسبة ألفية مولده. وكذلك صدر في الهند مجلد تذكاري سنة ١٩٥١ عن البيروني يحوي عشرات المقالات، احتفالاً بذكراه واعترافاً بفضله - (انظر د. عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ص ١٠٣ - ١٠٤).

ولا يصح أن نترك القرن الخامس الهجري دون أن نشير إلى كتاب عظيم للخطيب البغدادي، أحمد بن علي (٤٦٣ / ١٠٧٠) وهو تاريخ بغداد، ويقع في (١٤) أربعة عشر جزءاً. وهو موسوعة كبرى في باب التراجم والرجال. وللمؤلف نفسه كتاب هام أصدرته المحقّقة الأستاذة (سكينة الشهابي) بعنوان تلخيص المُتشابه في أسماء الرجال. وهذان الكتابان مصدران هامان كانا من مصادر علم عظيم من أعلام القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي هو ابن عساكر (٥٧١ / ١١٧٥). وهذا القرن هو الذي سنقف عنده الآن من خلال ثلاثة أعلام هم: ابن عساكر والعماد الأصفهاني وعلي بن عقيل الحنبلي.

فابن عساكر هو مصنّف كتاب « تاريخ مدينة دمشق » الذي يقع في إحدى تجزئاته في (٨٠) ثمانين مجلدة. ويحتاج الآن إلى جمهرة كبرى من الباحثين لإخراجه محققاً ومخدوماً وفق أسس النشر العلمي المعاصر. وقد طبع من هذا الكتاب حتى الآن، في مجمع اللغة العربية بدمشق، وخارج نطاق المجمع أكثر من عشرين جزءاً. وكان الجزء الأول قد صدر عام ١٩٥١ بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد. وتعد الباحثة السورية (سكينة الشهابي) المتخصّصة الأولى بتاريخ ابن عساكر، وقد أصدرت منه وحدها سبعة عشر مجلداً حتّى اليوم.

ومن المعروف أن ابن منظور المصري (٧١١ / ١٣١١) قد اختصر تاريخ ابن عساكر، فنشر مجموعة من الباحثين هذا المختصر في (٢٩) جزءاً بدار الفكر في دمشق وبيروت، بين عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٨.

ويمكن للمرء أن يشير في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي إلى عالم آخر من أصفهان هو العماد الأصفهاني (٥٩٧ / ١٢٠٠)، فهو عالم عظيم، وله كتاب كبير يدخل في باب التراجم اسمه: خريدة القصر وجريدة أهل العصر، وقد نشر منه في بغداد سبعة

أجزاء تتناول شعراء العراق، بتحقيق محمد بهجة الأثري، وأربعة بدمشق بتحقيق المرحوم شكري فيصل، واثنان في مصر، وثلاثة في تونس، فبلغ مجموع أجزائه المطبوعة حتى الآن (١٦) جزءاً. ولم يطبع من الخريدة قسم شعراء فارس حتى اليوم فيما نعلم.

وفي القرن السادس أيضاً ظهر عالم ألّف أكبر كتاب في الدنيا، وهو كتاب الفنون، وصاحبه الإمام أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي البغدادي (١١١٩/٥١٣). وكتاب الفنون يقع في ثمانمئة مجلدة. قال عنه ابن رجب الحنبلي: " إنه كتاب كبير جداً فيه فوائد كثيرة جليلة في الوعظ والتفسير والفقه والأصلين والنحو واللغة والشعر والتاريخ والحكايات، وفيه مناظراته ومجالساته التي وقعت له وخواطره ونتائج فكره قيّدها فيه " وينزل به ابن الجوزي إلى مثتي مجلدة وقال إنه وقع له منه نحو من مئة وخمسين مجلدة - (ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٨٨، وسوانح وتأملات في قيمة الزمن لخلدون الأحدب ص ٢٩).

وتستوقفنا في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي أسماء لعلماء عظام، وما أكثر العظام في هذا القرن، والأسماء الثلاثة هي: ياقوت الحموي، والصغاني، وابن الجوزي.

فياقوت الحموي (٦٢٦ / ١٢٢٨) ألّف ثلاثة كتب هامة للغاية، عدا مؤلفاته الأخرى، وهي: معجم الأدباء، ومعجم البلدان، ومعجم الشعراء. وقد ضاع الأخير ووصل الأولان. وبلغت أجزاء معجم الأدباء في طبعة (أحمد الرفاعي) بمصر عشرين جزءاً. أما في طبعة (إحسان عباس) الأخيرة له بدار الغرب الإسلامي، فبلغت (٧) سبعة أجزاء. وهي أوفى وأكمل من الطبعة الأولى. وطبع معجم البلدان في خمسة أجزاء بدار صادر ببيروت. والحقيقة أن هذين المعجمين فيهما من الأصالة والعلم ما يرفع من شأنهما إلى حد بعيد.

أما الصغاني (٦٥٠ / ١٢٥٢) فيلفت انتباهنا إليه بكتابه العظيم الممتاز: التكملة والذيل والصلة. وهو معجم لغوي تعقّب فيه كتاب الجوهري: الصحاح في اللغة، واستدرك عليه الكثير من المواد اللغوية، وصحّح الجمّ الغفير من روايات الشعر الواردة فيه، لأنه كان يملك في بيته نسخاً عالية من دواوين الشعراء العرب القدامى الذين مرَّ ذكرهم في كتاب الصحاح (انظر بحث د. أحمد خان: مصادر الصغاني وموارده لمؤلفاته اللغوية - في مجلة المورد العراقية - مج ١٩ ع١ العام ١٩٩٠ ص ٢٢٧ - ٢٤٣).

وقد عاد الصغاني من أجل كتابه « التكملة » إلى ألف كتاب عدّها في مقدمة معجمه الذي طبعه مجمع اللغة العربية بالقاهرة في ستة أجزاء.

أما ابن الجوزي (٦٥٤ / ١٢٥٦) فقد صنع حول مؤلفاته الباحث (عبد الحميد العلوجي) كتاباً كاملاً، طبع في بغداد سنة ١٣٨٥ / ١٩٦٥ ذكر فيه أن لابن الجوزي ما يقرب من أربعمئة كتاب، استقرّ منها مخطوطاً أكثر من /١٣٩/ كتاباً في خزائن المخطوطات الشرقية والغربية، وضاع أكثر من /٢٣٣/ كتاباً، وطبع (٣٠) كتاباً (انظر مقدّمه العلوجي لكتابه مؤلفات ابن الجوزي ص ٥). ومن أهم كتب هذا العالم التي وصلت إلينا وتتصف بالموسوعية كتابه: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ويقع في (١٨) مجلداً وظهر بدار الغرب الإسلامي عام ١٩٩٥، بتحقيق عبدالجليل عطا. ومما يُروى عن هذا الرجل، الذي كرس حياته للعلم والمعرفة أيّما تكريس، أنه وَصَّى أنْ تجمع بُرايات الأقلام التي كَتَب بها أحاديث رسول الله، لتكون وقوداً للنار التي يسخّن بها الماء الذي سيغسل به جسده بعد موته، فاستُجيب لوصيته، فكفت تلك البرايات وزاد منها..! وروى ابن العماد الحنبلي أن ابن الجوزي كان يكتب في اليوم الواحد أربع كراريس، فيرتفع له كل سنة، من كتابته، ما بين خمسين إلى ستين مجلداً !

هذا وقد وصف المستشرق الأمريكي (ف. روزنتال) في كتابه « علم التاريخ عند المسلمين » كتاب المُنْتَظَم لابن الجوزي بقوله: " لقد بقي في اللغة العربية تاريخ عالمي عظيم، هو كتاب المنتظم، لابن الجوزي، أما الذين تلوه فقد انحدروا إلى أوطأ مستوى تدنّى إليه التاريخ الإسلامي " - (انظر عيون المؤلفات لعبد الوهاب الصابوني ج ٢ ص ٢٩٦). والمعروف أن كتاب المنتظم مرتب حسب السنين. ويبدأ بالخليقة إلى ظهور الإسلام، ثم من الإسلام إلى سنة ٥٧٥ هجريّة.

ويثير إعجابنا في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي أربعة مصنّفين كبار، يعدّ كلٌّ منهم عنواناً للتأليف في الأدب والتاريخ. وهؤلاء الأربعة هم، ابن منظور المصري (٧١١ / ١٣١١) والذهبي (٧٤٨ / ١٣٤٧) وابن فضل الله العمري (٧٤٩ / ١٣٤٨) والصفدي (٧٦٤ / ١٣٦٢).

أمّا ابن منظور محمد بن المكرَّم فهو صاحب معجم: لسان العرب. وقد طبع هذا المعجم بدار صادر ببيروت في (١٥) مجلداً، وفهْرَسَتْه ثلّة من العلماء الأردنيين في ستة مجلدات وطبعتها.

ولسان العرب معجم لغوي ضخم ضمَّ خمسة معاجم قديمة هي:

١ - تهذيب اللغة للأزهري . ٢ - والصحاح للجوهري. ٣ - والمحكم لابن سيده.
٤ - وحواشي ابن بَرّي على الصحاح. ٥ - والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري.

ونقل ابن حجر العسقلاني عن ابن ابن منظور - قطب الدين أنَّ أباه ترك بخطّه خمسمئة مجلدة. ويُقال إن الكتب التي اختصرها هي خمسمئة كتاب. ومما اختصره ابن منظور: كتاب الأغاني، والعقد الفريد، والذخيرة، ومفردات ابن البيطار، ومرَّ بنا اختصاره لكتاب ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق، الذي طبع في (٢٩) مجلداً.

أمّا الذهبي، فهو مؤلف الكتاب العظيم: تاريخ الإسلام، الذي طبع منه حتى الآن (٤٢) مجلداً، بتحقيق عبد السلام التدمري. وكان بشّار عواد معروف قد نشر منه أربعة أجزاء في بيروت. وللذهبي أيضاً كتاب عظيم آخر ينتمي إلى باب التراجم واسمه: سِيَر أعلام النبلاء. وقد طبع في (٢٥) جزءاً بمؤسسة الرسالة بلبنان. ولو لم يكن للذهبي سوى هذين الأثرين العظيمين لكفاه فخراً.

أما ابن فضل الله العمري الدمشقي مولداً ووفاةً، فقد صنّف موسوعة ضخمة تقع في أربعين مجلداً هي: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أثارت إعجاب ابن شاكر الكتبي، فراح يكتب عنها قائلاً: " كتاب حافل لم أعلم أن لأحدٍ مثله ". وطبع من هذا الكتاب ثلاثة أجزاء بدار الكتب المصرية عام ١٩٣٤ بتحقيق أحمد زكي، كما طبع منه في لبنان جزآن آخران بتحقيق المستشرقة (دوريتا). ومن سوء الحظ أن الأجزاء الأخرى مفقودة و لم يعرف خبرها اليقين عند الباحثين حتى الآن.

أما الصفدي - خليل بن أيبك، فهو الآخر مؤلّف موسوعي بدليل أنه صنّف كتاباً هاماً، عنوانه: الوافي بالوفيات. لا نعرف عدد أجزائه المخطوطة بدقّة، ولكننا نعرف أن المعهد

الألماني ببيروت قد أصدر منه حتى الآن ما يربو على عشرين جزءاً، بعناية مجموعة من المستشرقين الأوربيين والباحثين العرب.

ومما يثير الدهشة في هذا الكتاب، عدد الكتب التي رجع إليها الصفدي في زمانه لتأليفه، فقد ذكر في مقدمته المئين من الكتب (انظر ج١ ص ٤٧ - ٥٥). وهي كتب في تاريخ المشرق والمغرب،واليمن والحجاز، وكتب تواريخ جامعة، وتواريخ خلفاء وملوك ووزراء وعمال وقضاة وقرّاء وعلماء وشعراء، وتواريخ مختلفة.. وعندما بلغ إلى كتب المحدّثين والصحابة أشار إلى الاستيعاب لابن عبد البر، وأسد الغابة لابن الأثير، وكتب الجرح والتعديل، ومعاجم المحدّثين ومشيخات الحفّاظ والرواة، ثم قال أخيراً: " إنّها شيء لا يحصره حدٌّ، ولا يقصره عدٌّ، ولا يستقصيه ضبْطٌ، ولا يَسْتدنيه ربْطٌ، لأنّها كاثرت الأمواج أفواجاً، وكابرت الأدراج اندراجاً " - (مقدمة الجزء الأول من الوافي بالوفيات ص ٥٥). وفي عبارات الصفدي هذه عبرة لنا، مآلها: أنَّ محاولة حَصْر كتب أي قرن من القرون، حتى وإن كانت ذات صفة موسوعية، محاولة دونها خَرْط القتاد. والنجاح فيها بعيد المنال، لذا كان وكدنا ها هنا التمثيل، وليس الاستقصاء، وذكر النماذج، وليس حصر النتائج.

ونمثّل لموسوعات (القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي) بمؤلفات أربعة من الرجال الكبار هم: ابن خلدون (٨٠٨ / ١٤٠٥) والقلقشندي (٨٢١ / ١٤١٨) والمقريزي (٨٤٥ / ١٤٤١) وابن حجر العسقلاني (٨٥٢ / ١٤٤٨). فابن خلدون يكفيه رِفْعةً وعلوًّا أنه مؤسس علم الاجتماع وفلسفة التاريخ، وصاحب كتاب التاريخ المسمَّى بتاريخ ابن خلدون، ويقع في أربعة عشر مجلداً. وهو قبل ذلك كله مؤلِّف المقدِّمة، المعروفة بمقدمة ابن خلدون، وهي التي قال فيها (روبرت فلنت): " من وجهة علم التاريخ وفلسفته يتحلّى الأدب العربي باسمٍ من ألمع الأسماء، فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة، ولا العالم المسيحي في القرون الوسطى يستطيعان أن يقدّما اسماً يضاهي في لمعانه ابنَ خلدون" - (انظر العلوم عند العرب، لقدري حافظ طوقان ص ٢٢٦). وكذلك أشاد (توينبي) الأستاذ بجامعة اكسفورد بمقدمة ابن خلدون فقال:" ابن خلدون في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام قد أدرك وتصوّر وأنشأ فلسفة التاريخ. وهي بلا شك أعظم عمل من نوعه خلقه أي

عقل في أي زمان ومكان ". وعلى الرغم من إشارات باحثين معاصرين إلى إفادة ابن خلدون من فلسفة " إخوان الصفا "، فإن مدى هذه الإفادة وحجمها وقيمتها لم تدرس بعد... وإذا كان ثمة بذورلأفكار ابن خلدون عند " اخوان الصفا " فإنَّ تشكيل فلسفة التاريخ وتعميقها وإنضاجها قد تمَّ على يدي هذا الرجل، مما حدا بـ (كارا دو فو) لأن يقول: " إن نزعة الاهتمام بالبحث في كل شيء في تاريخ النشوء والتطوّر وأسباب الحدوث والتقدّم تضع ابن خلدون في مصاف أرقى العقليات في أوربا الحالية " (العلوم عند العرب، لطوقان ص ٢٣١).

أمَّا القلقشندي، فهو صاحب كتاب (صُبْح الأعشى في كتابة الإنشا)، وهو كتاب ذو طابع موسوعي ويهتمّ بصناعة النثر الفني، لأنَّ صاحبه كان فقيهاً وكاتباً في ديوان المماليك، وبالشروط التي يجب أن تتوافر في الكاتب من معرفة باللغة والنحو والصرف والتصريف والبيان إلى حفظ القرآن والأمثال والأنساب وأنماط الخطوط، ثم نجده بعدئذ يتناول أحوال الممالك الإسلامية، فيقف عند كل واحدة منها، وعند حدودها، وخصائصها وعجائبها، وأنهارها، وزرعها، كما يتطرّق إلى المواثيق والعهود والسنة الشمسية والقمرية، ونظام البريد والرسائل والحمام الزاجل، وإجازات العلماء، ويتناول الأوائل في مختلف المجالات... الخ. ومنهجه يشبه منهج النويري في كتابه « نهاية الأرب » الذي صدر منه حتى الآن أكثر من ثلاثين مجلداً. أما صبح الأعشى ذاته فقد طبع في مصر بين سنتي ١٩١٠ و١٩٢٠ في (١٤) مجلداً، دون فهارس، فنهض محمد قنديل البقلي بصنع فهارس صبح الأعشى، وأصدرها في كتاب مستقل بالقاهرة سنة ١٩٧٢. ثم أصدر المؤلف نفسه كتاباً آخر حول هذه الموسوعة سمّاه: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، عام ١٩٨٣ بالقاهرة أيضاً - (انظر مصادر التراث العربي، لعمر الدقاق ص ١٢٥ - ١٢٦).

أما المقريزي، وهو من مدينة بعلبك بلبنان، فقد أربت مؤلفاته على مئتي كتاب، حسبما يذكر السخاوي في كتابه البدر الطالع. ومن أهم كتبه « المقفّى الكبير ». ونشرت منه دار الغرب الإسلامي ثمانية مجلدات ، بتحقيق محمد البعلاوي سنة ١٩٩١. وللمقريزي من الأسفار الهامة: « السلوك لمعرفة الملوك »، ويقع في (١٢) مجلداً. « وخطط المقريزي »،

وهو ثلاثة مجلدات. « وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع »، وهو في تسعة مجلدات – (الأعلام للزركلي، ١: ١٧٨، وانظر عيون المؤلفات للصابوني ج ٢ ص ٣٠٧ – ٣١٠).

ومن موسوعات ابن حجر الهامة كتابه: « فتح الباري بشرح صحيح البخاري »، وطبع في مطبعة بولاق بمصر سنة ١٣٠٠ هـ في ثلاثة عشر مجلداً. وكتابه: « تهذيب التهذيب »، ويقع في اثني عشر مجلداً. وكتابه « الإصابة في تمييز الصحابة »، وهو في أربعة مجلدات. وكتابه: « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة »، وهو في أربعة أجزاء. « وتبصير المنتبه بتحرير المشتبه »، وهو في أربعة أجزاء. هذا عدا كتبه الأخرى التي لم تصل إلينا رغم قرب عهده منّا نسبياً.

وفي القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، تَسْطَعُ نجوم لامعة في ميدان التأليف والتصنيف، وربما كان السيوطي (٩١١ / ١٥٠٥) الذي يُـرْوَى أنّه ألف أكثر من (٢٨٠) كتاباً، أهم رجال هذه المئة.... وقد ذكر يوسف إليان سركيس (١٩١٩) في كتابه: معجم المطبوعات العربية (٩٢) كتاباً للسيوطي. وسمّى محمد الشرقاوي إقبال في كتابه: معجم المعاجم العربية (٢٠٤) كتب للسيوطي. وفي عام ١٩٩٠ نشر الدكتور عبد الإله نبهان إحصاء لمؤلفات السيوطي المطبوعة فبلغت عنده (٢٥٠) كتاباً، واستدرك على نبهان السيِّدُ ، محمد خير رمضان (١٥) كتاباً فاته ذكرها. ثم تعقّب جهد الباحثين الأخيرين (أعني نبهان ورمضان) السيد بديع اللحام، فاستدرك عليهما (١٧) كتاباً آخر جديداً مطبوعاً لهذا الرجل العظيم، فبلغ بذلك عدد كتب السيوطي المطبوعة حتى عام ١٩٩٠ (٢٨٢) كتاباً (انظر حياة جلال الدين السيوطي مع العلم من المهد إلى اللحد، لسعدي أبو جيب، دمشق ١٩٩٣ ص ٤٧). هذا، وقد عرف السيوطي قدر نفسه، فقال عن ذاته في كتابه حُسْن المحاضرة: « إني ترجّيتُ من نعم الله وفضله، كما ترجّى الغزالي، أني المبعوث على هذه المئة التاسعة، لانفرادي بالتبحّر في أنواع العلوم ». وكان السيوطي أطلق رجاءه هذا سنة ٨٩٦هـ، قبل وفاته بخمس عشرة سنة. وادّعى السيوطي أنه بلغ رتبة الاجتهاد في الفقه لانه حقّق شروطه.

ومن أهم مؤلّفي القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي نذكر ابن العماد الحنبلي (١٠٩٨ / ١٦٨٦) الذي صنّف كتاب: شذرات الذهب في أخبار من ذهب. وقد طبع هذا الكتاب مؤخراً بدار المسيرة في بيروت عام ١٩٧٩ في ثمانية مجلدات. وهو كتاب في التراجم والرجال.

وإذا تَلفّتنا قليلاً إلى الاندلس ذكّرنا القرن الذي لازلنا فيه (الحادي عشر الهجري) بمؤلف كبير هو المقّري، أحمد بن محمد (١٠٤١ / ١٦٣١) وهو مصنف كتاب نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب. وقد قَصَرَهُ على الاندلس. وكان طابع هذا الكتاب طابعاً أدبياً، وينتمي إلى علم التراجم والرجال. وقد حوى، إلى ذلك، نُصُوصاً هامة ووافية من الشعر والنثر وشؤون التاريخ والاجتماع. والكتاب، بعد، قسمان: الأول في الاندلس ووصفها وجغرافيتها ومناخها وفتح العرب لها، وذكر بلدانها وأحوالها سكانها، ومَنْ وفد منها إلى المشرق، ومن رحل اليها من المشرق. والقسم الثاني في التعريف بلسان الدين بن الخطيب الذي أعجب به المؤلف إعجاباً عميقاً. وقد طبع هذا الكتاب عدة مرات كانت الأولى في بولاق بمصر سنة ١٢٧٩ / ١٨٦٢ م، والأخيرة في بيروت بتحقيق إحسان عباس، وتقع في ثمانية مجلدات، وذلك في العام ١٩٦٨. وترجع قيمة هذا الكتاب لما حواه من نقول من كتب مفقودة مشرقية ومغربية كانت بين يَدَيْ مؤلّفه، ثم طواها الزمن وضاعت.

ولدى استذكارنا للقرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي يهجم على الذهن اسم رجل كبير ومؤلّف موسوعي هو محمد أمين بن فضل الله المحبي (١١١١/١٦٩٩) وهو صاحب كتاب: نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، وهو مثل كتاب ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ينتمي إلى علم التراجم. وقد صدر في ستة أجزاء في مصر ١٣٨٧ / ١٩٦٧ بتحقيق عبد الفتاح الحلو. وللمحبي نفسه كتاب آخر هام في باب التراجم عنوانه: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. وطبع في بيروت في أربعة أجزاء. وعنوانه دال بوضوح على مضمونه.

أمّا في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، فإني لا أتمالك نفسي من أنْ أجْأرَ بإعجابي الشديد بمصنّف أكبر معجم عربي على الإطلاق، وهو المرتضى الزبيدي،

أبو الفيض محمد بن محمد (١٢٠٥ / ١٧٩٠) الذي ألف معجم: تـاج العـروس مـن جواهـر القاموس. وقد طبع هذا المعجم في مطبعة بولاق بمصر في عشرة أجـزاء. وهـاهوذا يطبـع مـن جديد في (الكويت) بتحقيق فريق من الباحثين الأكفاء. وقد صدر منـه حتـى الآن (١٩٩٧) تسعة وعشرون مجلداً. ويُتوقّع أن يصل إلى نحو أربعين مجلداً. ويضمّ هـذا المعجـم الـذي يعد درّة التاج في المعاجم العربية نحو (١٢٠) ألف مادة لغوية . وللمؤلّف نفسه كتـاب آخـر هـو التكملة والصلة والذيل. وهو في الاستدراك على معجم القاموس المحيط، للفيروز أبادي. وقـد طبع التكملة، وهو غـير كتـاب التكملـة والذيـل والصلـة، للصغـاني، طبـع في مصـر في ستة مجلدات. ومن كتب الزبيدي أيضاً: إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين، للغزالي. وطبع في مصر في عشرة أجزاء.

وقد بلغ هذا العالم التحرير، الـذي ولـد في (الهنـد) ونشـأ في (زَبيـد) بـاليمن، وأقـام بمصر، شأواً عظيماً، وشأنا رفيعاً، في مدارج المجـد العلمـي والتـأليفي، فكاتَبَـهُ ملـوك الحجـاز والهند واليمن والشام والعراق والمغرب والـترك والسـودان والجزائـر. وصـار بعـض النـاس في المغرب يعتقدون أن مَنْ حجَّ ولم يزر الزبيدي، ولم يصله بشيء، لم يكن حجّه كـاملاً (انظـر الأعلام، للزركلي ٧ / ٧٠).

....

وإذا انتقلنـا إلى عصرنـا القريـب، ونظرنـا في شموسـه العلميـة السـاطعة التي صنفـت الكتب الموسوعية والنوعية الكبرى، أو التي أمضت سحابة عمرها في البحث وتحصيل المعرفة، وإنارة درب الأجيال بنور العلم وشعاع المعرفة، إذا فعلْنا ذلك، طالعتنا أسمـاء كثـيرة عظيمـة، لانستطيع استقصاءها، وإنّما نمثّل عليها تمثيلاً، علماً بأننا نحصر همّنا هنا فيمـن خدمـوا اللغـة والأدب والتاريخ والتراث العربي عامةً.

ففي مصر الشقيقة، ربما كان أكبر مَنْ خَـدم الـتراث فيهـا، وحقّـق كتبـاً مـن كتبـه، ونشر مؤلفات منه وحوله، المرحوم (عبد السلام هارون)، فقد أصدر هذا العالم مئة وعشرين كتاباً. وكان كتابه الذي طُبع بعد موته، وهـو بعنـوان: قطـوف أدبيـة ــ دراسـات نقديـة في التراث العربي، الكتاب الحادي والعشرين بعد المائة له، وقد طبع بالقاهرةعام ١٩٨٨.

ومن العراق الشقيق يخطر بالبال في الحال اسم العلامة (جواد علي) صاحب كتاب: المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام. وهو كتاب عظيم ممتاز لم يؤلَّف نظير له في الدراسات المتصلة بالعصر الجاهلي. وقد اقتضى إخراجه للناس إنفاق عمر كامل في الجمع والتصنيف والتأليف. وقد طبع هذا الكتاب في عشرة مجلدات، بدار العلم للملايين في ثمانينيات هذا القرن.

ولايصح للمرء أن ينسى، من العراق، أكبر ببلوغرافي عربي، وهو المرحوم (كوركيس عواد) الذي أصدر كتاباً نوعياً اسمه: مصادر التراث العسكري عند العرب، في ثلاثة أجزاء، وأمْضَى من عمره لإنجاز هذا العمل الضخم (٤٥) عاماً. وكوركيس عوَّاد هو ذاته مؤلّف كتاب: فهرس فهارس المخطوطات العربية، الذي طبعه معهد المخطوطات العربية بالكويت عام ١٩٨٤ في جزأين، وهو مؤلف كتاب هام آخر ستمرّ بنا مراجعته في القسم الثالث من هذا الكتاب، هو: أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم. وهو أيضاً صاحب كتاب: فهارس المؤلفين العراقيين ويقع في ثلاثة أجزاء، بالإضافة إلى تحقيقه لمجموعة كبيرة من كتب التراث مثل الديارات للشابشتي، والوزراء والكتاب للصابي.

أما لبنان فلا يسوغ لنا أن ننسى من علمائها العظام عالمين كبيرين هما: بطرس البستاني، ولويس شيخو، فبطرس البستاني هو مؤلّف دائرة المعارف التي أصدر منها قبل موته، سنة ١٨٨٣، ستة مجلدات، وبدأ بالسابع فأكمله ابنه سليم، الذي أردفه بالثامن، وتعاون أبناؤه مع عمهم سليمان البستاني فأصدروا التاسع والعاشر والحادي عشر، وشرعوا في الثاني عشر، فتوقف العمل. وللبستاني هذا مؤلفات كثيرة أخرى غير دائرة المعارف، فهو مُصنّف معجم محيط المحيط، ويقع في مجلدين. وقد اختصره في معجم آخر دعاه قطر المحيط. ومن المعروف أن البستاني قد أصدر مستعيناً بابنه الأكبر سليم أربع صحف هي: نفير سورية، والجنان، والجنّة، والجنينة. ولاشك في أن بطرس البستاني يعد علماً من أعلام اليقظة العربية إلى جانب ناصيف اليازجي وابنه إبراهيم، وغيرهما.

أما لويس شيخو المتوفّى سنة ١٩٢٧، فقد كرَّس حياته كلها للعلم والمعرفة فأسس، وعمره دون الأربعين، مجلة المشرق في بيروت سنة ١٨٩٨، وراح يحرر أكثر مقالاتها على

مدى خمسة وعشرين عاما. وتنقّل شيخو في أوربا والشرق، واطّلع على المخطوطات العربية في خزائن المكتبات التي زارها، فنسخ الكثير منها، ونشر بعضه. ومما نشره شيخو مثلاً: شرح ديوان الخنساء، والألفاظ الكتابية، للهمذاني، ومن تصانيفه المتصلة بالتراث: المخطوطات العربية لِكَتَبَةِ النصرانية، ومجاني الأدب، وشعراء النصرانية قبل الإسلام. وقد ألف الأب كميل حشيمة ـ مدير دار المشرق ببيروت ـ كتاباً كاملاً رصد فيه آثار هذا العالم اللبناني، وذكر فيه عشرات الكتب والمقالات والأبحاث التي دبّجها، بعد أن كان الأب حشيمة نفسه قد صنف كتاباً بالفرنسية نَقَدَ فيه كتاب شيخو شعراء النصرانية، وخلّصه مما مازجه من أوهام تتصل بنصرانية بعض الشعراء الجاهليين خاصةً.

ومن فلسطين لايسع المرء إلاّ أن يقف مطولاً عند الباحث الدكتور (إحسان عباس) الذي يمكن أن يعد عميداً ثانياً للأدب العربي، لكثرة مؤلفاته ومصنفاته، ولما بذله من جهود علمية في التحقيق والترجمة، فدلّل على شخصية علمية متكاملة تهتّم بالتراث والمعاصرة معاً... وقد نشرت مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات، في عددها الأول لعام ١٩٩٤، محوراً خاصاً حول الدكتور إحسان عباس، ذكرت فيه مؤلفاته المطبوعة، وكتبه المحققة، والمترجمة، والمحررة، بالإضافة إلى بحوثه العلمية ومقالاته النقدية، فبلغ مجموع كتبه المؤلفة (٢٤) كتاباً. اما كتبه المحققة فبلغتْ (٥٢) كتاباً، من بينها ماهو ثمانية أجزاء، مثل: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني. وقد طبع في ليبيا وتونس بين عامي ١٩٧٤ و١٩٧٩، ومعجم الأدباء وهو سبعة مجلدات، وقد طبع بدار الغرب الإسلامي عام ١٩٨٨، ومن كتب الدكتور عباس التي تعد مراجع هامة في كثيرمن الجامعات العربية كتابه: تاريخ النقد الأدبي عند العرب ـ نقد الشعر، وطبع لاول مرة في بيروت عام ١٩٧١، وكتابه: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، الكويت ١٩٧٨ (سلسلة عالم المعرفة). أضف إلى ذلك تحقيقه لمجموعة من دواوين الشعراء العرب القدامى، أمثال ديوان لبيد بن ربيعة، وديوان كُثيِّر عزة، وديوان الصنوبري، وأشعار الخوارج.... الخ. كما شارك الدكتور عباس في ترجمة كتاب: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، لستانلي هايمن، وكتاب غوستاف فون غرونباوم: دراسات في الأدب العربي... الخ.

أما في سورية فقد برزت أسماء لأعلام كبار وهبوا العلم حيواتهم، وكرسوا له أعمارهم، واتصفوا بهِمَمٍ نادرة، وعزائم عظيمة، فصنفوا من الكتب القيمة والموسوعية، مايشهد لهم بتلك الصفات، ويؤكد زهدهم بملذات الحياة، وتفانيهم في خدمة الثقافة والمعرفة. ومن تلك الأسماء قائمة طويلة نقف عند خمسة رجال كبار فيها، هم:

١ ـ محمد كرد علي.

٢ ـ عمر رضا كحالة.

٣ ـ صلاح الدين المنجد.

٤ ـ خير الدين الزركلي.

٥ ـ خير الدين الأسدي.

فمحمَّد كرد علي المتوفى سنة ١٩٥١ يكفيه فخراً أنه أسَّس مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩١٩، وأنه كان وزيراً للمعارف السورية مرتين، وأنه مؤلف كتاب خطط الشام الذي طبع في ستة مجلدات، استخرجه من نحو (٦٩٥) كتاباً، فيها ماهو عربي وماهو تركي وماهو فرنسي. وأنه مؤلف كتاب: أمراء البيان، وكتاب: غرائب الغرب، (مجلدان)، والإسلام والحضارة العربية، وهو أجلُّ كتبه، كما يقول خير الدين الزركلي. وقد أصدر كرد علي أيضاً مجلة المقتبس في ثمانية مجلدات على مدى ثماني سنوات، وحرَّر في المقتطف خمس سنوات. وله أبحاث ومقالات كثيرة. وقد أصدر له مجمع اللغة العربية كتاباً مخطوطاً بعد وفاته بعنوان: المعاصرون ـ (انظر الأعلام، للزركلي ٦: ٢٠٢ ـ ٣٠٢).

أما عمر رضا كحالة، فهو صاحب معجم ضخم لا غنى عنه لكل باحث في التراث، واسمه معجم المؤلِّفِيْن، وقد طبع في (١٤) جزءاً. وهو مؤلف كتاب معجم القبائل العربية، ويقع في خمسة أجزاء، ومعجم أعلام النساء، وهو ثلاثة أجزاء، فضلاً عن كتب أخرى له كثيرة، أهَّلته لأنْ يُمْنَح وسام الاستحقاق السوري بجدارة قبل وفاته سنة ١٩٨٧.

أما خير الدين الزركلي (١٩٧٦) فهو مصنِّف أعظم كتاب عربي معاصر في التراجم، وأريد به كتاب الأعلام، وقد طبع بدار العلم للملايين ببيروت في ثمانية أجزاء. وسر عظمة هذا الكتاب هو الروح الاستقصائية الموجودة فيه، والمثابرة التي تَحلَّى بها صاحبه،

والدقة والضبط اللذان اتصف بهما، مما جعل هذا الكتاب في غاية النفاسة، يصعب على أي باحث معاصر أن يستغني عنه.

أما خير الدين الأسدي، فهو صاحب كتاب موسوعة حلب المقارنة، التي طبعها معهد التراث العلمي العربي بحلب في ستة مجلدات. وللأسدي مجموعة كبيرة جداً من المؤلفات أهّلته، مثل عمر رضا كحالة، لأن ينال وسام الاستحقاق السوري على جهوده التصنيفية في خدمة تراث هذه الامة وفكرها وتاريخها.

وبعد، فهذا غيض من فيض، بل هي خطرات خطرت لي دون جهد استقصائي كامل، ودون استيفاء شامل لأسماء من عملوا في التأليف النوعي والموسوعي. وربما كان من غبنتهم حقهم في الذكر هنا، أكثر بكثير ممَّنْ أنصفتهم، فقد أغفلت من مصر العربية مثلاً أعلاماً كباراً أمثال طه حسين، والعقّاد، وشوقي ضيف الذي ألّف نحو خمسين كتاباً. ومن العراق هلال ناجي الذي جاوزت آثاره المطبوعة المئة أثر (انظر مجلة معهد المخطوطات العربية مج٣٩ ج١ لعام ١٩٩٥ ص ١٤٩) ومصطفى جواد، وحاتم الضامن، ونوري حمودي القيسي. ومن تونس حسن حسني عبد الوهاب، والعروسي المطوي، ومن السعودية الشيخ حمد الجاسر، صاحب مجلة العرب، ومحقق وناشر مجموعة طيبة من كتب التراث. ومن ليبيا والسودان والجزائر والمغرب والأردن والأمارات والكويت وعمان أسماء كثيرة جداً لم يسعفني جهلي باستقصائها وذكرها هاهنا.

ولكن الذي يشفع لي، في الحقيقة، هو أنني رُمْتُ من وراء ماكتبت هنا أن أشير إشارات سريعة إلى هذا الملمح من ملامح التأليف العربي، لأصنع منه مدخلاً متواضعاً للتأمل في عظمة عزائم أبناء أمتنا من الأجداد والأسلاف، مما يبعث فينا الدهشة والإكبار، ويثير فينا مشاعر التقدير والإعجاب بأمة أنجبت، حسب التقديرات الرصينة مايقرب من أربعة ملايين مخطوطة مبثوثة في مكتبات أصقاع المعمورة المتباعدة. فهانحن إذاً إزاء تراث عظيم باذخ عجزت عن إنتاج مايضاهيه أمم أخرى كثيرة.

ومن يُعاينْ ماكتبه الألماني - التركي العلامة (فؤاد سزكين) في كتابه تاريخ التراث العربي الذي نقلته إلى العربية جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ونشرته في

عشرة أجزاء في ثمانينيات هذا القرن، يَرَ شيئاً عجباً من البحر الزاخر الذي لاساحل له، من المؤلفات المطبوعة والمخطوطة، التي كان (سزكين) يشير اليها بمجرد إشارات بعد حديثه عن كل علم من أعلام التراث العربي. وكان قد وقف في تاريخه هذا عند العام (٤٣٠ / ١٠٣٨) فقط. فإذا وضعنا هذا الكتاب إلى جانب كتاب آخر مشابه وسابق له زمنياً هو كتاب: تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان، وقد ترجم إلى العربية ونشر في القاهرة، تكاملت لدينا ملامح صورة ماعن تراث العرب العظيم في شتى جوانب المعرفة البشرية القديمة. وهذا تراث لايستطيع إلا جاهل أو مكابر، أو حاقد، أن يتنكر له، أو يستخف به، شرط أن ينظر إليه في إطاره التاريخي والاجتماعي والحضاري الذي ظهر فيه، ويضع في حسبانه نسبية تطور العلوم وتَرَقّي المعارف، عبر المسيرة الحضارية للبشرية جمعاء.



مصادر البحث ومراجعه

١ ـ ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق هنري لاووست، وسامي الدهان، دمشق ١٩٥١.

٢ ـ الأحدب، خلدون: سوانح وتأملات في قيمة الزمن، جدَّة ـ السعودية ـ ١٤٠٧هـ.

٣ ـ إقبال، أحمد الشرقاوي: معجم المعاجم، دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٤٠٧ / ١٩٨٧.

٤ ـ الانباري، نزهة الالباء في طبقات الأدباء.

٥ ـ الباخرزي: دمية القصر وعصرة أهل العصر.

٦ ـ بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم نجار وصحبه، ط ٣، القاهرة ١٩٧٤.

٧ ـ البغدادي، تاريخ بغداد.

٨ ـ الدقاق، عمر: مصادر التراث العربي، دار الشروق بيروت.

٩ ـ الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت.

١٠ ـ سزكين، فؤاد: تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي، الرياض ١٤٠٣ / ١٩٨٣.

١١ ـ الصابوني، عبد الوهاب: عيون المؤلفات، حلب (مطبوعات معهد التراث العلمي العربي) ١٤١٣ / ١٩٩٢.

١٢ ـ الصفدي، خليل الدين بن أيبك: الوافي بالوفيات، بيروت، مطبوعات المعهد الألماني.

١٣ ـ طوقان، قدري حافظ: العلوم عند العرب، دار اقرأ. د . ت.

١٤ـ علوجي، عبد الحميد: مؤلفات ابن الجوزي، بغداد ١٣٨٥ / ١٩٦٥.

١٥ ـ عواد، كوركيس: أقدم المخطوطات العربية في العالم، بغداد ١٩٨٢.

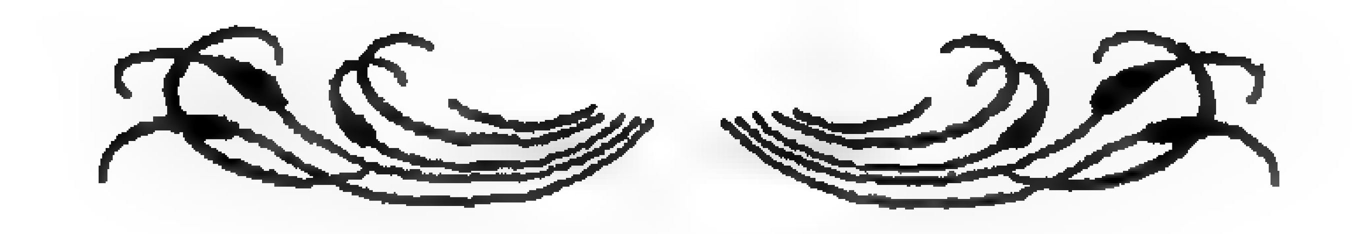
١٦ ـ اللحام، بديع: حياة جلال الدين السيوطي مع العلم من المهد إلى اللحد، دمشق.

١٧ ـ هارون، عبد السلام: قطوف أدبية، القاهرة ١٩٨٨.

١٨ ـ ياقوت الحموي: معجم الأدباء ، ط الرفاعي، مصورة دار إحياء التراث العربي ببيروت، وطبعة إحسان عباس.

١٩ ـ مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات، بيروت، العدد الأول ١٩٤٤.

٢٠ ـ مجلة معهد المخطوطات العربية ـ القاهرة ـ مج ٣٩ ـ ج١ لعام ١٩٩٥.



الكتب المفقودة أو المنشورة ناقصةً

في رحلة الكُتُب التراثية التي بدأت منذ عهد التدوين إلى يوم الناس هذا، ضاع الكثير الكثير، وقد أصاب المصنفات العربية القديمة ما أصاب الشعر القديم. وإذا كان الشعر، في زمن الشفاهية قد فَقَدَ من رصيده ماهو جم غفير ـ كما يقول أبو عمرو بن العلاء (١٥٤ / ٧٧٠) ـ فإن المصنَّفات الأخرى كذلك فُقِدتْ أجزاء منها، أو فقدت كلها في زمن الكتابية.

ومن يطالع كتاب الفهرست، لابن النديم (٣٨٥ / ٩٩٥) بما حواه من مصنفات ومؤلفات، يلحظ، بأسى، مدى خسارتنا لكُتُبٍ قيمّة أُلِّفتْ قبل موت ابن النديم. وقد بلغ عدد الكتب التي حصرها ابن النديم في الفهرست (٨٣٦٠) عنواناً على وجه الدقة. وبلغ عدد المؤلفين (٢٢٣٨) مؤلفاً. ويدخل في عداد الكتب ماهو ذو مئة جزء، وماهو رسالة ذات عشر ورقات. ويدخل في عداد المؤلفين من قال بيتاً من الشعر، ومن ألّف خمسمئة عنوان، من بينها عنوان واحد في عشرين ألف ورقة، وهو أقصى توريق وصل اليها كتاب الفهرست (انظر مقدمة شعبان خليفة ووليد محمد العوزة لكتاب الفهرست، طبع القاهرة ١٩٩١، ج ١ ص ٣٩).

ويزداد الأسى إذا وازن المرء بين ماذكره ياقوت الحموي (٦٢٦ /١٢٢٨) في كتابه معجم الأدباء من مؤلفات الأديب الذي يترجم له، وماوصل الينا من مؤلفات الأديب ذاته إلى هذه الأيام... وتتسع الدائرة أكثر فأكثر إذا ماقارنا بين ماسجَّله الحاج خليفة (١٠٦٧ / ١٦٥٦) في كتابه: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، وماصار إلى أيدي الناس الآن. ومن دلائل غزارة مادة هذا الكتاب الأخير أنه عرض لـ (٢٠٠) مئتي علم وفن، ووقف عند نحو (١٥٠٠٠) خمسة عشر ألف عنوان، وأشار إلى (٩٥٠٠) تسعة آلاف وخمس مئة مؤلف ـ (انظر: الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات، لمحمود الطناحي ص ٩٩). ويضاف إلى هذه الملاحظات النتيجة التي يفضي إليها النظر في مصادر المصنِّفين الكبار التي عادوا اليها

في زمانهم وفُقدت في زماننا، أمثال ابن عساكر، وياقوت الحموي، وخليل بن أيبك الصفدي، وعبد القادر البغدادي، والسيوطي. ولكل من هؤلاء مؤلفات دسمة وغنية، عناوين بعضها يقع في عدة أجزاء. بيد أن بعض الباحثين في التراث في عصرنا هذا شاؤوا أنْ يبعثوا إلى الحياة أجزاء من كتب مفقودة، عثروا عليها في جولات بحثية لهم في بطون أمّهات الكتب، فضموا أجزاءها بعضها إلى بعضٍ، وخرجوا، بعد بذل الجهد، بأمشاج كتاب ضائع، مُقدِّمين بذلك فكرة جيدة، أو مقبولة، واسعة أو موجزة، عن نَهْج ذاك الكتاب المفقود، وعن محتواه، وهمِّ مؤلفه، مما يكمل ملامح صورة ناقصة، أو يرسخ حكماً، أو يعدِّل أحكاماً، قد يكون بعضها مبنيّا على استقراءات ناقصة.

ويبدو أن النقص أو الزيادة في بعض مخطوطات الكتب كان قديماً، فقد ذكر ياقوت الحموي أنّه قرأ بمصر في نسخة لِـ « يتيمة الدهر »، للثعالبي، عليها خط يعقوب بن أحمد، بالقراءة عليه يرويها عن مؤلفها الثعالبي، فوجد زوائد لم يعرفها في النسخ المشهورة بأيدي الناس آنئذٍ (معجم الأدباء ٦: ٢٦٩).

وإذا كانت اليتيمة قد وصلت ونشرت في أربعة أجزاء، ثـمَّ نشرت تتمتها في جزء خامس في زماننا، فإنَّ كتباً أخرى بقيت ضائعة أو مبثوثة في مصادر لاحقة جاءت بعدها. ومن تلك الكتب على سبيل المثال لا الحصر، كتاب طبقات الشعراء، لدعبل الخزاعي (٢٤٦ / ٨٦٠)، فهو كتاب ضائع. وقد نشر (محمد جبار المعيبد) أجزاء معينة منه، في مجلة المورد العراقية (مج ٦ ع ٢). ومنها أيضاً كتاب الأربعة في أخبار الشعراء، لأبي هِفّان المِهْزَمي (٢٥٧ / ٨٧٠). وقد نشر (هلال ناجي) مقاطع من هذا الكتاب في مجلة المورد المذكورة سابقاً (مج ٨ ع ٣) وأضاف ان هذا الكتاب قد أثّر تأثيراً واضحاً في مصنّفات من جاء بعده، فاحتذى حذوه (محمد بن داود بن الجرّاح) (٢٩٦ / ٩٠٨) و (أبو محمد الحسن بن محمد ـ الوزير المهلّبي) (٣٥٢ / ٩٦٣م) و (أبو أحمد العسكري) (٣٨٢ / ٩٩٢). وكُتب هؤلاء كلها ضائعة.

وبعد أن نشر المُحقق (برنهارد ليفن) الجزء الثالث والنصف الأول من: كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري، في بيروت سنة ١٩٧٤، قام الدكتور (محمد حميد الله) بنشر ملتقطات من المجلد الأول والثاني والرابع الضائعة. وذلك في مدينة كراتشي بباكستان سنة ١٩٩٣.

وقبل هذا التاريخ نهض المحامي (عبود الشالجي) بنشر أربعة أجزاء ضائعة من كتاب: نشوار المحاضرة، للتنوخي، البالغ ثمانية مجلّدات، بعد أن بذل جهداً كبيراً ينقب في بطون الكتب، يقول الشالجي في هذا الصدد: «حاولْتُ من بعد ذلك أن أتتبع الفقرات الضائعة من المنشورات في ثنايا الكتب، فأعيد جمعها. وكان ذلك بدء عمل معين، بذلتُ فيه وقتاً وجهداً وصبراً، فقد راجعت مؤلفات تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، وتاريخ الوزراء، للصابي، ومؤلفَيْ ياقوت: معجم الأدباء، ومعجم البلدان، ووفيات الأعيان...) الخ والأجزاء التي أضافها (الشالجي) إلى الأصول المخطوطة هي الأجزاء (الرابع والخامس والسادس والسابع).

ومن الكتب التي عُدَّتْ مفقودة، ولم تطبع إلى الآن، بعض كتب معاني الشعر. وقد ألف في معاني الشعر مُصنّفون كثر، نذكر منهم: المفضّل الضَّبِّي (١٦٨ / ٧٨٤ م)، ويونس ابن حبيب (١٨٣ / ٧٩٩ م)، وابن كناسة الكوفي (٢٠٧ / ٨٢٢ م)، والأخفش - سعيد بن مسعدة (٢١٥ / ٨٣٠ م) وابن السكّيت (٢٤٦ / ٦٨٠ م)، والأصمعي (٢١٦ / ٨٣١ م) وابن أخيه عبد الرحمن (بعد ٢١٦ / ٨١٣ م) وأبا عُبيد القاسم بن سلام (٢٢٣ / ٨٣٧ م) وابن الأعرابي (٢٣١٠/ ٨٤٥ م)، والأشنانداني (٢٢٨ / ٩٠٠)....الخ. ولم يطبع من كتب هؤلاء - في حدود علمي - سوى كتاب المؤلف الأخير، أعني: الأشنانداني، طبعه عز الدين التنوخي، ونشرته وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٦٩.

ومن المعروف أن كتب معاني الشعر تُعْنى بالأبيات الملغزة التي لاتفهم معانيها للوهلة الأولى، بل تحتاج إلى تأمل وتدبر وإيضاح.

والحق أن البحث والاستقصاء يُمكّنانا من أن نقع على ملتقطات من بعض هذه الكتب المفقودة. وقد عثرت بجهد غير كبير على ثماني ملتقطات من كتاب ابن السكّيت: معاني الشعر، أو أبيات المعاني، وكلاهما اسم لِمُسَمَّى واحد على الأرجح. ومن تلك

المُلتقطات نص جاء في خزانة الأدب، للبغدادي (١٠٩٣/ ١٦٨٢)، فقد قال البغدادي في الخزانة (ج ١١ ص ٣٦٥) بعد أن انشد هذين البيتين:

فأمّا الصُدورُ، لاصدورَ لجعفرٍ ولكنّ أعجازاً شديداً ضريرُها
تزاحمُنا عندَ المكارمِ جَعفرٌ بأعجازِها إذْ أسْلمتْها صدورُها

«كذا أنشدهما يعقوب بن السكيت عن المفضل لرجل من الضباب في كتاب أبيات المعاني وقال: يقول: بنو جعفر ضعفاء عن حربنا استعانوا بالنساء، وذلك أن قُطيّة بنت الحارث تزوجها بشر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، فكان بين الضباب وجعفر حرب، فأعانت بنو أمية بني جعفر على الضباب. انتهى كلامه ».

ومن الكتب المفقودة، في باب التراجم، كتاب لابن رشيق القيرواني (٤٥٦/١٠٦٣) اسمه الأنموذج في شعراء القيروان، وهو يضم مئة ترجمة لمئة شاعر عاصروا ابن رشيق. ولئن لم تصل مخطوطة لهذا الكتاب إلينا، فإنّ كتباً تراثية لاحقة، عاش مصنفوها بعد ابن رشيق، قد نقلت عن هذا الكتاب. ومن تلك الكتب مثلاً الذخيرة لابن بسام، والمنتظم لابن الجوزي، ومعجم الأدباء، ومعجم البلدان، وكلاهما لياقوت الحموي، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، ونفح الطيب للمقري، والوافي بالوفيات للصفدي، وغيرها وغيرها.....

وقد قام العروسي المطوي ومحمد البكوش، من تونس، بمهمةِ جَمْعِ ملتقطات من كتاب الأنموذج الضائع، من المصادر المتأخرة، ونشراها بتونس.

و لم يُفْقَدْ كتاب ابن رشيق فحسب، بل ضلَّ طريقه إلينا كتاب آخر هام، هو كتاب: معجم الشعراء، لياقوت الحموي. وقد عثرت في أثناء بحوثي بنقول عن هذا الكتاب الهام، فقد نقل عنه الصفدي في كتابه: الوافي بالوفيات، فقال عن الشاعر الحسين بن أبي منصور: « قال ياقوت في معجم الشعراء: سمعته يقول: حفظت كتاب سيبويه، بعد المفصَّل للزمخشري، أقام بمصر في خدمة الملك العادل وصادف عنده القبول» ـ (الوافي بالوفيات ج ١٣ ص ٦٦).

وإنه من الملائم أن ينهض باحث معاصر، بمهمة مراجعة النقول التي وردت في مؤلفات من جاؤوا بعد ياقوت. وأخذت من كتاب معجم الشعراء، فيطلعنا على طريقة ياقوت في كتابه هذا، وقد يعرّفنا على أعلام جدد مغمورين، ربما تفرد ياقوت بترجماتهم في معجمه المفقود، الذي نشير إليه هاهنا إشارة مختصرة.

وقد أشار المحقّق الأستاذ (إبراهيم صالح) في مقدمة كتابه: وَفَيات قوم من المصريين، لابن الحَبَّال (٤٨٢ / ١٠٨٩) إلى أن لابن الحبال هذا كتاباً، اسمه: كتاب التاريخ. وهو كتاب لم يصل الينا، ولكن نقولاً منه وردت في كتب أخرى، مثل: بُغية الطلب، لابن العديم، والمنتظم، لابن الجوزي، ومعجم الأدباء، لياقوت الحموي، وسير أعلام النبلاء، للذهبي، وجذوة المقتبس، للحميدي، وطبقات الشافعية الكبرى، للسبكي ـ (انظر مقدمة كتاب وفيات قوم من المصريين ص ٢٣ ـ ٢٥).

ومن المناسب أيضاً أن يقوم باحث هُمام بجمع تلك النقول من هذا الكتاب المفقود وتصنيفها ونشرها.

وقد وعى الباحث الكبير الدكتور (إحسان عباس) خطورة التقاط النصوص المبعثرة في بطون الكتب التراثية التي وصلت إلينا، والتي تعود إلى كتب مفقودة، فأصدر في العام ١٩٨٨، كتاباً هاماً يقع في (٥٣٤) صفحة، سمّاه: شذرات من كتب مفقودة في التاريخ والأدب. وقد جمع هذه الشذرات من مجموعة من المصادر، كان أهمها: كتاب بغية الطلب، لابن العديم، ومعجم الأدباء، لياقوت الحموي، وذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي.

وبلغ عدد الكتب التي جمع نصوصاً منها (٣٠) ثلاثين كتاباً. منها (٢٢) اثنان وعشرون كتاباً في التاريخ و (٨) ثمانية في الأدب. وأكثر هذه الكتب بحكم المفقود. وقد صنع إحسان عباس معرضاً للنماذج منها تطول أو تقصر، ثم قال في معرضه هذا: «وهذا المعرض الجديد مؤشر على شيئين: أولهما على كثرة الكتب المهمة التي ضاعت أو ماتزال مختفية، وثانيهما على مبلغ النقص في بعض الكتب التي نشرت» ـ (المقدمة ص ٧).

ومن الكتب التاريخية المفقودة أو الناقصة التي التقط إحسان عباس نصوصاً منها:

١ ـ أخبار البرامكة، لأبي جعفر ـ عمر بن الأزرق الكرماني (القرن الثالث الهجري).

٢ ـ كتاب الأحداث، لأبي جعفر ـ محمد بن الأزهر (القرن الثالث الهجري).

٣ ـ كتاب سِيَر الثغور، لأبي عمرو عثمان بن عبد الله بن إبراهيم الطرسوي (٤٠٠ / ١٠٠٩).

٤ ـ تاريخ العُظَيْمي، لأبي عبد الله علي بن محمد أحمد بن نزار التنوخي الحلبي (بعد سنة ٥٥٦ هـ).

وقد نشر السيد إبراهيم زعرور كتاباً للعظيمي هذا بعنوان تاريخ حلب، بعد أن نال به درجة الماجستير من جامعة دمشق. وكان ثمة نصوص واحدة وردت عند إحسان عباس وإبراهيم زعرور (قارن بين كتاب عباس ص ٦٣ رقم (٢٧) وبين تاريخ حلب للعظيمي ص ٣٥٥، وكذلك بين إحسان عباس ص ٦٤ رقم (٣٣) وتاريخ حلب ص ٣٦١).

٥ ـ الاستظهار في التاريخ على الشهور، للقاضي أبي القاسم علي بن محمد الرحبي، المعروف بابن السمناني (٤٩٣ هـ).... الخ.

ومن كتب الأدب التي ساق نصوصاً منها الكتب التالية:

١ ـ كتاب المفاوضة، لأبي الحسن علي بن محمد بن نصر الكاتب (٤٣٧/١٠٤٦).

٢ ـ كتاب الربيع، لغرس النعمة أبي الحسن محمد بن هلال (٤٨٠/١٠٨٧). وقد ألفه هذا ليكون ذيلاً على كتاب نشوار المحاضرة، لأبي علي المحسن التنوخي.

٣ ـ نزهة الناظر، لكمال الدين أبي محمد عبد القاهر بن علوي بن المهنا (بعد سنة ٥٨٢ / ١١٨٦).

٤ ـ كتاب الديرة، لأبي الحسن علي بن محمد بن المطهر الشمشاطي (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي).

٥ ـ كتاب الأوراق، للصولي (٣٣١ / ٩٤٢). وقد اقتصر فيه على ماجاء في بغية الطلب، علماً بأن النقول عنه كثيرة. وقد نشر من هذا الكتاب ثلاثة أجزاء. وسيمر بنا بعد قليل استدراكات على مانشر منه، لانه لم يصل إلينا كاملاً.

ولم يكن كتاب الأوراق للصولي الكتابَ الوحيد الذي نشر ناقصاً في زماننا هذا، بل نُشر مثله كتب كثيرة، فاضطر الباحثون إلى صناعة استدراكات عليها، بعد أن عرفوا حقيقتها واكتشفوا نقصها.... وقد كان النقص يأتي من أصل المخطوط الذي أخرج عنه المطبوع. والإضافة تأتي من مخطوطات أخرى، أوفى وأكمل، أو من كتب أخرى نقلت عن أصول خطية ضائعة، ليست هي التي آل اليها محقق الكتاب.

ومن الكتب التي ظهرت ناقصة، بسبب الاعتماد على مخطوطةٍ واحدة فردة، كتاب الفرق، لثابت بن أبي ثابت اللغوي، وهو من علماء القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وموضوع هذا الكتاب الفرق بين تسمية أعضاء الجسم ووظائفه بين الإنسان والحيوان. وكان هذا الكتاب قد طُبع في (المغرب) اعتماداً على مخطوطة جامع القرويين بفاس سنة ١٩٦٤، ثم اكتشف (محمود الطناحي) مخطوطة أخرى له، فأرسلها إلى (حاتم الضامن) بالعراق، فاستدرك هذا الأخير على الكتاب المطبوع مايقرب من متتي موضع أخلت بها النسخة المطبوعة، ونشر ذلك كله في مجلة المورد (مج ١٣ ع ١).

وكذلك نشر (حاتم الضامن) مالم ينشر من كتاب الأمالي الشجرية، وهي المجالس العشرة التي أخلت بها طبعة حيدر آبادر، لأمالي ابن الشجري (١١٤٧/٥٤٢)، وفي مجلة المورد (مج ٣ ع ١).

ثم إن هذا الكتاب لقي عناية أخرى، فحقق منه الدكتور (محمود الطناحي) (٤٩) تسعة وأربعين مجلساً. ونال بتحقيقه هذا، ودراسته عن ابن الشجري وأماليه، شهادة الدكتوراه. ثم نشر عمله في مكتبة الخانجي بمصر عام ١٩٩٢.

ولم تكن المجالس الـ (٤٩) التي أخرجها الطناحي من الأمالي الشجرية هي الكتاب برمته، فالأمالي تقع في (٨٤) مجلساً.

ومما أشار اليه المحقق في مقدمته، ويهمنا هنا، أن هذه الأمالي حفظت لنا نصوصاً من كتب ضائعة، مثل كتاب الأوسط، للأخفش - سعيد بن مسعدة، وكتاب الواسط، لأبي بكر الأنباري، وبعض نصوص من كتب مفقودة، لأبي علي الفارسي، كما حوت نصوصاً مفقودة من كتاب (الكتاب)، لسيبويه، ومن مُصنَّفَي المبرِّد: المُقتضب، والكامل.

وقد نشر (ميخائيل عواد) كتاباً بعنوان: نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب، لمحمد بن عبدوس الجهشياري (٣٣١ / ٩٤٢) جمعها من مصادر مخطوطة ومطبوعة. ونشر (عواد) كتابه هذا في بيروت سنة ١٩٦٥. وكان الكتاب الأصلي الناقص نشر في القاهرة سنة (١٣٥٧ / ١٩٣٨) نشرة أخلتْ بحوالي ثُلُثَي أصل الكتاب ـ كما يرى (ميخائيل عواد) ـ (انظر مقدمته ص ١١).

وكذلك فعل هذا الدارس المُتَعَقِّب مع كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، لهلال ابن المحسن بن إبراهيم الصابي (٤٤٨ / ١٠٥٦) المنشور في بيروت عام ١٩٠٤، إذ وجد بعض كراريس منه، فنشرها تحت عنوان: «أقسام ضائعة من كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء»، في بغداد سنة (١٣٦٧ / ١٩٤٨)، أفاد منها المرحوم عبد الستار فراج في نشرته الثانية للكتاب التي ظهرت في القاهرة عام ١٩٥٨ ــ (انظر: الموجز في مراجع التراجم، للطناحي ص ٦٧).

وكذلك نبه ناشيرًا كتاب الفهرست، لابن النديم، السيدان: شعبان خليفة ووليد محمد العوزة، اللذان طبعاه في القاهرة سنة ١٩٩١، إلى ان كتاب الفهرست لابن النديم يبقى بحاجة إلى إعادة نظر دائمة، لعدم وجود نسخة مخطوطة كاملة له، وكل مانشر من طبعات للفهرست كان ناقصاً بما في ذلك الطبعة الأخيرة له بالقاهرة.

وانظر حول الفهرست بحثاً للدكتور شاكر الفحام في مجلة مجمع اللغة العربية بمصر (ج٧٠ لعام ١٩٩٢)، وبحثاً للدكتور يوسف حسين بكار في كتابه: قراءات نقدية، دار الاندلس بيروت ١٩٨٠.

وفي وسعنا أن نعد طبعة (السيد أحمد صقر) لكتاب الموازنة بين الطائيين الصادر في القاهرة عام ١٩٦١ أكمل طبعة لهذا الكتاب، الذي كان قد نشر في القاهرة خمس مرات، من قبل، منقوصاً. يقول أحمد صقر في مقدمته: «أحمد الله سبحانه وتعالى إذ قَدَّر لي أن أكون أول طابع لكتاب الموازنة بين الطائيين الذي ألّفه أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة»، والمرات الخمس التي نشر فيها الكتاب بدأت من سنة ١٢٨٧ هـ، وانتهت سنة ١٩٥٤/١٣٧٣. ويضيف الأستاذ صقر: « إن جميع هذه الطبعات ناقصة

مملوءة بالتحريف، ومن عجب أنها تشتمل على نصوص تشير إلى ذلـك النقـص». ثـم يذكـر النصوص التي تؤكد نقص كتاب الموازنة، ويذكر أن الزيادات في طبعته هو تبدأ من الصفحـة ٤٥٨، وتشمل سبعة أبواب كاملة.

كما أن هناك نقصاً آخر تخلل فصول الكتاب أشار إليه أحمد صقر في مقدمته لكتاب الموازنة.

ومن القبيل ذاته أن كتاب محمد بن سلام الجمحي (٢٣١ ـ ٨٤٥ م) طبقات فحـول الشعراء الجاهليين والاسلاميين، قد نشر ثلاث مرات منقوصاً غير كامل. وقد نشره (يوسـف هل) بليدن بين سنتي ١٩١٣ و ١٩١٦. وطبعه (حامد عجـان الحديـد) ثانيـة بالقـاهرة سنة ١٩٢٠، ثم أعاد (محمود شـاكر) نشـره ثالثـة في القـاهرة أيضـاً سـنة ١٩٥٢. حتـى إذا عثـر (شاكر) من جديد على مخطوطة للكتاب في مكتبة شيخ الاسلام (عـارف حكمـت) بالمدينـة المنورة، أعاد نشر الكتاب بالاعتماد عليها مرة رابعة، سنة ١٩٧٤. وتَنصَّلَ في مقدمـة طبعتـه الأخيرة من الطبعة السابقة، أعني طبعة سنة ١٩٥٢، يقول بالنص: « فأنا لا أُحِـلُّ لأحـد مـن أهل العلم أنْ يعتمد بعد اليوم على هذه الطبعـة الأولى مـن طبقـات فحـول الشـعراء (يقصـد طبعة عام ١٩٥٢) مخافةَ أن يقع بي في زَلَل لاأرضاه أنا، وأضرع إلى كل مـن نقـل عـن هـذه الطبعة شيئاً في كتاب، سواء كـان قـد نسبه إلي أو لم ينسبه، أن يراجعـه علـى هـذه الطبعـة الجديدة من الطبقات لينفي عن نفسه وعملـه العيـب الـذي احتملـت أنـا وحـدي وزره». ـ (مقدمة طبقات فحول الشعراء ١٩٧٤ ص ٧٠).

والحق أن هذا الكتاب، رغم العناية الفائقة الـتي أولاه إياهـا الأستاذ محمـود شـاكر، بقي ناقصاً سقطت من أصوله، التي اعتُمِدت، نصوص، كان اللاحقون لابن سلام قد نقلوها عن نسخ أخرى، ومن ذلك مثلاً، لاحصـراً، خـبر سـاقه ابـن عسـاكر (٥٧١ / ١١٧٥) في كتابه تاريخ مدينة دمشق، حول خالد بن عبد الله القسري ـ والي سليمان على مكة ـ (انظر تاريخ مدينة دمشق ـ تحقيـق مطـاع الطرابيشـي دمشـق ١٩٨٦ ج ٣٤ ص ١٦٥، ودراسـتنا حول الطبقات في القسم الثاني من هذا الكتاب).

وفي سنة ١٩٥٣ نشر المرحومان عبد الوهاب عزام وعبد الستّار فرّاج كتاباً آخر في تراجم الشعراء، وهو كتاب الورقة، لمحمد بن داود بن الجراح (٢٩٦/ ٩٠٨). ولم يظهر هذا الكتاب على الصورة التي تُرِكَ عليها عندما جفَّ عنه مداد مؤلفه. فهو كتاب ناقص مبتور. وقد اعترف المحققان بذلك، ولكنهما لم يسعيا لإكماله من الكتب التالية التي نقلت عنه، ومن تلك الكتب على سبيل المثال لا الحصر كتاب وفيات الأعيان، لابن خلّكان، والوافي بالوفيات، للصفدي.وفي كل كتاب من هذه الكتب نقول عن كتاب الورقة لم يرد في ماطبع منها سنة ١٩٥٣. وقد أوضحت ذلك بجلاء في حديثي عن هذا الكتاب في القسم الثاني من هذا المصنف.

هذا، وعندما قارن الدكتور (عبد الفتاح الحلو)بين مابين يديه من مخطوطات كتاب دمية القصر وعصرة أهل العصر، لأبي علي بن الحسن بن علي الباخرزي (٤٦٧ / ١٠٧٤) ومانشره منه المرحوم (محمد راغب الطباخ) بحلب سنة ١٩٣٠، هالَهُ ماوجد مِنْ فرق بين المطبوع والمخطوط. وانتهى إلى أنَّ النسخة التي اعتمد عليه (الطباخ) لنشر الكتاب، كانت مشوهة «عاث ناسخها فيها فساداً، وحذف منها كثيراً من التراجم، وخلط بين التراجم الباقية، فنسب الشيء إلى غير قائله، ووصف الرجل بما ليس فيه، وترك القارئ من أمرها في حيرة». ويضيف الأستاذ (الحلو) في وصف أصوله هو التي اعتمدها للطباعة «وحسبك أن تعلم أن الدمية المطبوعة تتضمن ثلاثمئة ترجمة، بينما زاد عدد المترجمين في الأصول الخطية التي اعتمدتها على عشرين وخمسمئة، وكذلك فقد طالت تراجم كثير ممن قصرت تراجمهم في المطبوعة. ورُدَّ إليهم مانسب إلى سواهم من قول، أو ادّعي لغيرهم من شعر» ـ (المقدمة ص٥). وقد أخرج الأستاذ الحلو كتاب دمية القصر هذا بمصر سنة ١٩٦٨.

ومن المعروف للباحث المتتبع أن الدكتور محمد التونجي قد أعاد طبع الكتاب ثالثة، بعد أن حصل به على شهادة الدكتوراه من جامعة القديس يوسف ببيروت، ونشره سنة ١٩٧١. وقد ذكر أن ـ تراجم الشعراء والرجال في كتاب الدمية، الذي أخرجه هو، بلغت حوالي ست مئة ترجمة.

ومن الكتب التي تُدوِلَتْ لسنوات، وهي ناقصة ومنقوصة، كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي. وقد حققه (محمد أبو الفضل إبراهيم) وطبعه بالقاهرة عام ١٩٦٤. ثم قام الأستاذ المحقق (إبراهيم صالح) بنشر هذا الكتاب بدمشق عام ١٩٩٤ معتمداً على نسختين مخطوطتين له في المكتبة الظاهرية، لم يطلع عليهما المحقق الأول المرحوم (أبو الفضل إبراهيم) فجاءت طبعة الأستاذ (صالح) أفضل وأكمل وأدق بكثير من طبعة المرحوم (إبراهيم). وهي بدون ريب أعلى بدرجات من الطبعة الأولى للكتاب، التي قام بها المحامي (محمد بك أبو شادي) حين أخرج الكتاب بمصر سنة ١٩٠٨.

ويبدو أن كتاب تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (٤٦٣ / ١٠٧٠) قد ظهر غير كامل بدليل أن المحقق التراثي الثبت (محمود الطناحي) ذكر أنه وجد من هذا الكتاب أربعة أجزاء في المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، على بعضها سماعات أقدمها يرجع إلى سنة (٥٠٣ هـ)، فكتب قائلاً: «ولعل في هذا مايدعو إلى إعادة نشر الكتاب». وقد أخبر بذلك الدكتور أكرم العمري الذي كانت أطروحته للدكتوراه حول موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، لعله ينشر الكتاب من جديد.

ومن الجدير ذكره أن تاريخ بغداد طبع في أربعة عشر مجلداً، في مصر، بعناية محمد أمين الخانجي سنة ١٣٤٩ (الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات، للطناحي ص ٧٠).

ومما يُذْكر أن كتاب معجم الأدباء، لياقوت الحموي، طبع طبعتين متقاربتين في الثلث الأول من هذا القرن، طبعه المستشرق (مرجليوت) ثم طبع ثانية بمصر سنة ١٩٣٢، وطبع ثالثة بدار المأمون بإشراف (أحمد الرفاعي) سنة ١٩٣٦، فجاءت هذه الطبعة في عشرين جزءاً. ثم نشرته بالتصوير دار إحياء التراث العربي ببيروت، كما نشرته دار الكتب العلمية ببيروت أيضاً مشفوعاً بالفهارس. وكل هذه الطبعات كانت ناقصة، لأنها لم تعتمد على شيء جديد. حتى إذا ماعثر الدكتور (إحسان عباس) على مخطوطة عُمانية عنوانها: «بغية الأدباء من معجم الأدباء» صنعها لنفسه (أحمد بن علي عبد السلام التكريتي)، أخرج هذا الكتاب بأوفى صورة له حتى الآن. وذلك بعد أن أفاد (عباس) مما كتبه مصطفى جواد

من استدراكات على طبعة مرجليوث، ومانشره الأديب الفلسطيني إسعاف النّشاشيبي على طبعة الرفاعي من تصويبات واستدراكات، فصار لدى (عباس) حوالى مئتي (٢٠٠) ترجمة زائدة عمّا نُشر من معجم الأدباء، فيما مضى. وكذلك عاد عباس إلى مخطوطة كوبريللي بتركية، وهي تقع في (٢١٩) ورقة، فصحح من خلالها التحريفات والتصحيفات التي حفلت بها الطبعات الأسبق لمعجم الأدباء. وعليه جاءت طبعة إحسان عباس لهذا الكتاب أوفى وأكمل طبعة له. ورغم ذلك فإنّ هذا المعجم يبدو حتى في صورته النهائية هذه، غير كامل، ومن هنا راح عباس يكتب في مقدمته:« هناك عشرات التراجم التي لاتزال مفقودة من معجم الأدباء» - (المقدمة ج ١ ص (و)).

ومما يدخل في نطاق الكتب المنشورة ناقصة كتاب النوادر، لأبي زيد الأنصاري (٢١٥ / ٨٣٠) الذي حققه (محمد عبد القادر أحمد)، وطبعه في بيروت سنة ١٩٨١، بعد أن كان قد طبع سنة ١٨٩٤ في بيروت، بتحقيق سعيد الشرتوني. والدليل على نقص هذه الطبعة الاخيرة، أن ثمة نصوصاً منه، نقلها البغدادي في خزانة الأدب، لم ترد في كتاب النوادر. وعلى سبيل المثال فقد ذكر المرحوم عبد السلام هارون ــ محقق الخزانة هذا الخبر القائل:

«ويجوز رفع (بَيْن) إذا لم يسبقها (ما)... ويُنصَب. وروى أبو زيد في نوادره قول الشاعر:

شتّان بَينُهما في كلّ منزلةٍ هذا يخاف وهذا يُرْتجى أبداً

برَفع (بَيْن).....الخ». ثم قال هارون في حاشيته: «لم أجده في نوادر أبي زيد المطبوعة» (الخزانة ج ٦ ص ٢٧٩).

وفي كتاب خزانة الأدب أيضاً، وهو يقع في ثلاثة عشر مجلداً، ذكر البغدادي في مقدمته كتباً كثيرة ضاعت وفقدت، وكان هو نقل عنها، كما أشرنا من قبل، ومن تلك الكتب كتاب الأوراق، للصولي (٣٣٥ / ٩٤٦). وقد نشر المستشرق (ج. هيورث) أقساماً

منه بمطبعة الصاوي بالقاهرة بين سنتي ١٩٣٤ و ١٩٣٦. ولكن هذه النشرة أخلّتْ مثلاً بهذا الخبر الذي جاء في الخزانة (ج ١٠ ص ٢٣٨):

«وكذا روى الصولي في كتاب الأوراق عن الطيب بن محمد الباهلي، عن موسى بن سعيد بن مسلم أنه قال: كان أبي يقول: كان فَهمُ الرشيد فَهْمَ العلماء. أنشده العماني في صفة فرس: «كأنّ أُذْنَيْهِ» البيت. فقال له: دعْ «كأن» وقلْ: «تخال أذنيه» حتى يستوي الشعر». والبيت المراد هاهنا:

كأنّ أُذْنَيْه إذا تَشَوَّفا ... قادمةً أو قلماً مُحرَّفا

وعلم قوم أنه لحنٌ، وبذلك في نَصْب (قادمة). ولم يهتدوا إلى إصلاحه، حتى أفتى الرشيد بما أفتى به. وقد مر أن الدكتور (إحسان عباس) استل من كتاب بغية الطلب، لابن العديم (١٦) قطعة أو خبراً لم ترد في كتاب الأوراق للصولي. (انظر كتاب عباس، شذرات من كتب مفقودة ص ٤٠٥ - ٤٢٧).

ومن الكتب المنشورة ناقصة أيضاً كتابان هامان هما: كتاب ليس، لابن خالَويْه (٣٧٠ / ٩٨٠) وكتاب مجالس ثعلب، لثعلب (٢١٩ / ٩٠٣). ومّما يؤكد نقص الكتاب الأول هنا أنني وقعت في أبحاثي على إحالة تقول: «وفي كتاب ليس كذا وكذا... فراجعت كتاب ليس المطبوع في مصر صفحةً صفحةً، فلم أعثر على مبتغاي فيه، مما يؤكد أن المطبوع من هذا الكتاب غير كامل، وهو كذلك حتّى في طبعاته الخمس التي ظهر فيها، وأعني بها طبعة (جوزيف ديرنبورغ) للكتاب في أوربا سنة ١٨٩٤، وطبعة الشنقيطي له في مصر سنة ١٣٢٧ هـ، وطبعته الثالثة ضمن كتاب الطرف البهيّة عام ١٣٣٠، وطبعة أحمد عبد الغفور عطار له بالقاهرة سنة ١٩٥٧، وطبعة محمد أبو الفتوح شريف له بالقاهرة سنة ١٩٧٥. والثابت أن «كتاب ليس» كتابٌ ضخمٌ، قال عنه السيوطي «إنه كان في زمانه ثلاثة مجلدات» - (انظر مقالاً حول كتاب ليس لمحمود جاسم الدرويش في مجلة المورد، بغداد، مج ١٥ ع ٢ / ١٩٨٦ ص ١٨١ - ١٩٨).

أما كتاب مجالس ثعلب، وهو قسمان، وقد نشره المرحوم عبد السلام هارون بدار المعارف بمصر عام ١٩٤٨ للمرة الأولى - ويسمى أيضاً بأمالي ثعلب، أو مجالسات ثعلب - فقد سقطت منه نصوص معينة. وفي هذا الشأن يقول هارون:

«وقد نرى نصوصاً ينقلها السيوطي في المزهر عن أمالي ثعلب، ولانجد لها أثراً في نسختنا».

والحق أن هذا المُحقّق قد أثبت في آخر القسم الثاني من مجالس ثعلب الذي نشره، النصوص الضائعة من المخطوطة التي أخرج عنها الكتاب، بالاعتماد على الكتب التالية: المزهر، وشرح شواهد المغني، وكلاهما للسيوطي، وخزانة الأدب، للبغدادي، ولسان العرب، لابن منظور المصري، وأمالي القالي، لأبي علي القالي، والمؤتلف والمختلف، للآمدي، وإرشاد الأريب، لياقوت الحموي، وتثقيف اللسان، لابن مكي الصقلي.

ومن الكتب التي ظهرت منقوصة كتاب معجم الشعراء للمرزباني (٣٨٤/٩٩٤) وقد طبع مرتين طبعه (ف. كرنكو) والمرحوم (عبد الستار فراج). ومن المعروف أن هاتين الطبعتين لم تحويا من تراجم الشعراء سوى أسماء الشعراء التي تبدأ بحرف العين فما بعده... وهذا هو الجزء الذي وصل إلينا من هذا المصدر القيِّم، لذا صار الباب مفتوحاً لاستدراكات كثيرة على ما وصل. وقد قام المحقق الأخير للكتاب بجهد جيّد في هذا الصدد، فأضاف إلى أصل المخطوط الذي أخرج عنه الكتاب /٢٩٨/ شاعراً ذكرت المصادر القديمة أن المرزباني أدرجهم في كتابه معجم الشعراء. ثم تابع الدكتور ابراهيم السامَرائي ماقام به (فراج)، فأخرج كتاباً برأسه أسماه: من الضائع من معجم الشعراء، فكان مجموع استدراكاته /٢٦٤/ شاعراً. وكانت الأسماء التي ذكرها فراج هي ذاتها التي ذكرها (السامرائي). بل وردت بفارق (٣٤) شاعراً زيادةً مِنْ عند فراج على ما عند (السامرائي). ولكن الأخير ذكر نصوص الأخبار والأشعار التي تتصل بالشاعر المستدرك، من خلال المصادر التي عاد اليها، واكتفى (فراج) بذكر اسم الشاعر فقط. أما مصادر (السامرائي) فهي أحد عشر مصدراً هي: الإصابة لابن حجر، والاشتقاق لابن دريد، وتاج العروس للزبيدي، وتهذيب تاريخ مدينة دمشق لعبد القادر بدران، وخزانة الأدب البغدادي، وفوات الوفيات لابن شاكر

الكتبي، ولسان العرب لابن منظور المصري، ولسان الميزان لابن حجر، ومعجم الأدباء لياقوت، ومعجم الشعراء لياقوت أيضاً، ووفيات الأعيان لابن خلكان.

هذا، وتابع الدكتور (إحسان عباس) استدراكات ذينك الباحثين، فانتهى إلى إضافة (٨٣) شاعراً جديداً إلى معجم الشعراء لم يردوا في ماطبع منه. وقد نشر الدكتور (عباس) استدراكاته في أحد أعداد مجلة الأبحاث الصادرة عن الجامعة الأمريكية ببيروت.

ورغم هذه الجهود الثلاثة التي ذكرتها، فإنَّ الباب لم يغلق أمام الإضافات والاستدراكات. وهذا مافعلته في مُراجعتي لهذا المعجم في القسم الثاني من كتابي هذا.

وإذا تركنا الشعراء، وانتقلنا إلى الشعر، فإننا نسجِّل باطمئنان أن الكثير من دواوين الشعر القديمة التي وصلت إلينا لم تحوِ، ولم تستقص، شعرَ الشاعر الذي تحمل اسمه، بل ضاع منها الكثير.

وليس أدل على ذلك من مجموعة الاستدراكات التي تطالعنا بها الدوريات المعنية بالتراث، والتي تضمُّ أبياتاً لشاعر حُقِّق ديوانه في هذا العصر، أو جُمع، أبياتاً أُخذت من كتب تراثية لم يعاينها مُحقِّق الديوان أو جامعه. والحقُّ أن هذا باب رحب مُنْداح، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى. وفي حوزتي جذاذات كثيرة تحوي استدراكات على أكثر دواوين الشعراء الجاهليين المطبوعة أو المجموعة. منها ماهو بيت واحد، ومنها مايربو على ستين بيتاً.

وقد سبق لي أن استدركت على ديوان الشاعر الجاهلي بشر بن أبي خازم الأسدي ـ الذي ألَّفْتُ كتاباً في حياته وشعره ـ / ٣٩ / بيتاً، وذلك إضافة إلى طبعتي الدكتور (عزة حسن) للديوان بدمشق سنتي ١٩٦١ و ١٩٧٣. وكان ذلك حتى أواخر عام ١٩٨٢. وعندما دفعت كتابي عن بِشْر للنشر، وصار ماثلاً للطباعة، ظهر مقال للشيخ (حمد الجاسر) في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٦٣ ع ٤) بعنوان: شعر بشر بن أبي خازم الأسدي في مخطوطة عمانية مجهولة، فقرأْتُهُ وفحصتهُ وقارنتُ بينه، وبين طبعة الديوان الأخيرة، فوجدت أن هذه المخطوطة تحتوي على مايزيد على ستين بيتاً لبشر لم ترد في أي من طبعتي الديوان بدمشق. وهي أيضاً تختلف عما أضفناه إلى الديوان. وبين هذه الزيادات قصيدتان طويلتان تقع الأولى في / ٢٦/ بيتاً، والثانية في / ٣٠ / بيتاً. فأشرت إلى ذلك في حاشية كتابي

المطبوع: بشر بي أبي خازم الأسدي (ص ١٧٩ ـ ١٨٠). وقد طبع كتابي ببيروت عام ١٩٩١.

ومن سوء الطالع أن ديوان بشر قد طبع بعد سنة ١٩٩١ مرتين اثنتين، احداهما بتحقيق (مجيد طراد) بدار الكتاب العربي ببيروت، وثانيهما طبعة ثالثة بتحقيق الدكتور (عزة حسن) بدار الشرق العربي في حلب وبيروت عام ١٩٩٥. وهاتان الطبعتان لم تحتويا زيادات الديوان التي أشرت إليها من قبل.

وكذلك تمكنت في أطروحتي للدكتوراه، التي جمعت فيها أشعار أربعين شاعراً جاهلياً، سبقوا امرأ القيس الكندي، أو أدركوا طرفاً من حياته، أن أستدرك على ماجمعه الدكتور (حسن باجودة) من شعرٍ لأُحَيْحة بن الجلاح، وهو أحد شعرائي الأربعين، تمكنت أن أستدرك / ١٦ / ستة عشر بيتاً، بعد أن بلغت مصادر شعره عندي أكثر من ثلاثة أضعاف مصادر الدكتور (باجودة) ـ انظر (الشعراء الجاهليون الأوائل ص ٤٣٧).

وعلى صعيد شعر القبائل العربية التي لم يصل الينا منها سوى شعر قبيلة هذيل، الذي صنعه أبو سعيد السكري (٢٧٥ / ٨٨٨) نملك الجزم بأن هذا الديوان ليس كل ما قاله شعراء هذيل في الجاهلية والاسلام، وخاصة أنهم كانوا نحو ثمانين شاعراً. ومجموع أشعار شعراء هذيل المطبوعة يكاد لايبلغ ثلاثة آلاف بيت، في حين كان الإمام الشافعي وحده يحفظ عشرة آلاف بيت لهذيل بإعرابها وغريبها ومعانيها. وقد استدرك أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢/١٠٠١) على صنعة السكري لديوان هذيل، فألف كتاباً سماه التمام في تفسير أشعار هذيل مما أغفله أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري، وحجمه خمسمئة ورقة بل يزيد على ذلك (انظر مصادر الشعر الجاهلي، لناصر الدين الأسد ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣).

هذا، وقد كثرت الاستدراكات على ما ينشر من دواوين لشعراء العربية القدامى في زماننا، فنشر الدكتور (رضوان محمد حسين النجار) عدة أبحاث بعنوان: « المستدرك على دواوين الشعراء العرب المطبوعة »، في مجلة معهد المخطوطات العربية (مج ٣٠ ج ١ و٢) و(مج ٣١ ج ١ و٢).

وبلغ عدد الشعراء الذين استدرك على دواوينهم المطبوعة خمسة وأربعين شاعراً، كان بينهم هؤلاء الشعراء: حُمَيْد بن ثور، والراعي النُّمَيْري، والقحيف العقيلي، والفرزدق... الخ. وبلغ مجموع ما استدركه الدكتور (النجار) على شعر حميد بن ثور وحده (١٨٧) بيتاً - (مجلة معهد المخطوطات مج ٣٠ ج ٢ ص ٦٩٤).

وكان جل اعتماده في ذلك على مخطوطة منتهى الطلب في أشعار العرب، لمحمد بن المبارك بن الميمون، وقد تعقب الدكتور (شاكر الفحام) بعض جهود الدكتور (النجار) هذه في مقالة له نشرها في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٦٣ ع٣) مُدقّقاً ومصححاً. ولسنا هنا بصدد تفصيل هذه التعقبات والتصحيحات.

ولما نُشر ديوانُ أبي الفتح البُستي (حوالي ٤٠٠ / ١٠٠٩) ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٩، نشر الدكتور (حاتم الضامن) استدراكاً عليه في مجلة المجمع (المجلد ٦٦ ع ٤) بلغ / ١٥٠ / بيتاً. ثم استدرك الدكتور (هلال ناجي) على هذا الديوان ذاته (٢٥٦) بيتاً، نشرها جميعاً في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.(مج ٧٠ ع ١). وكان الدكتور (ناجي) نفسه قد نشر في سنة ١٩٨٠ بحثاً بعنوان: المستدرك على صناع الدواوين، في المجلد (٣٢ ج ١ و ج ٢) من مجلة المجمع العلمي العراقي، استدرك فيه آنئذ على ما طبع من دواوين: للبُستي، والحُسَيْن بن الضحاك، وابن طباطبا، وابن ميَّادة، والكميت بن زيد، والحماني. وذلك بالعودة إلى مصادر مخطوطة أو مطبوعة لم يؤلْ إليها أولئك الصنّاع للدواوين المذكورة.

وانسجاماً مع نهج الاستدراكات على الدواوين المطبوعة نشر الدكتور (طاهر الحمصي) جزءاً من ديوان صفي الدين الحلي بعنوان: من ديوان المثالث والمثاني والمعالي والمعاني، لم يرد في مطبوعة الديوان. وذلك بالعودة إلى نسخة مخطوطة توجد في المكتبة الظاهرية (مكتبة الأسد الآن) ضمن مجموع رقمه / ٣٣٦١/. وأبيات الحلي هذه تقع في عشرين باباً، في كل باب بيتان أو ثلاثة. وقد أحصى الدكتور الحمصي مجموع هذا الشعر الذي أخل به ديوان الحلي المطبوع فبلغ / ١٦١ / بيتاً.

ولا نرى بأساً، ها هنا، في أن نسوق نموذجاً من هذه الأشعار الجديدة، من باب التزهد والعفة والتجرد، يقول الحلي مثلاً:

تـوقَّ حـدودَ اللهِ لاتـأتِ محرمـاً	إذا شئْتَ أنْ تحظى بجنَّاتِـهِ العُلْيـا
وإنْ أمكنتْ يومـاً مِـنَ الدّهـرِ لـذةٌ	فخذْها، ولاتنسَ النصيبَ من الدنيا

(انظر مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة مج ٣٨ ج ١ ص ١٠٩ ـ ١٢٧).

وقد وقع في يدي أخيراً كتاب اسمه: المنتخب في محاسن اشعار العرب، منسوب للثعالبي، صنعه مؤلف قديم مجهول من القرن الرابع الهجري. وحققه الدكتور (عادل سليمان جمال) وطبعه في القاهرة عام ١٩٩٣، في جزأين. وهو يحوي (٩٤) قصيدة من عيون الشعر العربي، ومقطوعتين. وبعض هذه القصائد مما انفرد به هذا الكتاب، وبعضها مما تزيد أبياته زيادة بيِّنة عما في المصادر ودواوين الشعراء. ومن تلك التي انفرد بها هذا « المنتخب »، أرجوزة أسامة بن الحارث الهذلي، وعدتها ثمانية أبيات، ولم ترد في ديوان الهذليين، ولافي شرح الديوان. ومن تلك التي بها زيادات ملحوظة عما في الدواوين والحماسيع: جيمية للشماخ، وتزيد (١٤) بيتاً عما هي عليه في ديوان الشماخ، وسينية لعمرو بن معدي كرب، وتزيد (١١) بيتاً عما هي عليه في ديوانه، ومعلقة عنترة بن شداد، وفيها (٢٢) بيتاً زائداً عما هي عليه في سائر شروح المعلقات، وهناك زيادات على أشعار كل من عمرو بن الأهتم، وعبد الله بن رواحة، والمخبل السعدي، والخُرَيْمي، ومروان بن أبي حفصة، وسُحيم عبد بني الحساس، وكثيِّر عزة، وجميل بثينة، وابن الدمينة.... الخ.

وهناك زيادات أخرى على قصائد أخرى نعزف عن إيرادها جميعاً، خشيةَ الإطالة (انظر مقدمة المنتخب ص ٢٠ ـ ٢٤).

وفي مقال للدكتور نوري حمّودي القيسي نشره في مجلة المورد (مج ١٨ ع ٣ لعام ١٩٨٩) استدرك القيسي أشعاراً على سبعة دواوين شعرية مطبوعة، كان أولها: ديوان محمود الوراق، بتحقيق عدنان راغب العبيدي ــ بغداد ١٩٦٩، وثانيها: ديوان صالح بن عبدالقدوس، ونشره عبد الله الخطيب ببغداد سنة ١٩٦٧، وشعر سابق البربري، وجمعه

ونشره بدر أحمد ضيف، وشعر عبد الصمد ابن المعذل، ونشره زهير غازي زاهر، ببغداد سنة ١٩٧٠، وشعر جحظة البرمكي، ونشره مزهر السوداني ببغداد سنة ١٩٧٧، وشعر إبراهيم ابن العباس الصولي. وأخرجه عبد العزيز الميمني ضمن كتابه : الطرائف الأدبية، بالقاهرة عام ١٩٣٧، وشعر العطوي، وجمعه وحققه محمد جبار المعيبد ونشره في مجلة المورد، ثم ضمن كتابه: « شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري ». وقد فعل القيسي ذلك كله من خلال عودته إلى كتاب تراثي هام، اسمه « الدر الفريد وبيت القصيد »، لابن أيدمر (١٣٠٦/٧٠٦) كان البحاثة فؤاد سركيس قد نشره مصوراً. والمعروف أن كتاب ابن أيدمر هذا، يحوي (٢٠) عشرين ألف بيت شرود قائم بنفسه فذ محكم مضبوط منقّح على شروط فصيح اللفظ صحيح المعنى واقع التشبيه جيد الكتابة. وكان المؤلف حين يذكر البيت يعقبه بالقصيدة التي ينتمي اليه ويذكر خبره وخبر صاحبها. وهذا تأليف مميَّز في بابه.

وقد ذكر هلال ناجي أنه ونوري حمودي القيسي قد أصدرا الجزء الأول من كتابهما: المستدرك على صنّاع الدواوين عن المجمع العراقي سنة ١٩٩٣، ومازال الجزء الثاني ناجزاً مرقوناً ينتظر الطبع. ومن المتوقع أن يحوي الجزآن ماسبقت الإشارة اليه هنا. وقد أضاف هلال ناجي أن هذا الاستدراك قد تناول خمسين ديواناً محققاً ومجموعاً مما حققه أساتذة مختصون، بما فيها أعمال المؤلفين كليهما، ناجي والقيسي (انظر مجلة معهد المخطوطات العربية مج ٣٩ ج ١ لعام ١٩٩٥ ص ١٦٥).

وأشار هلال ناجي أن للقيسي استدراكات أخرى كثيرة على أعمال علمية من بينها استدراكاته حول كتاب: معجم الشعراء في لسان العرب، للدكتور ياسين الأيوبي. وقد نشرها في خمس حلقات في (مجلة المجمع العلمي العراقي (مج ٣١ ج ٤ ومج ٣٢ ج ١ و ٢ ومج ٣٢ ج ٣ و ٤ ومج ٣٣ ج ٢ و٣ ومج ٣٤ ج ٢، وذلك مابين الأعوام ١٩٨٠ و ١٩٨٣).

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى النقص الواقع في مانشر من مجموعة شعرية قديمة هامة هي الأصمعيات. وهي قصائد اختارها الأصمعي (٢١٣ / ٨٣١ م) لهارون الرشيد ليؤدب بها ابنه، فنسبت إلى مختارها. وقد طبعت هذه المجموعة في القاهرة بتحقيق المرحومين

أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، فجاءت في (٩٢) قصيدة ومقطوعة. ولاشك في أن هذه القصائد والمقطوعات ليست كل ما اختاره الاصمعي، قبل ألف ومئتي عام. ودليلنا على ذلك أن ثقاتاً من المتقدمين ذكروا أشعاراً على أنها من اختيارات الأصمعي، وأخلت بها الطبعة المشار إليها آنفاً، وقد استدرك المرحوم (أحمد راتب النفاخ) في حاشية له استدراكات أتاح الدكتور (أمجد الطرابلسي) نشرها في كتابه: نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب (دمشق ١٩٦٩ ص ١٠٦ فما بعدها) ـ وقد استدرك المرحوم النفاخ مجموعة من الأشعار ذكر القدماء أنها من الأصمعيات، ولم ترد في المطبوع منها وهي:

١ ـ أبيات تنسب إلى أمرئ القيس بن عابس الكندي، والى الفِنْد الزماني، أولها:

يـــــــاتملكُ يــــــــاتَمْلِي صليــــــــني وذَري عَــــــذْلي

فقد قال ابن قتيبة: وهذا الشعر مما اختاره الأصمعي بخفةِ رويّهِ (الشعر والشعراء ـ طبعة دار المعارف ص ٨٥).

٢ ـ أبيات أولها:

برئْتُ من الخوارجِ لستُ منهم من الغزّال منهم وابنِ بابِ

وساقها المبرد في الكامل ص ٩٢١ وعزا للأصمعي وضعها في كتاب الاختيار.

٣ ـ بيت في لسان العرب ـ مادة (ودع) وقد نقل ابن منظور عن ابن بري أن الأصمعي أنشده في الأصمعيات.

٤ ـ قصيدة رائية، منها:

وقلنَ على الفردوسِ أول مشربِ أجلْ، جَيْرِ إنْ كانتْ أُبيحَتْ دعاثِرُه

وذكر البغدادي في خزانة الأدب (٤ : ٢٣٥ ط بولاق) أنَّ البيت من قصيدة لمضرس الأسدي، أوردها الأصمعي في الأصمعيات.

٥ ـ قصيدة دالية لعبيد بن الأبرص، منها قوله:

قد أترك القِرن مصفراً أناملُهُ كأنّ أثوابَهُ مُجّتْ بفرصادِ

فقد قال البغدادي في خزانة الأدب (٤: ٥٠٣ ط بولاق): إن البيت من قصيدة أوردها الأصمعي في الأصمعيات.

وأضاف المرحوم (النفاخ) إلى ماسبق إشارةً إلى مانَشَره (معظم حسين) سنة ١٣٥٧ من قصائد لم تنشر في المفضليات، والأصمعيات، تحت عنوان نُخْبة من كتاب الاختيارين.

ولما نشر الدكتور (فخر الدين قباوة) الجزء الثاني من كتاب الاختيارين، للأخفش الأصغر (٣١٥ / ٩٢٧) بدمشق عام (١٣٩٤ / ١٩٧٤) وهو الباقي من هذا الكتاب وجد فيه (١٤) قصيدة لم ترد في الأصمعيات، وهي القصائد ذوات الارقام (٢١، ٣٩، ٣١، ٥٥، ١٥، ٨، ٢٨، ١٦، ٢٠، ٤٥، ٤٦، ٤ ، ٤٩، ٢٦) في كتاب الاختيارين. زدْ على ذلك سبع قصائد أخرى هي ذوات الأرقام: (٩١، ٦٧، ٦٩، ٦١، ٦٢، ٦٨، ٧٠) من كتاب الاختيارين.

ومما وقعْنا نحن عليه، ويدخل في باب الاستدراك على الأصمعيات، ولم يذكر فيما سبق قصيدة للشاعر الجاهلي (الحادرة) تقع في (١٥) بيتاً، وهي القصيدة رقم (٤) في ديوانه ص ٦٩، بتحقيق ناصر الدين الأسد. وهذه أشير في تقديمها إلى أنها «أصمعية». ولكنها لاتوجد في مطبوعة الأصمعيات. ومطلع قصيدة الحادرة :

أظاعنةٌ ولاتودِّعنا هندُ لتُحزننا، عزَّ التصدُّف والكُنْدُ

وكذلك عثرنا في ديوان المتلمّس الضبعي، بتحقيق حسن كامل الصيرفي (القاهرة ١٣٩٠ / ١٩٧٠) على قصيدة وصفت بأنها (أصمعية) و (مفضلية). وعلق المحقّق عليها بقوله «لم ترد هذه القصيدة فيما بين أيدينا من المفضليات والأصمعيات، ولم ترد في مانُشر من كتاب الاختيارين» (الديوان ص ١٦٣) ومطلع قصيدة المتلمس هذه:

صَبا مِنْ بَعْدِ سلوتِهِ فؤادي وأسْمَحَ للقرينةِ بانقيادِ

وهي تقع في (٨) ثمانية أبيات.

ووقعنا في معجم التكملة والذيل والصلة، للصَّغاني، على أربعة أشطار من الرجز وردت في مادة (شتت ج ١ ص ٣٢٠) أولها:

جاءت معاً وأطرقتْ شتيتا

وكان الجوهري في الصحاح (شتت) عزا بيتين منها إلى (رؤبة)، فعقَّبَ الصغاني على الجوهري في الصحاح بقوله: «وليس لرؤبة على هذا الروي شيء، وإنما هي من الأصمعيات. والإنشاد مداخل» ثم ساق الأشطار الأربعة. ولدى مقارنة هذه الأشطار بما حوته الأصمعيات لم نجدها فيها.

وثمة كتب أخرى كثيرة لم تردْ في بحثنا هذا، نشرت ناقصة، ويصعب أن نتقصاها جميعاً، ومنها على سبيل المثال، كتابا أبي حيَّان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، والإشارات الإلهية، وكتاب الأنوار ومحاسن الأشعار، للشمشاطي، وقد عثر الدكتور إحسان عباس على نصوص منه في كتاب بغية الطلب، لابن العديم (انظر شذرات من كتب مفقودة ص ٣٨٣) ومنها كتاب المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، بتحقيق الدكتورين صالح موسى الدرادكة، ومحمد عبد القادر خريسات (عمان ١٩٨٤).

وهكذا نخلص إلى أن تراثنا بحر موّاج ويمٌّ متلاطم، والغوص فيه يؤتي دون ريب ثماراً يانعة، وجنى وفيراً، ولكننا في ضوء ماتقدم نحتاط فنقول: إنه لايصح أن نعلي شأن الاستدراك على شأن المبادرة، فهذا مما لايجوز. بيد أن الأمثلة السابقة كانت تستهدف لفت الانتباه إلى أن احتمالاً قائماً بأن النقص ربما يعتور ماينشر ويذاع بين الناس، وأن جهود الباحثين في الإضافة والإكمال والاستدراك لها قيمتها. فهي كما ذكرنا قد تُعدل أحكاماً أو تبطل نتائجَ، أو قد تكوِّن من جهة أخرى، صورة ما عن أثر مفقود، أو مصنَّف ضائع، وهي تضفي، في كل الحالات، معرفةً جديدةً، وعلماً إضافياً، لايصح التضحية بهما بحال من الأحوال.

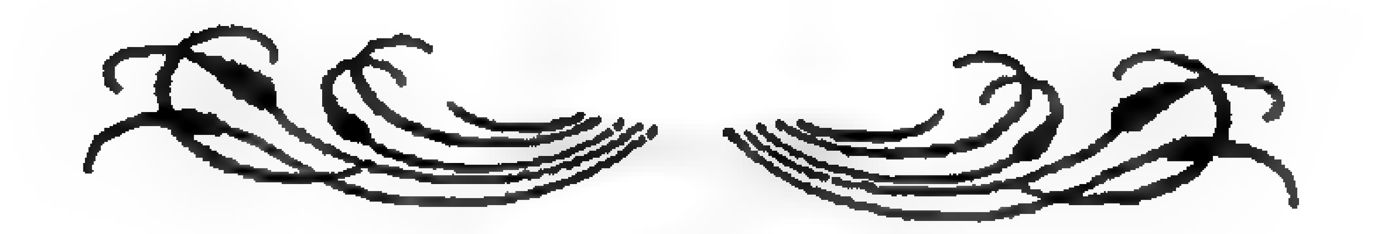
مسرد الكتب المفقودة أو الناقصة المشار اليها في البحث السابق على حروف المعجم

- الأحداث، لأبي جعفر محمد بن الأزهر.
- أخبار البرامكة، لأبي جعفر، عمر بن الأزرق الكرماني.
- الاختيارين، للأخفش.
- الأربعة في أخبار الشعراء، لأبي هفان المهزمي.
- الاستظهار في التاريخ على الشهور، للقاضي أبي القاسم علي بن محمد الرحبي المعروف بابن السمناني.
- الإشارات الإلهية، لأبي حيان التوحيدي.
- الأصمعيات، للأصمعي.
- الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي.
- الأنوار ومحاسن الأشعار، للشمشاطي.
- الأوراق، للصولي.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي.
- تاريخ العُظَيْمي، لأبي عبد الله علي بن محمد التنوخي الحلبي.
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للثعالبي.
- دمية القصر وعصرة أهل العصر، للباخرزي.
- دواوين الشعراء التالية أسماؤهم أو (أشعارهم حسب العنوان) :
  - ديوان إبراهيم بن العباس الصولي.
  - ديوان ابن الدمينة.
  - ديوان أبو الفتح البُستي.
  - ديوان أحيحة بن الجلاح الاوسي.
  - ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي.

- ديوان جَحَظَة البرمكي.
- ديوان جميل بُثينة.
- ديوان الخريمي.
- ديوان سابق البربري.
- ديوان سحيم عبد بني الحسحاس.
- ديوان صالح بن عبد القدوس.
- ديوان صفي الدين الحلي.
- ديوان عبد الصمد بن المعذّل.
- ديوان العطوي.
- ديوان عبد الله بن رواحة.
- ديوان عمرو بن الأهتم.
- ديوان كثيّر عزّة.
- ديوان محمود الوراق.
- ديوان المخبَّل السعدي.
- ديوان مروان بن أبي حفصة.

- الدِّيَرة ، للشمشاطي .
- ديوان شعر هذيل، صنعة أبي سعيد السكري.
- الربيع، لغرس النعمة، أبي الحسن محمد بن هلال.
- سير الثغور، لأبي عمرو عثمان بن عبد الله الطرسوي.
- طبقات فحول الشعراء، لابن سلّام الجمحي.
- كتاب ليس، لابن خالويه.
- مجالس ثعلب، لثعلب.
- معاني الشعر، لابن السكّيت.
- معجم الشعراء في لسان العرب، لياسين الأيوبي .

- معجم الشعراء، لياقوت الحموي.
- المفاوضة، لأبي الحسن علي بن محمد بن نصر الكاتب.
- المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، للشيخ الرئيس أبي البقاء هبة الله الحلي.
- الموازنة، للآمدي.
- النبات، لأبي حنيفة الدينوري.
- نزهة الناظر، لكمال الدين أبي محمد عبد القاهر بن علوي بن المهنا.
- نشوار المحاضرة، للتنوخي.
- النوادر في اللغة، لابي زيد الأنصاري.
- الورقة، لابن الجرَّاح.
- اليتيمة، للثعالبي.



المتابعة و التتبع في كتب التراث

إنّ المتابعة و التتبع و التدقيق والتصحيح في أي جانب من جوانب الحياة مواقف هامة وإجراءات أساسية بها تُستَكمل القضايا، و تستخلص الفوائد و النتائج، وتُصحَّح الأخطاء، و تقال العثرات .

و نقصد بالمتابعة و التتبع ان يقوم كتاب على كتاب، أو يدور حوله، أو عليه، أو على أشياء منه، شرحاً أو تلخيصاً أو مقارنة أو استنباطاً أو استيفاء أو تنقيحاً أو تصحيحاً.

وفي تراثنا الباذخ نزوع عظيم لنهج المتابعة و التتبع لغرض من الاغراض السابقة. وفي هذا النزوع انسجام مع القول المأثور (أحبُّ الاعمال إلى ا لله أتْقنها). و قد لاحظت هذه الظاهرة لدى وقوفي على كثير من كتب التراث التي ضربت في هذا الاتجاه. و لست هنا في معرض استيفاء هذه المسألة التي يمكن أن تُفْرَد لها صفحات كثيرة جدا، وتصنف فيها مؤلفات عديدة متكاثرة، فأنا أشير و أدلل و أنبّه الأنظار، ولا أستقصي جميع الكتب الداخلة في نطاق المتابعات والشروح والإكمالات والتدقيقات والتصويبات.

ولو وقفنا قليلا عند كتاب العرب الأول والأعظم المنزل على النبي العربي محمد بن عبد ا لله ﷺ أعني القرآن الكريم، لوجدنا علوماً كثيرة قامت حوله تتابع غريبه، وتفسّر غوامضه، وتدرس أسباب نزوله، وتستخلص أحكام الفقه فيه، وتعربه، وتوضح أسباب إعجازه، وتدرس قراءاته، والمعرب والأعجمي فيه، وغير ذلك من علوم القرآن التي أوصلها السيوطي في كتابه التحبير إلى مئة علم .

ولو أخذنا غريب القرآن مثلاً، لوجدنا العرب يؤلفون فيه الجمَّ الغزير من المصنفات، فمن أوائل مصنفاتهم فيه مسائل نافع بن الأزرق، وهي مجموعة من الأسئلة كان يوجهها ابن الأزرق إلى عبدا لله بن العباس– حبر الأمة (٦٨/٦٨٧) حول غوامض القرآن فيجيبه عليها

ابن العباس . وقد حقق هذه المسائل وطبعها في بغداد سنة ١٩٦٩ الدكتور إبراهيم السامرائي .

ومِمَّنْ أَلَّفَ في غريب القرآن أيضا أبان بن تغلب البكري (٧٥٨/١٤١) ومحمد بن السايب بن بشر الكوفي (١٤٦ /٨١٠) وأبو فيد مؤرخ السدوسي (١٩٥ /٨١٠) وأبو جعفر بن أيوب المقرىء من أهل القرن الثاني الهجري وأبو عبد الرحمن اليزيدي المقرىء (٢٣٧ / ٨٥١) ولكل من هؤلاء كتاب اسمه غريب القرآن، كما صنف في تفسير غريب القرآن أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي (١٧٩ / ٨٨٩) وابن قتيبة (٨٨٩/٢٧٦) وغيرهما.

ومن التفاسير التي تناولت القرآن عامة، لا غريبه فقط، يمكن للمرء أن يعد العشرات، ليست تفاسير الطبري والقرطبي والخازن وابن كثير وأبي حيان الأندلسي والسيوطي إلا بعضاً منها .

وقد أثَّر القرآن الكريم في علوم العربية تأثيراً عميقاً حتى إن أبا عمرو بن العلاء (١٥٤ /٧٧٠) قال : (كل العلوم العربية علوم دين)، وأبرز علم من هذه العلوم هو علم النحو. وفي هذا الميدان أنتجت القرائح العربية فكراً نحوياً عظيماً. وربما كان كتاب الكتاب لسيبويه (١٨٠ / ٧٩٦) الذي نعته الناس بقرآن النحو أقدم وأعظم كتاب نحوي (انظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص ٨٧) ويليه في الأهمية أربعة كتب نحوية أخرى هي:

١ ـ الإيضاح لأبي علي الفارسي.

٢ – الكافية لابن الحاجب.

٣ – المفصَّل للزمخشري.

٤ ـ التسهيل لابن مالك.

وقد تُنو لَت الكتب الخمسة المذكورة بالشروح والتعليقات بغزارة لافتة النظر، فبلغت شروح كتاب سيبويه والتعليقات عليه (٥٥) شرحاً وتعليقاً. وبلغت شروح الايضاح للفارسي (٣٠) شرحاً. وبلغت شروح المفصل للزمخشري (٩٤) شرحاً. أما الكافية لابن

الحاجب فبلغت شروحها (١٤٢) شرحاً بالعربيـة، وثلاثـة بالتركيـة، وسبعة بالفارسية، أما مختصراتها فهي خمسة مختصرات، ثم نظمت في تسع منظومات، وأعربت في ستة أعـاريب... هذا وبلغت شروح التسهيل لابن مالك (٦٦) شرحاً - (انظر مقدمة محمود الطناحي لكتاب الشعر، أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب للفارسي، القاهرة ١٩٨٨ ص ص ١١٥ - ١١٧).

ولو دققنا أكثر في تاريخ كتاب سيبويه (الكتاب) لوجدنا أن هذا الكتاب لقي، منذ ظهوره، حظّاً سعيداً لدى العلماء، فقد اجتمع على خدمته بين شرح وتعليق وتفسير لأبياته أو كلام على أبنيته، منذ القرن الثالث الهجري وحتى التاسع، طائفة كبيرة من العلماء المشارقة والمغاربة والأندلسيين والمصريين ٠

فممَّن شرح كتاب سيبويه أبو الحسن سعيد بن مسعدة المعروف بـالأخفش (٢١٥/٨٣٠) وأبو عثمان بكر بن محمد المازني (٢٤٨ / ٨٦٢) وأبو بكرالسراج (٣١٦/٩٢٨) وابن درستويه (٣٤٧ / ٩٥٨) وأبو سعيد السيرافي (٣٨٦ / ٩٩٦) وأبو الحسن الرمَّاني علي بن عيسى (٣٨٤ / ٩٩٤) وأبو العلاء المعرّي (٤٤٩ / ١٠٥٧) والزمخشري (٥٣٨/١١٤٣) وابن خروف أبو الحسن علي بن محمد الأندلسي (٦٠٩/١٢١٢) واسم كتابه هذا (مفتّح الأبواب في شرح غوامض الكتاب) وابن الحاجب أبو عمرو عثمان بن عمر المصري ثم الدمشقي (٦٤٦/ ١٢٤٨) وأبو حيان الأندلسي (٧٤٥/ ١٣٤٤).

ومِمَّنْ شرح مشكلاته ونكته وأبنيته: أبو عمر صالح بن إسحق الجرمي (٢٢٥/٨٣٩) ومن كتبه في هذا الباب (تفسير أبنية الكتاب) و (غريب سيبويه). وأبو حاتم السجستاني (٢٥٥ / ٨٦٨) وله كتاب باسم (تفسير أبنية الكتاب) ولأحمد يحيى ثعلب (٢٩١ / ٩٠٣) كتاب بالعنوان السابق نفسه. ولابن درستويه كتاب بعنوان (أغراض كتاب سيبويه) و(المسائل المفردة من كتاب سيبويه) ولأبي بكر محمد بن الحسن الزُّبيدي كتاب اسمه (الاستدراك على كتاب سيبويه في كتاب الأبنية والزيادات) ٠

وممَّنْ شرح شواهد الكتاب ابن السيرافي (٣٨٥ / ٩٩٥)، وقد طبع هذا الكتاب بدمشق بتحقيق الدكتور محمد علي السلطاني، والأعلم الشنتمري يوسف بن سلمان (١٠٨٣/٤٧٦) وشرحه مطبوع على هامش كتاب سيبويه بمطبعة بولاق.

وممن اختصر الكتاب: أبو البقاء العكبري (٦١٦ / ١٢١٩) ومختصره يُسمَّى (لباب الكتاب). وكذلك أبو حيان الأندلسي.

وممَّنْ ألّف في الاعتراض عليه محمد بن يزيد المُبرِّد (٢٨٥ / ٨٩٨) وله كتاب بعنوان (الردُّ على سيبويه) وابن الطراوة سليمان بن محمد المالقي (٥٢٨ / ١١٣٣) واسم مصنّفه (المقدّمات على الكتاب) وابن الضائع (٦٨٠ / ١٢٨١) وله كتاب ردٌّ فيه على اعتراضات ابن الطراوة. وللأسود الغندجاني (كان حيّاً سنة ٤٣٠ / ١٠٣٨) ردّ على السيرافي في شرحه لأبيات سيبويه - (انظر مقدمة عبد السلام هارون لكتاب سيبويه ج١ ص ص ٣٦-٤١).

وإذا انتقلنا إلى كتاب آخر في اللغة ألّفه ابن السكِّيت (٢٤٤ / ٨٥٨) وهو كتاب (إصلاح المنطق)، وقد طبع في زماننا بتحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، وجدنا هذا الكتاب ينال عناية واهتماماً كبيرين من اللغويين الذين قرأوه بعد ظهوره، فألف حوله أبو منصور الأزهري (٣٧٠ / ٩٨٠) كتاباً سماه (تفسير إصلاح المنطق) وكذلك ألّف فيه أبو الحسن علي بن أحمد ابن سيده الأندلسي (٤٥٨ / ١٠٦٥) وشرحه أبو العباس أحمد بن محمد المرسي (٤٦٠ / ١٠٦٧) و اختصره الوزير المغربي (٤١٨ / ١٠٢٧) ومجد الدين أبو المكارم علي بن محمد بن هبة الله (٥١٦ / ١١٢٢) و أبو الفتح ناصر بن عبد السيد الخوارزمي المعروف بالمُطرِّزي (٦١٠ / ١٢١٣) و أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز التجيبي (٦١٨ / ١٢٢١) وهذّبه أبو علي الحسن بن المظفّر النيسابوري (٤٤٢ /١٠٥٠)، وكذلك ألّف التبريزي (٥٠٢ / ١١٠٨) كتاب (تهذيب إصلاح المنطق) الذي حقّقه و نشره الدكتور فخر الدين قباوة سنة ١٩٨٣ ببيروت. ورتّب أبو البقاء العكبري (٦١٦ / ١٢١٩) كتاب (إصلاح المنطق) على حروف المعجم وسمّى مصنّفَه هذا (المشوف المُعْلَم في ترتيب إصلاح المنطق على حروف المعجم) وقد حقّقه و طبعه الأستاذ ياسين السوَّاس.

وهناك كتاب للزجّاجي استدرك فيه على ابن السكيت في إصلاح المنطق، فنهض أبو سعيد عبد الرحمن محمد المعروف بابن دوست (٤٣١ / ١٠٣٩) فألّف ردّاً عليه، وكذلك قام أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشّاب بتأليف كتاب ردّ فيه على الخطيب التبريزي صاحب كتاب (تهذيب إصلاح المنطق) المشار إليه سابقا. (انظر معجم المعاجم العربية لأحمد الشرقاوي إقبال ص ٧٧-٧٩).

وإذا انتقلنا إلى الحركة المعجمية العربية، وهي باب يحقّ للعرب أن يفاخروا فيه ويباهوا، فإننا نعاين من المصنفات فيها ما يبعث على الدهشة والإعجاب الشديدين، وربما كان أول معجم وصل إلينا (معجم العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ / ٧٩١) وهو معجم رُتّبت فيه المواد حسب مخارج الحروف. وكان صاحبه باقعة عصره، أسس علماً من علوم العربية هو علم العروض. وقد طبع (معجم العين) في تسعة مجلّدات بتحقيق الدكتورين مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي.

وقد حظي (معجم العين) بعناية مؤلفين كثر، كان منهم من تناوله بالاختصار أو بالاستدراك أو التكملة أو الانتقاد، أو الرد على المزاعم والاجتهادات الواردة فيه. ومن ذلك مثلاً كتاب (المدخل إلى كتاب العين) لأبي الحسين النضر بن شميل المازني (٢٠٤ / ٨١٩) وكتاب (تلقيح العين) لأبي غالب تمام بن غالب القرطبي المعروف بابن التياني (١٠٧٠/٤٦٣) و (مختصر العين) لأبي الحسن بن القاسم السنجاني الخراساني، ومثله لأبي بكر محمد بن حسن الزبيدي (٣٧٩ / ٩٨٩) ومثله لأبي الفيض محمد بن محمد المعروف بالمرتضى الزبيدي (١٢٠٥ / ١٧٩٠) صاحب (تاج العروس). ومن تلك الكتب أيضاً (فائت العين) لأبي عُمَر محمد بن عبد الواحد الزاهد المطرِّز الملقّب بغلام ثعلب (٩٦٥/٣٥٤)، وكتاب (التكملة) لأبي حامد أحمد بن محمد البشتي المعروف بالخارزنجي (٣٤٨ / ٩٨٩) و (المستدرك لما أغفله الخليل) لأبي الفتح الجهضمي البصري (١٨٧ /٨٠٢) و (الاستدراك على العين) لأبي فَيْد مؤرِّج السدوسي (١٩٥ / ٨١٠) و (الاستدراك على الخليل في كتاب العين) لأبي طالب المفضَّل بن سلمة الكوفي (٣٠٠ / ٩١٢) و (ما أغفله الخليل في كتاب العين وما ذكر أنه مهمل وهو مستعمل وضده) لأبي عبد الله الكرماني

الوراق (٣٢٩ / ٩٤٠) و (الاستدراك على الخليل في المهمل و المستعمل) لأبي تـراب (القـرن الثالث الهجري) و (غلط كتاب العين) لأبي محمـد عبـد الله المعروف بـالخطيب الإسـكافي (٤٢٠ / ١٠٢٩).

و توبعت السلسلة في النقد والرد علـى النقـد، فكـان لدينـا مـن ردّ علـى مـن انتقـد الخليل، مثل أبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة العقلـي الملقـب بنفطويـه (٣٢٣ / ٩٣٤) وله كتاب بعنوان (الرد على المفضل بن سلمة في نَقْضه على الخليل) ومثل أبي محمد عبد الله ابن جعفر المعروف بابن درسْتَوَيْه وله كتاب باسم (الردّ على المفضـل في الردّ علـى الخليـل) وثمّة من توسَّط بين الناقد، ومَنْ نَقَدَه الناقد، فألّف ابن دريد (٣٢١ / ٩٣٣) في هـذا الميـدان وفي الموضوع ذاته كتابا سمّاه (التوسُّط)... والحقيقة أن أكـثر هـذه الكتـب ضائعـة لم تطبـع، ولكن كتب التراجـم عزتها إلى أصحابها ـ (انظر معجم المعاجم، لأحمد الشرقاوي إقبـال ص ٢٠٥-٢٠٦) .

وإذا انتقلنا إلى معجم آخر هو (الصحاح) للجوهري (نحو ٤٠٠ / ١٠٠٩) فإننا نجد حركة تأليفية كبرى قامت حوله. منها ما كان حواشي عليه، ومنها مـا كـان تكمـلات لـه، ومنها ما هو مختصرات له، أو انتقادات، أو تهذيب، أو نَظْم له.

فمن قبيل الضرب الأول كتاب الحواشي على الصحاح لأبي القاسم الفضل بن محمد القصباني (٥١٥ / ١٢٢١) والتنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح لأبي محمد عبـد الله بـن بَرِّي (٥٨٢ / ١١٨٦) المعروف بحواشي ابن بَرِّي، وقد حقق هذا الكتـاب وطبعـه مصطفـى حجازي و عبد العليم الطحاوي ونشراه في جزأيـن في مجمـع اللغـة العربيـة بمصـر بـين سـنَتيْ ١٩٨٠ و ١٩٨١ ، والحاشية على الصحاح لأبي العبـاس أحمـد بـن محمـد الأزدي المعـروف بابن الحاج (٦٥١ / ١٢٥٣).

ومن التكملات: التكملة والذيل والصلة للصاغـاني (٦٥٠ / ١٢٥٢) وقـد نُشِـر في ستة مجلدات بين سنتي ١٩٧٠و ١٩٧٩ بمصر. وهذا كتـاب هـام للغاية لأنـه استدرك علـى الجوهري ما فاته من اللغات، واستتم ما أغفله من المعاني، و تعقّـب أوهامـه ومـا أخطـأ فيـه بالتصويب، واعتمد في كل ذلك على مصادر بلغت ألف مصدر. ورغم ذلك فإن الصاغـاني

هذا المصنف العظيم لم يتخلَّ عن صفة العالم الحقيقي، أعني التواضع والورع، فراح يكتب في مقدمة كتابه ما نصُّه: « هذا كتاب جمعتُ فيه ما أهمله أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد الجوهري ـ رحمه الله ـ في كتابه، وذيَّلْتُ عليه وسمّيته كتاب (التكملة والذيل والصلة) غير مدَّعٍ استيفاء ما أهمله واستيعاء ما أغفله، ولا يكلف الله نفساً الاّ وسعها، وفوق كل ذي علم عليم، وكم ترك الأول للآخر ؟؟ ». وهذا بحق تواضع لافت للانتباه.

ومن مختصرات (الصحاح): كتاب مختار الصحاح لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي (٦٦٦ / ١٢٦٧) وهو أشهر مختصرات الصحاح و أكثرها تداولاً. وفيه زيادات على ذلك المعجم من (تهذيب اللغة) للأزهري ومن غيره. ومن المختصرات (صفو الــراح من مختار الصحاح) لأبي الوجاهة عبد الرحمن بن عيسى العمري (١٠٣٧/١٦٢٧). و(مختار مختار الصحاح) لداود بن محمد القَرْصي (١١٦٠ / ١٧٤٧).

ومن الانتقادات عليه (قيد الأوابد من الفوائد) لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري (٥١٨ / ١١٢٤) و (الإصلاح لما وقع من الخلل في الصحاح) لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (٦٤٦ / ١٢٤٨) و (نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهري من الوهم) لصلاح الدين أبي الصفاء خليل بن أيبك الصفدي (٧٦٤ / ١٣٦٢) و (نور الصباح في أغلاط الصحاح) لأبي الفضل محمد بن عمر بن خالد القرشي من القرن السابع الهجري.

ومن التهذيبات له: (تهذيب الصحاح) لأبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي (٥٤٠ / ١١٤٥) و(ترويح الأرواح في تهذيب الصحاح) لشهاب الدين أبي البقاء محمود ابن أحمد بن بختيار الزنجاني (٦٥٦ / ١٢٥٨) و (الرامـوز) لحسام الدين محمد بن الحسن الأدرنوي (٨٦٦ / ١٤٦١) جرَّد فيه الصحاح من الشواهد والامثال والأنساب، فأضاف إليه زيادات الزمخشري في (الفائق) و (نهاية ابن الأثير) و (مقرّب) المطرزي.

وممن نظمه: زين الدين أبو الحسين يحيى بن معطي المغربي الزواوي (٦٢٨/١٢٣٠). وممن ألّف حوله: تاج الدين عبد الوهاب بن إبراهيم بن عبد الله الخزرجي الزنجاني (٦٥٤/١٢٥٦) و اسم كتابه: (المُعرَّب عما في الصحاح والمعرب) وشمس الدين أبو عبدا لله محمد بن الطيب الصميلي (١١٧٠ / ١٧٥٦) و اسم كتابه: (ضوء القابوس في زيادة

الصحاح على القاموس) والصفدي (١٣٦٢/٧٦٤) وله كتاب آخر غير كتابه السابق (نفوذ السهم) اسمه (غوامض الصحاح). و ذكر الأستاذ أحمد الشرقاوي إقبال أن لهذا الكتاب مخطوطة بخط الصفدي نفسه في مكتبة الأسكوريال كتبها الصفدي سنة (٧٥٧هـ) (انظر معجم المعاجم ص ٢٢٧ فما بعدها).

ولما ظهر معجم القاموس المحيط للفيروز أبادي (٨١٧ / ١٤١٤) نشأ حوله حركة تصنيفية هامة، نذكر من نماذجها:

١. القول المأنوس على القاموس، للشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفي (٩٢٠ / ١٥١٤).

٢. القول المأنوس بتحرير ما في القاموس، لبدر الدين القرافي (١٠٠٨ / ١٥٩٩). ومنه نسخة خطيّة بخط المؤلف بدار الكتب المصرية.

٣. إيناس النفوس بشرح القاموس، لمحمد عبد الرؤوف المنادي (١٠٣١ / ١٦٢١).

٤. القول المأنوس في صفات القاموس، للشيخ سعدالله المقني، وطبع سنة ١٢٨٧ في (برامفور).

٥. تاج العروس في جواهر القاموس، للمرتضى الزبيدي ــ أبي الفيض (١٢٠٥ / ١٧٩٠) وقد ذكر في مقدمته أسماء علماء غيره شرحوا القاموس أيضاً.

٦. التكملة و الصلة و الذيل للقاموس، للمرتضى الزبيدي أيضاً. وهو استدراك على مافات الفيروزأبادي في قاموسه. وقد طبع هذا الكتاب بمصر في ستة مجلدات.

و من الكتب التي نقدت القاموس:

١. زيادات على القاموس، لعبد الرؤوف المنادي، الذي مرّ ذكره سابقاً.

٢. الدرّ اللقيط في أغلاط القاموس المحيط، لمحمد بن مصطفى الشهير بداود زادة (١٠١٧ / ١٦٠٨).

٣. إضاءة الأدموس ورياضة الشموس من إصلاح صاحب القاموس، لعبد العزيز الجلي، وتوجد منه نسخة في مكتبة الجزائر ـ العاصمة.

٤. مَرَج البحرين في أجوبة القاموس عن اعتراضاته على الجوهري، للقاضي أويس بن عبد الرحمن المعروف بويسي (١٠٣٧ / ١٦٢٧).

٥. الجاسوس على القاموس، لأحمد فارس الشدياق (١٨٨٦ م). وقد طبع في مطبعة الجوائب عام ١٨٨١. (انظر مقال رابح لطفي جمعة في مجلة عالم الكتب ـ الرياض ١٤١٧ / ١٩٩٦ مج ١٧ع ٢ ص ١١٢).

وإذا ودّعنا الحركة المعجمية وبعض الإشارات إلى الكتب المصنّفة فيها ومتابعاتها، وانتقلْنا إلى المجموعات الشعرية التي تضّمنت قصائد جاهلية وإسلامية وأموية وعباسية، كالمعلقات والمفضليات والأصمعيات والحماسات، فإننا نجدها هي الأخرى أحدثت حركة تأليفية نشطة حولها، فمن المعروف مثلا أن « المعلقات » حظيت بشروح كثيرة في القديم لعلَّ أقدمها شرح ابن الأنباري (٣٢٨/ ٩٣٩) الذي نشره المرحوم عبد السلام هارون بعنوان شرح القصائد السبع الطوال بدار المعارف عام ١٩٦٣ م، و يليه شرح ابن النحاس (٩٤٩/٣٣٨)، فشرح الزوزني (٤٨٦ / ١٠٩٣) فشرح التبريزي (٥٠٢ / ١١٠٨). وهذه كلها شروح مطبوعة، أما الشروح غير المطبوعة أو الضائعة فكثيرة جداً. ذكر منها محمد علي حمد الله في مقدمته لشرح المعلقات السبع للزوزني أكثر من عشرين شرحاً. بل هي ثلاثونَ شرحاً ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود، ولم يذكر بينها شروح الشنقيطي والغلاييني والبستاني وغيرهم من المعاصرين. (انظر مقدمة محمد علي حمد الله لشرح الزوزني ص٥٧-٦٠) .

ومن المعروف أيضا أن « المفضليات » قد حظيت بخمسة شروح قديمة هامة نهض بها الأنباري القاسم بن محمد (٣٠٥ / ٩١٧)، وابن النحاس (٩٩٨/٣٨٨) والمرزوقي (٤٢١ / ١٠٣٠) والتبريزي (١١٠٨/٥٠٢)، والميداني (١١٢٤/٥١٨). ولم يطبع من هذه الشروح في حدود علمنا سوى شرحي الأنباري والتبريزي. أما « حماسة أبي تمام » فقد عدّ صاحب كشف الظنون أسماء عشرين ممن شرحوها، منهم أبو بكر الصولي (٣٣٥ / ٩٤٦)، والآمدي (٩٨١/٣٧١)، والنمري (٩٩٥/٣٨٥) وابن جني (٣٩٢ / ١٠٠١) والعسكري (٣٩٥ / ١٠٠٤) والهروي (١٠٢٣/٤١٤) والمرزوقي (٤٢١ / ١٠٣٠) والخطيب

الإسكافي (٤٢١ / ١٠٣٠) وابن سيده (٤٥٨ / ١٠٦٥)، وهو شرح كبير يقع في ستة مجلدات، سمّاه « الأنيق »، وأبو الفضل الميكالي (٤٧٥/ ١٠٨٢) والخطيب التبريزي. و لم تصل هذه الشروح إلى زماننا، بل وصل منها شرح أبي عبد الله النمري، و قد حققه و طبعه في السعودية الدكتور عبد الله عسيلان عام ١٩٨٣، ووصل شرح المرزوقي فحقّقه وطبعه في أربعة مجلدات المرحومان عبد السلام هارون و أحمد أمين سنة ١٩٥١ ثم أعادا نشر هذا الشرح في طبعة ثانية سنة ١٩٦٧. وكذلك نشر في مطبعة بولاق شرح الحماسة للتبريزي، ثم أعاد المرحوم محمد محي الدين عبد الحميد نشر هذا الشرح في ثلاثة مجلدات بالقاهرة.

ومن المعروف أن النمري في شرحه للحماسة قد تصدّى لشرح بعض الأبيات المشكلات فيها، ولكن عَلَماً آخر هو الأسود الغندجاني تعقّب شرحه هذا، فألّف كتاباً سمّاه « إصلاح ما غلط فيه أبو عبد الله النمري في شرح أبيات الحماسة »، وقد حقّق هذا الشرح ونشره الدكتور محمد علي سلطاني ضمن منشورات معهد المخطوطات العربية بالكويت عام ١٩٨٥.

و لو وَقَفْنا عند ديوان شاعر العربية الأكبر (المتنبي) لوجدنا أنه قد شرح شروحاً كثيرة، فقد شرحه المعري والعكبري والواحدي والبرقوقي وغيرهم وغيرهم... ولكن أول شارح له كان رجلاً لغوياً عظيماً عاصر أبا الطّيب هو ابن جنّي. ولابن جنّي شرحان للديوان صغير وكبير، والاول هو الباقي لنا. وقد تعقّب معاصرو ابن جنّي، ومَنْ بعدهم، هذا الشرح بالتعليق و التصويب. ومن هؤلاء كان الربعي علي بن عيسى (٤٢٠ / ١٠٢٩) الذي ألّف كتاباً سمّاه « التنبيه على خطأ ابن جنّي في تفسير شعر المتنبي »، ومنهم محمد بن أحمد المعروف بابن فورّجة و له كتاب اسمه « الفتح على أبي الفتح » وكتاب آخر عنوانه « التجنّي على ابن جنّي » وفيها يردّ على ابن جنّي في شرحه لشعر المتنبي. وكذلك تتبّع الشريف المرتضى بالتنقيح والتصحيح أبيات المعاني التي تكلم عليها ابن جنّي من شعر المتنبي، و للزوزني استدراك على ابن جنّي سمّاه « قَشْر الفسْر » ومنه نسخة بمكتبة طلعت بدار المصرية، و قد كُتبت سنة (٤٧٥ هـ) (الخصائص ١:٢٢).

ومما يذكر حول المتنبي، ويتصل بالخطأ والصواب، والمتابعة والتتبُّع، أن محمد الطاهر بن عاشور قد نشر كتاباً بعنوان « سرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن بسّام النحوي» وذلك سنة ١٩٧٠، فجاء في نحو ١٥٠ صفحة. وكان المرحوم ابن عاشور قد وهم في نسبة هذا الكتاب إلى ابن بسّام النحوي. فصحّح له هذا الوهم الدكتور محمد رضوان الداية في مقال له نشره في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٧٠ ج٤ /١٩٩٥ ص ص ٦١١ – ٦٢٢) منتهياً إلى أن هذا الكتاب المنسوب إلى ابن بسّام ما هو إلاّ الجزء الرابع من كتاب آخر عنوانه ((جواهر الأدب وذخائر الشعراء والكتاب)) لمؤلفه أبي بكر محمد بن عبد الملك النحوي الشنتريني الأندلسي المعروف بابن السرّاج (٥٥٠ / ١١٥٥). وقد جاء الوهم للشيخ محمد الطاهر بن عاشور من أنَّ أحد أهل العلم أوشداته أو أحد النسّاخ، ممن حظه قليل من المعرفة، قد فصل الجزء الرابع من كتاب ((جواهر الأدب)) وجعله كتاباً قائماً برأسه، وعزاه إلى ابن بسّام النحوي، وهو لابن السرَّاج النحوي الأندلسي.

ومن المعروف أن المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس قد حظي في زماننا ببلوغرافيا ممتازة وعظيمة، فنشر عنه كوركيس عواد وميخائيل عواد كتاباً كاملاً بعنوان: ((رائد الدراسة عن المتنبي)). وذلك في بغداد سنة ١٩٧٩.

وإذا تركنا ما تقدَّم، وانتقلنا إلى باب الأمالي، وجدْنا من أهم أشكال هذا الجنس التأليفي عند العرب « أمالي أبي علي القالي » المتوفى سنة (٣٥٦/٩٦٦) وقد وصلت إلينا وطبعت. وأمالي القالي من أمتع الكتب في بابها، وهي مجموعة دروس أملاها أبوعلي على طلابه في الأندلس. وقد تتبع أبو عبيد البكري (٤٨٧ / ١٠٩٤) هذا الكتاب في مؤلف له دعاه « اللآلي في شرح كتاب الأمالي »، كما ألّف البكري ذاته كتاباً آخر سمّاه ((التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه))، وقد نشر الأمالي واللآلي والتنبيه جميعها العلامة المرحوم عبد العزيز الميمني الراجكوتي في القاهرة.

ولم يتتبع البكريُّ القاليَّ فقط، بل تتبّع أبا عبيد القاسم بن سلاّم (٢٢٤ / ٨٣٨) صاحب كتاب الأمثال، في كتاب سمّاه « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » قال في فاتحته: ((أما بعد فإني تصفّحتُ كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلاّم، فرأيته قد أغفل

تفسير كثير من الأمثال، فجاء بها مهملة، وأعرض عن ذكر كثير من أخبارها، فأوردها مرسلةً، فذكرتُ من تلك المعاني ما أشكل، ووصلتُ من تلك الأخبار بأمثالها ما فصل، وبيّنْتُ ما أهمل، ونبّهتُ على ما ربما أجمل، إلى أبيات كثيرة غير منسوبةٍ فنسبتها، وأمثال جمّةٍ غيرِ مذكورة ذكرتها، وألفاظٍ عدّة من الغريب فسَّرتُها (انظر فصل المقال، تحقيق إحسان عباس وعبد المجيد عابدين ص ١٣).

وإذا ودَّعْنا أبواب الأدب، وانتقلنا إلى التاريخ، وجدنا كتاب الطبري «تاريخ الأمم والملوك » وهو كتاب محوري في علم التاريخ، ويقع في عشرة مجلدات بطبعة محمد أبو الفضل إبراهيم، وجدناه يلقى هو الآخر عنايةً فائقة، فقد اختصره جماعة، وحذفوا أسانيده، ومن هؤلاء: محمد بن سليمان الهاشمي، وأبو الحسن الشمشاطي المعلم من أهل الموصل، والسليل ابن أحمد... الخ. وذُيِّلَ على تاريخ الطبري أبو الحسن محمد بن عبد الملك الهمداني (٥٢١ / ١١٢٧) بكتاب سماه: « الذيل على تاريخ الطبري » وطبع هذا الذيل في بيروت سنة ١٩٥٨-١٩٦٢ تحت عنوان « تكملة تاريخ الطبري ». وكذلك ذيَّل عليه أبو غالب عبد الواحد بن مسعود الشيباني (٥٩٧ / ١٢٠٠) ومنه شذرات التقطها إحسان عباس من كتاب « بغية الطلب » لابن العديم، ونشرها في كتاب « شذرات من كتب مفقودة في التاريخ والأدب ص ص ١٥١-١٥٩ ».

ولما ظهر الكتاب المعجزة تاريخ مدينة دمشق الذي يقع في إحدى تجزئاته في ثمانين مجلدة، والذي صنّفه ابن عساكر (٥٧١ / ١١٧٥) نهض ابن منظور المصري بعملية اختصاره فحذف أسانيده والروايات المتشابهة فيه، وألّف « مختصر تاريخ مدينة دمشق » الذي صدر بتحقيق مجموعة من الباحثين عن دار الفكر بدمشق في (٢٩) جزءاً في السنوات الأخيرة. وكذلك اختصره ابن بدران في العديد من المجلدات.

وحفلت كتب التراجم، وهي باب آخر عريض من أبواب مكتبتنا العربية، بذيول كثيرة، فبعد أن ألّف ابن خلّكان كتاب « وفيات الأعيان » جاء بعده الصفدي فألف: « الوافي بالوفيات » وأحبّ ابن شاكر الكتبي أن يستدرك مافات ابن خلّكان من تراجم فألّف كتاباً سمّاه: « فوات الوفيات » وقد حقّق هذا الكتاب الدكتور إحسان عباس، الذي قال إنّ

ماأضافه الكتبي على ما عند ابن خلّكان قد يصل إلى ستمائة ترجمة. وفي إعادة طبع فوات الوفيات استدراك وإضافة لما نشره من هذا الكتاب المرحوم محمد محي الدين عبد الحميد، ففي حين كان في طبعة عبد الحميد جزأين صار في طبعة إحسان عباس خمسة أجزاء. هذا، علماً بأن الدكتور عباس قد عاد إلى نسخة بخط المؤلف كانت محفوظة في مكتبة أحمد الثالث بـ(طوبقبوسراي). ولدى المقارنة وجد أن الطبعة الأولى للكتاب قد أخلّت بعشرات التراجم. وكانت بعض تراجمها موجزة حُذف الكثير منها..الخ.

وعندما ظهر كتاب طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى، قام ابن رجب الحنبلي بصنع ذيل له سمّاه: ذيل على طبقات الحنابلة. وقد حقق هذا الكتاب (هنري لاووست وسامي الدهان) ونشراه ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق عام ١٩٥١. ومن ضمن منشورات هذا المعهد كتاب آخر يتعلق بالكتاب الأسبق هنا، وهو « تالي كتاب وفيات الأعيان » للصقاعي، فضل الله بن أبي فخر، وقد حققته (جاكلين سوبله) ونشرته في المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٧٤.

وعندما أصدر المرحوم خير الدين الزركلي في عصرنا الحاضر كتابه الضخم القيم « الأعلام » تعقّبه المرحوم أحمد عبيد بكتاب له آخر يتصل به سماه « الإعلام بما أخلّت به الأعلام » استدرك عليه تراجم كثيرة لم يوردها الزركلي في معجمه العظيم المشار إليه.

....

وهذه الإشارة الأخيرة تقودنا إلى شيء من المتابعة والتتبع في عصرنا الحاضر، فبعد أن أشرنا إلى لُمَع من أضواء هذا المذهب التأليفي القديم، و لم نستقصه، واستقصاؤه عزيز، ننتقل إلى عصرنا الحالي لنشير إلى اتصال هذا التيار التصنيفي القديم بما يشبهه في زماننا.

ففي زماننا قلما تخلو دورية عربية مَعْنية بالتراث من بحث فيه متابعة أو تتبع أو تدقيق أو استدراك على ما نشر من قبل. وقد وقعت أخيراً على مقالة للدكتور رمضان عبد التّواب نشرها في مجلة معهد المخطوطات العربية (مج ٣٤ ج ١ و ٢ / يناير يوليو ١٩٩٠) عنوانها « من تجربتي في تحقيق نسبة الكتاب وتوثيق عنوانه ». وفي هذه المقالة يُصحّح عبد التواب نسبة كتاب اسمه « أغلاطي » فقد نُسب إلى صفي الدين الحلّي (٧٤٩ / ١٣٤٨) و هو من

مخطوطات الأسكوريال. ولكنه لدى التدقيق تبين أنه للصفدي و ليس للحلّي. واستدل عبد التواب على هذه النسبة بشهادة البغدادي في كتابه « هدية العارفين » و بنصوص وردت في المخطوط ذاته تؤكد نسبته للصفدي بدليل أنّ المؤلف نفسه يذكر فيه كتاباً له معروفاً عنوانه « نفوذ السهم فيما وقع للجوهري من الوهم » كما يستدل على ذلك بوجود إجازة بخط الصفدي لرواية الكتاب.

وكذلك يصحح رمضان عبد التواب خطأ (لأوغست هفنر) وقع فيه عندما حقق مصنّفاً بعنوان « ثلاثة كتب من الاضداد » ــ (بيروت ١٩١٣) فقد نسب من بين هذه الكتب الثلاثة واحداً إلى الأصمعي، والصواب أنّه لابن السكّيت. وكان سبب هذا الخطأ هو أنّ الكتاب يبدأ بالقول « قال الأصمعي ». وحلُّ هذا الإشكال في أن نفهم أنّ ابن السكّيت يبدأ كتابه بالرواية عن الأصمعي. و هذا مما تحدث نظائر له كثيرة بسبب ضياع ورقة العنوان من المخطوط. وعلى الرغم من أن للأصمعي كتاباً في الأضداد، إلاّ أنّ هذا الكتاب ليس له كما زعم (هفنر)، لأن الشيوخ الذين ينقل عنهم، هم شيوخ ابن السكيت وليسوا شيوخ الاصمعي، وخاصة أنّ الأثرم منهم. ثم أن بعض الشيوخ الواردين في هذا الكتاب هم خصوم الأصمعي، ولم ينقل عنهم شيئا، أمثال ابن الاعرابي وأبي عبيدة.

و يُصحّح رمضان عبد التواب عنوان كتاب نشره مجمع اللغة العربية بدمشق وهو كتاب « الإبدال والمعاقبة والنظائر » للزجاجي (٣٣٧ / ٩٤٨) وقد حقّقه عز الدين التنوخي ونشره سنة ١٩٦٢، وحقيقة أمره أنه فَصْلٌ من كتاب آخر للزجاجي اسمه « الأمالي الكبرى»، بدليل أن عبد القادر البغدادي مؤلف شرح شواهد الشافية قد نقل نصوصاً من ذلك الكتاب المطبوع و عزاها إلى « الأمالي الكبرى ». فالكتاب اذن ليس « الإبدال والمعاقبة والنظائر » بل جزء من « الأمالي الكبرى ».

و كذلك يصوّب (التواب) فهرس المستشرق (دير نبورج) لمكتبة دير الأسكوريال بأسبانيا، فقد نسب فيه (ديرنبورج) كتاباً اسمه « النوادر في العربية» لأبي هلال العسكري. ولدى التدقيق تبين أن هذا الكتاب هو « زاد الرفاق » للأبيوردي الشاعر المعروف المتوفى عام (٥٠٧ / ١١١٣). وقصة ذلك أن المؤلف كان أحد تلاميذ عبد القادر

الجرجاني، وينقل عنه في كتابه المذكور.... ولما فتّش « التواب » عن تلامذة الجرجاني وجد بينهم الأبيوردي، وعندما فتّش عن مؤلفات الأبيوردي وجد (كارل بروكلمان) ينسب إليه كتاباً اسمه « زاد الرفاق »، وكان التواب يعرف أن مِنْ هذا الكتاب نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية ، فلما قابل بين المخطوطتين « النوادر العربية » و « زاد الرفاق » و القابعة إحداهما، و هي الأولى، في دير الأسكوريال، والثانية و هي « زاد الرفاق» في مصر، استنتج أنّ الأولى ليست سوى نسخة ثانية عن الثانية، وكان بها خَرْم يصل إلى حوالي (١٩٠) ورقة. وكان اكتشافه لهذه الحقيقة بعد ربع قرن بقيت فيه مخطوطة الأسكوريال تحت اسم مزيّف ومعزوّة لمؤلف مزوَّر. وكان مبعث غلط (ديرنبورج) هو هامش ورد في أعلى ظهر الورقة الأولى يقول صاحبه (حسن عبد الله) فظن أنّ الحسن هو أبو هلال العسكري مؤلف كتاب « الأوائل » و « كتاب الصناعتين » والحقيقة هو أنّ حسن عبد الله كان أحد مالكي النسخة الموجودة في دير الأسكوريال و ليس مؤلفها. و قد كتب عن هذه المخطوطة الشيخ حمد الجاسر مقالَيْن اثنين في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٦٣: ج ١، و ج ٣ لعام ١٩٨٨).

وكذلك نشر حاتم الضامن في مجلة المورد (مج ١٥ ع ٢) مقالاً حول كتاب الأشباه و النظائر المنسوب للثعالبي الذي حقّقه محمد المصري و نشره في بيروت، عن نسخة مخطوطة له في استنبول تعود إلى القرن الثاني عشر الهجري، أثبت فيه حاتم الضامن أن هذا الكتاب ليس للثعالبي، بل هو اختصار لكتاب ابن الجوزي (٥٩٧ / ١٢٠٠) الموسوم بـ «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ».

وكذلك أثبت الضامن أن ما طبع في الاسكندرية سنة ١٩٧٩ بعنوان « منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر » بتحقيق محمد السيد الصفطاوي و فؤاد عبد المنعم أحمد هو ذاته كتاب ابن الجوزي « الأشباه و النواظر » الذي طبعه محمد المصري ! و سبب هذا الغلط هو ما جاء في صفحة العنوان و مقدمة الكُتاب المقحمة عليه وكلاهما خطأ و تضليل.

و من التصحيحات التي يجدر التنبيه عليها ما اكتشفه الباحث (جبرائيل جبّور) من زيف بعض النصوص الواردة في كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه، فقد دُسَّ في هذا

الكتاب نصوص لم يدرجها فيه، أصلاً، ابن عبد ربه بل أضافها إليه نُسّاخ الكتاب أو قارئوه أو مالكوه.. وانطلى الأمر على ناشري « العقد الفريد » فأوردوا النصوص الدخيلة على أنها أصيلة، و لم يلاحظوا الخطأ والخلل فيها، رغم أنَّ الأمر لا يحتاج إلى عناء كبير، فأنت إذا قرأت « العقد الفريد » ترى أنّه قد ترجم في كتاب اليتيمة الثانية (ج ٣ ص ٥٩ - ٦٠ طبعة العريان و ج ٥ ص ١٢٩ - ١٣١ طبعة أحمد أمين) لأربعة خلفاء من بني العباس، هم: الراضي والمتقي والمستكفي والمطيع، و كلّهم توفي بعد وفاة ابن عبد ربه أي بعد سنة (٣٢٨ / ٩٣٩)، و يلاحظ في ترجمة (المطيع) أنّه قد خلع نفسه سنة (٣٦٣ / ٩٧٣) أي بعد موت ابن عبد ربّه بـ (٣٥) عاماً، فكيف يكون ذلك ؟

وكذلك لاحظ الأستاذ جبور أنَّ أخبار (بني العباس) في الجزء الثالث من العقد (طبعة العريان) والخامس طبعة (أمين) لم يدوّنها ابن عبد ربّه، بل دُسَّتْ في الكتاب دسًّا (انظر مصطلح التاريخ لأسد رستم ص ص ٢٢ - ٢٤). ومن الأدلة على أن « العقد » قد خالطه تحريف و تغيير و زيادات أن ترتيب « العقد الفريد » حسب رواية ياقوت الحموي في معجم الادباء، يختلف عمّا هو عليه في طبعاته المعاصرة.

وإذا تجاوزنا تصحيح العنوانات المغلوطة، ونسبة المؤلفات إلى مصنّفين لم يصنفوها، ومحاولات رَصْد الأغلاط والزيادات في الأصول المخطوطة، وانتقلنا إلى الأخطاء التي يقع فيها المحققون، فإننا نجد أمامنا الكثير من أوهام الباحثين المعاصرين التي لاقت مَنْ كَشَفَ عَنها وصوّبها من الباحثين الأخر... و قد كانت الأوهام والأغلاط والتحريفات والتصحيفات قديمة في كتب التراث، حتى إن مؤلفين قدماء تَصدَّوا لهذه الظاهرة وفنّدوها وبسطوا غوامضها، وشرحوها. وكان من بين تلك الكتب التي ضربت في هذا الاتجاه « إصلاح المنطق » لابن السكيت، وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكري، والتنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصفهاني، ودرة الغوّاص للحريري، وتقويم اللسان لابن الجوزي، وتثقيف اللسان للصقلي، ولحن العوام للزبيدي، وتصحيح التصحيف وتحرير التحريف للصفدي.

و ثمة كتب عقدت فصولاً هامة تعقّب فيها مؤلّفوها من سبقهم من العلماء، وأمثل لهذه الفصول بفصل جاء في كتاب الخصائص لابن جنّيّ عنوانه: (سقطات العلماء) ـ (الخصائص ٣:٢٨٢ فما بعدها) و فيه ذكر ابن جنّيّ أخطاء للأصمعي ولأبي زيد الأنصاري ولثعلب أحمد بن يحيى ولغيرهم. ومن تلك السقطات أنّ الأصمعي صحّف قول الحطيئة:

وغررْتَني و زعمتَ أنّـ ـك لابنٌ في الصيفِ تامِر

فأنشده (... لاتني بالضيف تامر) أي تأمر بانزاله وإكرامه. ويعلق ابن جنّيّ على ذلك بقوله: (وتبعد هذه الحكاية في نفسي لفضل الأصمعي و علوّه غير أنني رأيْت أصحابنا على القديم يسندونها إليه ويحملونها عليه).

و قال ابن جني: (ومن هذه « يريد السقطات » ما يُحْكى عن خلف أنه قال: أخذتُ على المفضل الضبي في مجلس واحد ثلاث سقطات، أنشد لامرىء القيس:

نَمَسُّ بأعرافِ الجيادِ أكفَّنا إذا نحن قُمْنا عن شِواءٍ مُضَهَّبِ

فقُلْتُ له: عافاك الله ! إنما هي نَمُشُّ، أي نَمْسَحُ، وفيها سُمِّي منديل الغَمَر مَشُوْشاً. وأنشد للمخبَّل السعدي:

واذا ألَمَّ خيالُها طَرَقَتْ عيني فماءُ شؤونها سَجْمُ

فقُلْتَ: عافاك الله ! إنّما هي طُرِفتْ . وأنشد للأعشى :

ساعةً أكبرُ النهارِ كما شـ ـدَّ مُحيلٌ لَبُوْنَهُ إعْتاما

فقُلْتُ: عافاك الله ! إنّما هو مُخِيل، بالخاء المعجمة، وهو الذي رأى خال السحابة، فأشفق فيها على بَهْمِهِ فشدَّها) ـ (الخصائص ٣:٢٨٧).

وكذلك يشير ابن جني إلى مبحث المبرد محمد بن يزيد المعنون بمسائل الغلط في كتابه سيبويه. ولكنه يبرئ سيبويه من أكثره، ويشير إلى اعتذار المبرد عن كتابه هذا، لأنّه عمله في أوان الشبيبة و الحداثة. (الخصائص ٣:٢٨٧).

وفي موضع آخر نجد الأصمعي يصحح تصحيفاً للمفضل الضبي الذي أنشد بيت أوس بن حجر على هذا النحو:

و ذاتِ هِدْمٍ عارٍ نواشِرُها   تُصْمِتُ بالماءِ تَوْلبا جَدَعا

فقال الأصمعي: هذا تصحيف، لا يُوصَف التولب بالإجْذاع، وإنما هو (جَدعا) بالجيم و هو السيّء الغذاء. قال: فجعل المفضَّل يُشغّب فقُلْت له: تَكَلَّمْ كلام النمل و أَصِبْ، لو نفختَ في شبُّور يهودي ما نفعكَ شيئاً (الخصائص ٣:٣٠٦).

وكذلك كان الصاغاني يصحح الكثير من الروايات و يحررها، ومن ذلك على سبيل المثال أنّه روى قول الجوهري في « الصحاح »: الشتّيت: المتفرِّق. قال رؤبة يصف إبلاً:

جاءت معاً و أطرقتْ شتيتا
و هي تثير الساطع السِّختيتا

ثم تعقّبه فقال: و ليس لرؤبة على هذا الرويّ شيء، وإنما هي من الأصمعيات والإنشاد مداخل، والرواية:

جاءت معاً وأطرقت شتيتا
و تركتْ راعيَها مَشْبُوتا
قد كاد لما نامَ أن يموتا
و هي تثير ساطعاً سَخْتِيتا

(انظر التكملة و الذيل و الصلة ١:٣٢٠).

والأمثلة في معجم الصاغاني « التكملة والذيل والصلة » على تصويب روايات الشعر وتصحيح نسبة الأشعار إلى أصحابها، أو بالعكس، كثيرة جداً جداً.

كان ما سبق أمثلة على أخطاء القدماء في قراءة الشعر وروايته وشرحه. أما أخطاء المحدثين، ونحن منهم، في قراءة المخطوطات والتعليق عليها فهو كثير أيضاً، بل كثير جداً... ولا تكاد دورية عربية تعنى بالتراث تخلو من تصحيحات وتصويبات وتتبع ومتابعة لما ينشر من مخطوطات تراثية، سواء كانت هذه الدوريات تصدر في دمشق أو القاهرة أو بغداد أو الأردن أو السعودية أو غيرها.

وكثيرة هي الأمثلة على تصحيحات المحدثين بعضهم لبعض، فقد صحّح في الخمسينيات مصطفى جواد من العراق بعض أوهام وقع فيها أستاذنا الدكتور شكري فيصل عندما نشر جزأين من كتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » للعماد الأصفهاني، فقد رصد له في الجزء الاول (٥٥) خمسة وخمسين موضعاً، كانت تحتاج منه إلى مراجعة، ورصد له (٣٩) تسعة و ثلاثين موضعاً في الجزء الثاني تستدعي التدقيق من جديد... الخ.

وكتب محمد بهجة الأثري نقداً حول الجزء الأول من كتاب الخريدة الذي نذكر تحقيقه هنا وقع في (٩٠) صفحة نشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي، وهو المكان الذي نشر فيه أيضاً مصطفى جواد ملاحظاته المشار إليها وقد جمعت مقالات مصطفى جواد في كتاب له بعد موته، مع أبحاث له أخرى وصدرت في بغداد في جزأين (انظر كتاب: في التراث العربي، لمصطفى جواد – ج٢ بغداد ١٩٧٩) .

ومن أمثلة هذه التصحيحات التي صنعها مصطفى جواد، ما جاء في ص ١٠٣ من الجزء الأول من الخريدة، وهو قول العماد: (وقد أثبتُّ منها ما عقدتُ عليه خنصر الاختيار، وثنيت عليه عنان الانتقاد) والصواب، في نظر جواد، « عنان الانتقار » لا « الانتقاد » لأن « الانتقار » يشاكل « الاختيار » التي ذكرت في العبارة الأولى. وهو في المعنى، الاختصاص والاختيار، يقول طرفة بن العبد:

نحن في المشتاةِ ندعو الجَفَلَى ... لا ترى الآدِبَ فينا ينتقرْ

ومعنى (ينتقر): يختار. فالجفلى هي الدعوة العامة، والنَّقَرى هي الدعوة الخاصة. (انظر مصطفى جواد: في التراث العربي بغداد ١٩٧٩ ج٢ ص ٣٠٢).

ومن تعقباته أيضاً ما ساقه حول بيت ابن الزغلية، الوارد في الخريدة (ص ٣٢٢) على هذا النحو:

فمن يناوئْكَ في هذا الأنام وفي   يمينك الماضيان: السيفُ والقلمُ

إذ قال: إن جزم (يناوئك)، بوصفه ضرورة شعرية لا داعي له. والشاعر فيما يرى هو، سهَّل الهمزة فصارت (يناويك)، وهي الصواب ولا ضرورة معها (في التراث العربي ص ٣٠٥). وساق مصطفى جواد قول الشاعر في الخريدة (ص ٤٦٦):

وحقّ نصف اسمه الأخير لقد   كنت له قديماً كأوّله

ثم قال: والشطر الثاني مكسور بتقديم " له " وتأخير " قديماً " والصواب: " كنت قديماً له كأوله ". بتقديم " قديماً ". (في التراث العربي ص ٣٠٨).

ومن ملاحظاته على الجزء الثاني ما جاء في صفحة ١٩ من الخريدة من قول للشاعر أبي محمد ـ محمد بن عبد الله المعري:

لا سيّما إن حسَّنَتْ شيبَهُ   في عينها حالة إفلاس

إذ قال جواد:

وحالة الإفلاس لا تُحسِّنُ الشيب في عين الكاعب المذكورة في الشعر، فالظاهر أن (حسَّنت) تصحيف (خيّبتْ) أو خسَّأتْ) من الخيبة والخسوء. (في التراث العربي ص٣٣٠).

وثمة تصحيحات تتناول تراجم الأعلام الواردة في الخريدة (ج٢) ومن أمثلة ذلك ما جاء في (ص ٤٠١) من الخريدة حول ترجمة بهاء الدين أسعد بن يحيى السنجاري، إذ أوصل المحقق شكري فيصل سنة وفاته إلى (٦١٩)، ولم يجد مصدراً لسنة وفاته، مع أنه على طرف الثمام، فقد قال ابن خلّكان في وفيات الأعيان (١: ٧٤) حوله: " وتوفي في أوائل سنة اثنتين وعشرين وستمائة بسنجار " وقال ابن العديم في بغية الطلب عنه: " قال لي علي بن ادريس الحمصي الشاعر: توفي البهاء السنجاري في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة ". ثم قرأ مصطفى جواد في تاريخ علي بن أنجب البغدادي، المعروف بابن الساعي: " بلغني أن أسعد بن يحيى السنجاري هذا توفي في المحرم من سنة أربع وعشرين وستمائة ". (في التراث العربي ص ٣٤١).

وراجع أيضاً مصطفى جواد في كتابه « في التراث العربي » عدداً من المطبوعات التراثية التي ظهرت في زمانه أمثال: أخبار البحتري للصولي، تحقيق صالح الاشتر، طبع مجمع اللغه العربية بدمشق ١٣٧٨ / ١٩٥٨ م، وديوان ابن أبي حُصَيْنة ، تحقيق محمد أسعد طلس، طبع المجمع بدمشق ١٣٧٥ / ١٩٥٦ م. وكتابه تعريف القدماء بأبي العلاء، وهو السِّفر الأول من آثار أبي العلاء المعري، وجمعه وحققه لجنة من رجال وزارة المعارف بمصر بإشراف طه حسين، وطبع بالقاهرة سنة ١٣٦٣ / ١٩٤٤ م. وديوان ابن الساعاتي تحقيق أنيس المقدسي، بيروت ١٩٣٨ م... الخ.

وفي سورية تتبع الدكتور شاكر الفحّام أوهام الدكتور حسين نصّار في طبعته لديوان ابن الرومي الذي نشره في ستة أجزاء بالقاهرة (١٩٧٣ - ١٩٨١) وذلك في بحث له نشره في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٦٠ ع١ لعام ١٩٨٥ ص ١٢٤ - ١٥٢). ومما جاء في بحث الدكتور الفحّام: أنّ الدكتور نصّار ظن أن مثقالاً غلام ابن الرومي قد صنع ديوان ابن الرومي، وكذلك ابن الحاجب غلام ابن الرومي. وهذا غير صحيح، وهو يدل على عدم تدبر لعبارة ابن النديم في « الفهرست » التي تعني غير ما فهمه منها الدكتور حسين نصّار، إذ تعني أن لكل منهما ديواناً، ولكن الدكتور نصّار وهم في أن كلاً منهما صنع ديوان ابن الرومي ! والانزلاق الأكبر عند الدكتور نصّار كان في اعتقاده أنّ ابن أبي

فنن أيضاً قد صنع ديوان ابن الرومي ! وابن أبي فنن توفي قبل ابن الرومي. وهذا يقطع بأنه لم يكن من رواة ديوان ابن الرومي. ويصح هذا القول على خالد الكاتب المتوفى بين سنتي ٢٦٢ و ٢٦٩ الذي توهَّم الدكتور نصّار أيضاً أنه من رواة ديوان ابن الرومي.

ثم يعدّد الدكتور فحّام رواة شعر ابن الرومي الحقيقيين وناقلي أخباره فيجدهم سبعة رجال ليس بينهم من ذكروا آنفاً، وذلك بالاعتماد على تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي.

وعندما لا يحسن د. نصّار ترجمة (أبي الطيب ورّاق ابن عبدوس) الذي جمع ديوان ابن الرومي، يقول د. فحّام عنه: إنه معروف مشهور. وفي المكتبة الظاهرية بدمشق نسخة بخطه للجزء الأول من ديوان الفرزدق، وقد كتب هو مقدمةً لها ونشرها، كما هي، ضمن مطبوعات المجمع، وأشار إلى أن المصادر التي ذكرت ابن عبدوس وترجمت له كثيرة، منها الفهرست لابن النديم، ومعجم الأدباء لياقوت، وإنباه الرواة للقفطي، ومفتاح السعادة لطاش طبرى زادة، وكتب أخرى كثيرة.

وعندما يعتقد د. نصّار أن المراد ببيت الرومي:

إستقبِلِ المهرجانَ بالفَرحِ فقدْ مضَتْ عنكَ دولةُ الفَرحِ

هو أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري مؤلف كتاب الوزراء والكتاب، يصحح د. فحّام ذلك قائلاً: ان المراد هو أبو عبد الله عمر بن محمد بن عبدوس. وشتان بين الرجلين... إلخ.

ومن المعروف للمهتمين بالتراث أن الدكتور الفحّام قد أصدر كتاباً كاملاً في تصحيح ديوان بشار سمّاه « نظرات في ديوان بشار »، وقد صدر بدمشق عن مجمع اللغة العربية.

ونظر العلامة المرحوم أحمد راتب النفّاخ في تحقيق الدكتور مازن المبارك لكتاب اللامات ، للزجاجي، الذي طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق عام (١٣٨٩/١٩٦٩) عن نسخة وحيدة له مخطوطة، فوجد فيه كثيراً من الأخطاء والأوهام، فنشر مقالاً له حول ذلك في مجلة

العرب (السنة الخامسة ـ الجزء الأول رجب ١٣٩٠ ـ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ص ص، ١٩٦ - ٢٠١) بعنوان: نظرات في كتاب اللامات. ومما جاء فيه على سبيل المثال لا الحصر، أن الأستاذ النفاخ بعد أن درس نسب المخطوطة وملابساتها أخذ على الدكتور قوله في النسخة: " هي نسخة كاملة، واضحة، لم تعبها وحدتها و لم تقعدنا عن تحقيقها " فعلّق قائلاً بعد تفصيل وصف المخطوطة: " وما كانت هذه سبيله فمِنْ خطل الرأي أن يرفع إلى مرتبة الأصول التي لا تعبها وحدتها " وذلك لأنَّ النسخة مؤوفة نالها من عبث النساخ عَنَتٌ شديد فصُحِّف غير قليل من ألفاظها تصحيفاً منكراً وسقط في مواضع كثيرة منها ألفاظ وعبارات أخلَّ سقوطها بمعاني الكلام... و لم ينتبه المحقق الدكتور المبارك إلى كثير من هذه المواضع ومن أمثلة ذلك :

١ ـ أن الناشر المحقق لم ينتبه إلى تصحيف ورد في الأصل المطبوع (ص ٤ برقم ١٨) وهو كما يلي: " لام تدخل بين الفعل المستقبل لازمة في القسم ولا يجوز حذفها ". صوابها " تدخل في الفعل " وكان لدى المحقق مرجّحات لهذه القراءة لو عاد إلى كتاب الغيث المسجم ١٣٢/١، وإلى كلام المؤلف نفسه في عنوان الباب الذي عقد لهذه اللام (ص ١١٣) من الكتاب المطبوع.

٢ ـ جاء في ص ٢٢ في باب لام التعريف ما نصُّه: " وقد تدخل لضرب بالشبه من التعريف... " فعلق الاستاذ النفّاح على ذلك بقوله: " وليس للعبارة على هذه الصورة معنى يُعْقَل إنما هو من صنع الناسخ ".

٣ ـ ومن أشكال التصحيف التي غفل عنها المحقق أنه قرأ كلمة (الأسماء) (الأشياء) وهو خطأ بيِّن فاضح، فقد وردت العبارة التالية هكذا: " لأنَّ التنكير يخفف الأشياء ويمكنها... " فقال الاستاذ النفّاخ: " والصواب الذي لايقوم المعنى إلاّ به: (الأسماء).

٤ ـ ومن أمثلة أخطاء الضبط التي وقعت في المطبوع، أن المبارك ضبط (ضربت) في بيت الأسود بن يعفر التالي بالفتح:

ومن البليّةِ لا أبا لكَ أنني ضَرَبَتْ عليَّ الأرضُ بالأسدادِ

والصواب ضم الضاد في (ضربت).

ومنها أيضاً أنه ضبط بيت امرئ القيس التالي كما يلي:

لَيومٌ بذاتِ الطَّلحِ عندَ مُحجَّرِ أحبُّ إلينا من ليالٍ على وَقْرِ

فعلّق الأستاذ النفّاخ بقوله: " فإنه ما كان يجدر بالناشر أن يضبط الراء من (وقر) بالكسر وقد رأى في الديوان أن القصيدة مُقيَّدة الروي - (الديوان ص ١٠٩)، والحقُّ أن رواية البيت في الديوان هي كما يلي: « ليالٍ بذاتِ... على أُقُرْ ».

هذا وقد بلغت استدراكات النفّاخ وتصويباته لهذه الطبعة ما يقرب من ثلث الكتاب. وقد تداركها الدكتور المبارك في طبعته الثانية للكتاب التي صدرت عن دار الفكر بدمشق سنة ١٤٠٥ / ١٩٨٥ م.

ويقع الباحث في كتاب الدكتور رمضان عبد التواب (مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين) الصادر في القاهرة عام ١٤٠٦ / ١٩٨٦ على ثماني مقالات دبجت في مراجعة كتب تراثية محققة، وفي تصحيحها وتصويبها، وهي تدور حول: كتاب المزهر للسيوطي، بتحقيق محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، وحول لحن العوام لأبي بكر الزبيدي، بتحقيق الدكتور عبد العزيز مطر، ورسائل في اللغة بتحقيق إبراهيم السامرَّائي، وهي أربع رسائل الأولى « خلق الإنسان » لأبي اسحق الزجاج، والثانية " القول في ألفاظ الشمول والعموم والفصل بينها " لأبي علي المرزوقي، والثالثة: " ما يذكر ويؤنث من الإنسان واللباس " لأبي موسى الحامض، والرابعة: مقتطفات من كتاب المسائل والأجوبة، لابن السيد البطليوسي. والمقال الرابع هو حول كتاب نور القبس من المقتبس للمرزباني، تحقيق المستشرق الألماني (رودلف زولهايم)، والمقال الخامس كتاب العين، بل الجزء الأول منه، بتحقيق عبد الله الدرويش. والسادس حول رسائل في اللغة والنحو، وهي ثلاث رسائل تضمُّ كتاب تمام فصيح الكلام لابن فارس، وكتاب الحدود في النحو للرماني، وكتاب منازل الحروف للرماني كذلك، وقد حققها الدكتوران مصطفى

جواد ويوسف يعقوب مسكوني. والمقال السابع كان حول شعر عمرو بن أحمر الباهلي، بتحقيق حسين عطوان (طبع بمجمع اللغة العربية بدمشق). والثامن والأخير كان حول كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة، للقزاز القيرواني، بطبعتيه اللتين كانتا: الأولى بتحقيق المنجي الكعبي، وصدرت بتونس ١٩٧١، والثانية بتحقيق محمد زغلول سلام ومحمد مصطفى هدّارة، صدرت في القاهرة .

ومن الأمثلة على ما تقدم، ما سجله الدكتور عبد التوّاب حول كتاب المزهر للسيوطي في طبعته المذكورة سابقاً، ويتلخص فيما يلي:

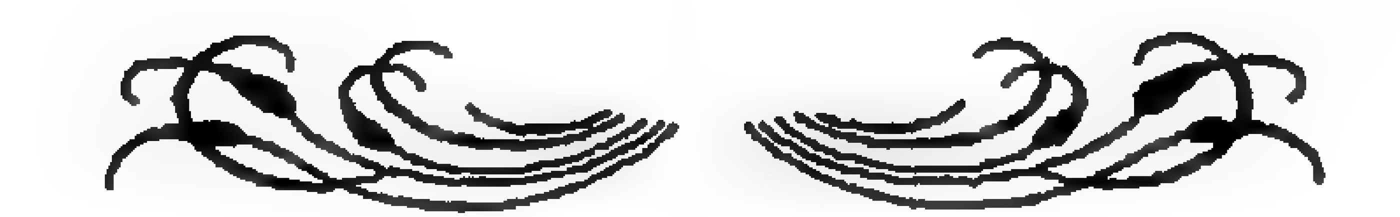
- الإخلال بواجب العودة إلى جميع مخطوطات الكتاب قبل نشره وهي كثيرة.
- الوقوع في بدعة إضافة نصوص إلى أصل الكتاب لم يسجلها فيه السيوطي.
- عدم ضبط العبارات المنقولة عن « الغريب المصنف ». وإحدى مخطوطات «الغريب المصنف » موجودة بين أيديهم.
- الخطأ في ضبط بعض العبارات فيه.
- الرجوع إلى مصادر ثانوية، في تصحيح بعض العبارات.
- إقرار التحريف وتخطئة المصادر الصحيحة.
- الأخطاء المطبعية.
- الخلل الواسع الكثير في الفهارس المصنوعة في ختام هذه الطبعة.

والخلاصة أن هذا باب من العلم لا تنفع فيه عجرفة أو جاهلية، أو (أنا) مُتنفِّجة حمقاء، لأنّ أحداً يكاد لا يعرى منه. وقد صدق القول القائل: " وفوق كل ذي علم عليم ".

وينبغي لنا أن نحتاط فنقول: إنّ ما سبقت الإشارة إليه لا يسوِّغ لنا أن نعلي شأن المتابعة على شأن المبادرة، ولا أن نرفع أمر التعقب على أمر المبادأة في العمل والاجتهاد. وقد جمل قول الشاعر القديم " كفى المرء نبلاً أن تُعدَّ معايبه ". ومن المسلم به أن للمجتهد الأول أجرين: واحداً إذا عمل وأخطأ، وثانياً: إذا عمل وأصاب.

بيد أن هذا الظاهرة التي وقفنا عندها بإيجاز، ولم نستوفها، تبقى ظاهرة صحية وسليمة وُجدت في مصنفات أسلافنا، ولا بد لنا من أن نستلهمها في أعمالنا المعاصرة، على أن لا نبخس الناس أشياءهم، وألاّ نتعنّتَ عند سماع كلمة الحق وصوت الصواب.

والذي يبدو لي أخيراً أننا، بوصفنا أفراداً، كما لا نملك الحقيقة وحدنا في الفكر والاعتقاد، كذلك لا نملك الصواب وحدنا في العمل والاجتهاد. فلا مناص إذاً من التحلي بروح الورع والتواضع، والتجمل في قول الحق، والإذعان للصواب، والإيمان بمبدأ التعاون الصادق في القول والفعل، للوصول إلى الشأو المرتجى والغاية المنشودة.



مسرد الكتب التي قام عليها كتاب أو اسْتُدْرِك عليها أو تُعقّبت أو صُحّحت مما أشير إليه هنا:

١ ـ القرآن الكريم (تآليف حوله).

٢ ـ الكتاب، لسيبويه (متابعات وتصحيحات).

٣ ـ إصلاح المنطق، لابن السكيت (متابعات وتعقبات).

٤ ـ معجم العين، للخليل أحمد الفراهيدي (متابعات وتعقبات).

٥ ـ الصحاح، للجوهري (متابعات وتصحيحات).

٦ ـ القاموس المحيط، للفيروز أبادي (متابعات وتعقبات).

٧ ـ المعلقات (شروح).

٨ ـ المفضليات (شروح).

٩ ـ ديوان المتنبي (شروح).

١٠ـ سرقات المتنبي ومُشْكِل معانيه المنسوب خطأً إلى ابن بسام النحوي (تصحيح نسبة الكتاب).

١١ـ الأمالي، للقالي (متابعات وتعقبات).

١٢ـ تاريخ الطبري (متابعات).

١٣ـ تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر (متابعات واختصارات).

١٤ـ وفيات الأعيان، لابن خلكان (متابعات).

١٥ـ طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى (متابعات وذيول).

١٦ـ كتاب أغلاطي، المنسوب خطأً إلى صفيٍّ الدين الحلي (تصحيح النسبة).

١٧ـ الأضداد، المنسوب خطأً إلى الأصمعي (تصحيح النسبة).

١٨ـ الإبدال والمعاقبة والنظائر، للزجاجي (تصحيح العنوان).

١٩ ـ النوادر في العربية، المنسوب إلى أبي هلال العسكري (تصحيح العنوان والمؤلف).

٢٠ ـ الأشباه والنظائر، المنسوب إلى الثعالبي خطأً (تصحيح نسبته إلى ابن الخريري).

٢١ – منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر، المنسوب إلى الثعالبي.

٢٢ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه (تصحيحات وتعقبات لأخبار دُسَّت فيه).

٢٣ ـ تصحيحات مختلفة لروايات للشعر مغلوطة، وقع فيها الأصمعي، وأبو زيد، وثعلب وآخرون من خلال كتاب الخصائص، والتكملة والذيل والصلة للصغاني.

٢٤ ـ كتاب خريدة القصر وجريدة العصر (تحقيق شكري فيصل) (ملاحظات وتعقبات).

٢٥ – أخبار البحتري، للصولي (ملاحظات وتعقبات).

٢٦ – ديوان ابن أبي حصينة (ملاحظات وتعقبات).

٢٧ – تعريف القدماء بأبي العلاء (ملاحظات وتعقبات).

٢٨ – ديوان ابن الساعاتي (ملاحظات وتعقبات).

٢٩ ـ ديوان ابن الرومي تحقيق حسين نصار (ملاحظات وتعقبات).

٣٠ ـ اللاّمات، للزجاجي، تحقيق مازن المبارك (ملاحظات وتعقبات).

٣١ – المزهر، للسيوطي.

٣٢ – لحن العوام، للزبيدي.

٣٣ – أربع رسائل في خلق الإنسان، للزجاج، والمرزوقي، وأبي موسى الحامض، وابن السيد البطليوسي (ملاحظات وتصويبات).

٣٤ – كتاب العين (الجزء الأول).

٣٥ – رسائل في اللغة والنحو، وهي ثلاث: كتاب تمام فصيح الكلام، لابن فارس، والحدود في النحو ومنازل الحروف وكلتاهما للرماني (ملاحظات وتصويبات).

٣٦ – شعر عمرو بن أحمر الباهلي، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق (ملاحظات وتصويبات).

٣٧ – ما يجوز للشاعر في الضرورة، للقزاز القيرواني (ملاحظات وتصويبات).

التصنيف بالشعر في التراث العربي

نقصد بالتصنيف بالشعر عند العرب نَظْمَ الكتاب أو المصنّف شعراً، سواء كان هذا الكتاب لغوياً أو نحوياً، أو صرفياً، أو عروضياً، أو بلاغياً، أو أدبياً قصصياً، أو فقهياً، أو زراعياً، أو ملاحياً، أو فلكياً، أو رياضياً، أو كيميائياً، أو طبياً، أو تاريخياً....

والحقيقة أننا سنُعاين فيما يلي من هذا الدراسة آثاراً شعرية تتصل بكل علم من العلوم السابقة. وربما نذكر نتفاً من الأشعار التي كانت قوام كل مؤلَّف أو مصنَّف، للتدليل والتمثيل.

وقد كان العرب، وما زالوا، أُمَّةَ الشعر، والشعر كان، منذ الجاهلية، ينثال على كل لسان أو يكاد ! وكانت العرب تعلي شأن الشاعر أيّما إعلاء، فقبائلهم حين ينبغ فيها شاعر " تأتي القبائل لتهنئتها، وتصنع الأطعمة، وتجمع النساء ليلعبن في المزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم، وتخليدٌ لمآثرهم، وإشادة بذكرهم " (العمدة ١: ٦٥).

إن الروح الشعرية الطاغية قد ضربت جذورها في أعماق النفس العربية، ثم سرت في دماء العرب عامة، فآلت بالشعر إلى أن يحتلَّ مكانةً سامية في النفوس والعقول معاً، حتى إن بعض المصنّفين والعاملين في ميدان التأليف والبحث لم يتردد في التباهي بموهبته الشعرية، فسخّرها للتأليف والتصنيف، وراح ينظم بعض معارفه شعراً، وخاصة تلك التي برع فيها وتعمّقها وأحصاها، وذلكِ تغليباً لرونق النظم وظله الخفيف، على جفاف النثر وظله الثقيل، ورغبة في تسهيل حفظ ما يُرى نفع في حفظه، فرواية الشعر المضطرب الوزن، تذكر القارئ أو السامع، بأن خللاً فيه قد وقع، فيتدارك ما اختل، ويتذكر ما سقط، ويصحح ما جاء فاسداً... فتأتي المعلومة صحيحة وكاملة ومضبوطة.

والأمثلة على ما تقدم كثيرة، بل وكثيرة جداً. ففي ميدان اللغة، وهو ميدان صال فيه العرب وجالوا، واستأثر بالجم من جهودهم الفكرية، نقع على منظومة في " غريب اللغة وشرحه " لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (٣٢٨هـ) عنوانها " قصيدة في مشكل اللغة " نشرها الأستاذ عز الدين البدوي النجار في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٦٤، ج ٤، عام ١٩٨٩ م)، وقد افتتح أبو بكر الأنباري قصيدته بقوله:

يا مُدَّعِي عِلْمَ الغريبِ والقريضِ والمَثَلْ
نَمِّقْ جوابي: ما القزيحُ والشَّقِيحُ والأَلَلْ

ويجيب الأنباري نفسه عن سؤاله شارحاً: " قال أبو عبيدة: القريض: هو القصيدة من الشعر خاصة دون الرجز. والقزيح فيه قولان. قال أبو بكر: القزيح: المليح. تقول العرب: مليحٌ قزيحٌ. وقال آخرون: القزيح: العجيب. قال أبو بكر: والشَّقيح: القبيح، يقال قبيحٌ شقيحٌ. والأَلل: قال أبو عمرو: البَرْق ". ثم يضيف الأنباري في قصيدته:

وما العِمارُ والعَمارُ والخَبارُ والسَّفَلْ ؟

ويمضي شارحاً بعده الكلمات التي ساقها في البيت، معتمداً في ذلك على أئمة اللغة، كصنيعه في البيتين السابقين.

ولم تكن قصيدة أبي محمد بن القاسم الأنباري فريدة في بابها، فقد ذكر ابن النديم في « الفهرست » تحت عنوان: (القصائد التي قيلت في الغريب): " قصيدة الشرقي بن القطامي " و " قصيدة موسى بن حرنيد " و " قصيدة يحيى بن نجيم " و " قصيدة الأبراري " و " قصيدة شبل بن عزرة " و " قصيدة أحمد الأنباري " (الفهرست ص ١٩٦).

وفي كُتُب فهارس المخطوطات نطالع إشارات إلى مخطوطات شرحت قصائد في اللغة، مثل: " شرح مثلث قطرب " (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) لمجهول، ومثل شرح منظومة

ثعلب المسمى " الموطأ في اللغة " وقد نهض به عبد الوهاب بن الحسن بن بركات المهلبي (٦٨٥ هـ) وأولها بعد البسملة:

يـــا مُوْلَعـــاً بـــالغضبِ والهجـــر والتجنّـــبِ
حُبُّـك قـد بـرّح بـي في جـــدّه واللعـــبِ

(انظر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، علوم اللغة العربية ص ٩٧، ٩٨).

وذكرت كتب التراث أيضاً أن لابن مالك النحوي الطائي (٦٧٢هـ) أرجوزة في ثلاثة آلاف بيت بعنوان (الإعلام بمثالث الكلام). وفيها ذكر الألفاظ التي لكل منها ثلاثة معان باختلاف حركاتها (انظر مقال رزوق فرج رزوق: "الشعراء التعليميون والمنظومات التعليمية " في مجلة المورد العراقية مج ١٩، ع ١، ص ٢١٦).

وفي ميدان النحو الذي حظي هو الآخر بحفاوة بالغة من ذوي الهم العلمي عند العرب، نطالع لجمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الأندلسي، وهو من أعظم نحاة القرن السابع شهرة، وقد ذكرناه من قبل، نطالع قواعد النحو العربي وقد نُظمت في ألف بيت. وعرف هذا العمل فيما بعد بـ " ألفية ابن مالك ". وكانت هذه الألفية خلاصة نحوية مركزة ظفرت بشرح أكثر مِنْ أربعين عالماً. وفي هذه الألفية يقول ابن مالك في باب الكلام ومايتألف منه مثلاً:

كلامنـا لَفْـظٌ مفيـدٌ فاسـتقمْ واسمٌ وفعلٌ ثـم حـرف الكلـمْ

ونقرأ له في باب (المبتدأ والخبر) قوله:

مبتـدأ زيـدٌ، وعـاذرٌ خـبرْ إن قُلتَ: زيد عاذرٌ مَنِ اعْتَذَرْ

وكذلك نراه يجمع (إنَّ) وأخواتها وعملها، الذي يخالف عمل (كان) وأخواتها، في قوله:

لأنَّ إنَّ ليـــتَ لكـــنَّ لعـــلْ   كأنَّ، عكسُ ما لـ (كان) مِنْ عمـلْ

ومن الكتب النحوية المهمة التي نُظمت شعراً " الآجرُّومية " وهـي مقدمـة في النحـو ألفها أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود بـن آجـرّوم الصنهـاجي (٧٢٣هـ). وكـان فقيهـاً ونحوياً ولغوياً ومقرئاً وشاعراً. ولم يكن من أهل (فاس) في وقتـه أعلـم منه في النحـو. وقـد نظم " الآجرّومية " ميمون الفخار، والعربي الفاسي، ومحمد نووي. واسم كتاب النووي هذا " النفحة المسكية في نظم الآجرّومية "، وشرف الدين يحيى بن موسى العمريطي (٩٨٩هـ) الذي سمَّى كتابه " الدرَّة البهية في نظم الآجرومية "، وهو مطبوع ضمن مجموعة من المتون بما في ذلك الآجرّومية ذاتها، بعناية أحمد سعيد علي، بالقاهرة عام ١٩٤٩ م.

ونظم " الآجرّومية " أيضاً عبد الله بن الحاج الشنقيطي (١٢٠٩هـ). وللشـنقيطي هذا مؤلفات عدة، أغلبها منظوم، منها مثلاً: نَظْم كتاب مختصر الخليـل، ونظـم الخزرجيـة في العروض، ونظم رسالة ابن أبي زيد القيرواني. ومن أمثلة نظم الشنقيطي للآجرّومية قوله:

قـــال عُبَيْـــدُ ربِّـــه محمَّـــدُ   الله في كـــلِّ الأمـــور أحمـــدُ
مُصليّـــاً علـــى الرسـولِ المنتقـــى   وآلـــه وصحبـــه ذوي التُقـــى
والبعـد والقصـد بـذا المنظـومِ   تســهيل منشـور ابـن آجـرّومِ

وفي باب الاعراب يقول:

الاعـراب تغيـيرُ أواخـرِ الكَلِـمْ   تقديراً أو لفظاً فـذا الحدّ اغتنـمْ
وذلـــك التغيـــيرُ لاضطـــرابِ   عوامـــل تدخـــل للاعـــرابِ
أقســـامه أربعـــــةٌ تُـــــؤَمُّ   رفعٌ ونصـبٌ ثُـمَّ خفـضٌ جَـزْمُ
فـــالأوّلان دون رَيْـــبٍ وقعـــا   في الاسم والفعل المضـارع معـا
فالاسـم قـد خُصِّصَ بـالجرّ كمـا   قـد خُصِّص الفعل بجزْمٍ فاعلمـا

(انظر مقال الأستاذ خليفة بديري: نظم متن الآجرّومية، في مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس العدد ٦ ص ٢٦٢ فما بعدها).

وكذلك نظم السيوطي (٩١١هـ) ألفية في النحو سماها (الفريدة) . وهي مطبوعة. ولها شرح بعنوان " المطالع السعيدة في شرح الفريدة ".

وإذا تركنا النحو، وانتقلنا إلى علم الصرف، وهو علم يهتم ببنية الكلمة العربية وبأوزانها ومجردها ومزيدها، وإبدالها وإعلالها، وجامدها ومشتقها، وقعنا على أمثلة كثيرة من نظم (الصرف)، منها مثلاً " قصيدة أبنية الأفعال " التي نظمها ابن مالك صاحب الألفية النحوية المشار إليها سابقاً. وهذه القصيدة التي تسمى أيضاً بلامية الأفعال، شرحها ابن الناظم ذاته، واسمه بدر الدين محمد بن محمد (٦٨٦هـ). وقد جاءت القصيدة على البحر البسيط، وتقع في (١١٤) بيتاً. ونشر شرح الابن عليها الدكتور ناصر حسين علي بدمشق عام ١٩٩٢ بعنوان " زبدة الأقوال في شرح قصيدة أبنية الأفعال ".

وإذا طالعنا كتاب (فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق ـ علوم اللغة العربية) نقع على منظومة صرفية أخرى بعنوان " الترصيف في التصريف " نظمها عبد الرحمن بن عيسى العمري المرشدي المكي (١٠٣٧هـ) وأولها:

أفضلُ ما إليه تصريفُ الهِمَمْ ... بحُسنِ حمدِ اللهِ وهَّابِ النِّعَمْ

وتقع هذه المخطوطة في (١٢) ورقة ورقمها ١٠٨٥٩ (انظر فهرس مخطوطات الظاهرية ـ علوم اللغة العربية ص ٤٥٧).

وقد ألّف ناصيف اليازجي اللبناني المعاصر كتاباً سَمَّاه " الجمانة في شرح الخزانة ". وهذا الكتاب هو أرجوزة في علم الصرف أسماها (الخزانة)، ثم علّق عليها شرحاً لها سمّاه " الجمانة ". وطبع هذا الكتاب في بيروت سنة ١٨٧٢ م. يقول ناصيف اليازجي في فاتحة كتابه مثلاً:

أقول بعدَ حمدِ ربٍّ محسنِ ... لا علمَ لي إلاّ الذي علمَّني

قــد اصطنعــتُ هــذه الخزانــه حاويــةً مــن شــرحها الجمانــه
جعلتها في الصرف مثل القطـبِ فقلــتُ وا لله الكريــم حســبي

ثم قال:

الصرفُ عِلْـم ٌ بـأصولٍ تُعـرفُ بهــا مبــاني كلــمٍ تُصَــرَّفُ
والأحرفُ الـتي ابتُني منها الكلـم إلى صحيــح وعليــلٍ تنقســمْ
وأحــرف العِلَّــة واو وألِــف واليـاء والبـاقي بصحّـةٍ وُصِـفْ
وتشـرك الهمـزة حـرف العلّـه فتلــك بــينَ بــينَ في المحلّــه

وفي مجال علوم اللغة العربية الأخـرى كالبلاغـة وفروعهـا، كعلـم المعـاني، والبيـان، والبديع، يمكن للمرء أن يشير إلى جهود ابن الشحنة (٨١٥هـ) واسمه أبو الوليد محب الديـن محمد بن محمد بن أيوب الحلبي الذي ألف منظومة في علم المعاني والبيان البديـع، وقـد شـرح هذه المنظومة محمد بن تقي الدين أبو بكر الحموي الدمشقي المحبي (١٠١٠هـ). ومـن هـذا الشرح نسخة مخطوطة تقع في (٦٨) ورقة في دار الكتب الظاهرية (انظر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ـ علوم اللغة ص ٣١٩ ـ ٣٢٠).

وكذلك ألف السيوطي (٩١١هـ) قصيدة أسماها " عقود الجمان " وهي في عِلْمَـي المعاني والبيان، وقد شرحها بنفسه. ومن هذا الشرح نسخة بين مخطوطات الظاهريـة (انظـر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ـ علوم اللغة ص ٣١٦).

كما يمكن المرء أن يشير في مجال البديع وحده إلى منظومة للشيخ الامـام زيـن الديـن يحيى بن معطي المغربي الزواوي (٦٢٨هـ) جمع فيها شواهد البديع من أشـعار المـبرزين مـن الشعراء، وذلك بأن حدّد نوع البديع، ثم أعطى الشاهد عليه، وأولها بعد البسملة:

يقـول ابنُ معطٍ قُلتُ لا مُتعاطيـا مقالَةَ من يرجـو الرِّضـى والتّعاطيـا

ومن هذه المنظومة نسخة في دار الكتب الظاهرية تقع في ٩ ورقات، ضمن مجموع عدد أوراقه ٢٧ ورقة (انظر الفهرس المذكور سابقاً ص ٢٠٨).

وفي مجال العروض مرَّ بنا ذكر نظم الشنقيطي للخزرجية في العروض قبل قليل. ونطالع في فهارس المخطوطات آثاراً أخرى في هذا الفن، منها منظومة في العروض لمحمد بن الحسن الحسيني الشافعي الهروي (٦٧٦هـ) وأولها بعد البسملة:

أحمدُ مَنْ صلّى على محمَّدِ وآله نجومِ كلِّ مُهْتَدِ

وهي من مخطوطات الظاهرية، وقد كتبها ناظمها نفسه. وتقع في أربع ورقات ـ (انظر فهرس مخطوطات الظاهرية ـ علوم اللغة ص ٤٤٠).

وأشار صاحب " معجم المؤلفين " إلى أن إبراهيم بن عبد الله بن جمعان اليمني الزبيدي (١٠٨٣هـ) قد ألّف مقطوعة في العروض سماها (آية الحائر) ـ (انظر معجم المؤلفين ١: ٥). وبين مخطوطات الظاهرية مخطوطة بعنوان " هالة العروض " وهي أرجوزة نظمها محمد صالح بن أحمد بن سعيد المنير الدمشقي (١٣٢١هـ). قدَّمَ بها لعلم العروض وتناول فيها الزحافات والعلل والأبحر والدوائر العروضية، وختمها بألقاب الأبيات، أتم نظمها في (الآستانة) في شعبان سنة ١٢٩٩ هـ وأولها بعد البسملة:

يقول صالح بن أحمد السري القدوةُ المشهورُ بالمُنيرِ

وهي نسخة بخط ناظمها، وتقع في (٨) ورقات (انظر فهرس علوم اللغة المذكور ص ٤٤٢).

وفي ميدان الأدب القصصي جرّب (أبان بن حميد اللاحقي)، وهو شاعر إسلامي من أهل البصرة، جرّب قدرته على النظم في صياغة كتاب كليلة ودمنة شعراً. وقد استغرق نظمه لهذا الكتاب ثلاثة أشهر. وبلغت أشعاره (١٤) ألف بيت، وقدمه إلى يحيى بن خالد البرمكي، فكافأه هذا بعشرة آلاف دينار.

ونجد في كتاب (الأوراق) للصولي (٣٣٥هـ) من هذا النظم ما يربو على (٨٠) بيتاً. وأول ذاك النظم قول أبان اللاحقي:

هـذا كتـابُ أدبٍ ومحنـةْ ... وهو الذي يُدعى كليلة ودِمْنةْ
فيه احتيالاتٌ وفيه رشدُ ... وهو كتابٌ وضَعَته الهندُ

ومن نظمه مثلاً في باب الأسد والثور من كتاب كليلة ودمنة:

وإنّ مَنْ كانَ دنيَّ النفسِ ... يرضى مِنَ الأرفعِ بالأخسّ
كمثل الكلبِ الشقيِّ البائسِ ... يفرح بالعَظْمِ العتيقِ اليابسِ
وإن أهلِ الفضلِ لا يرضيهمُ ... شيء إذا ما كان لا يرضيهمُ

وذكر الصولي أيضاً أنّ " أباناً " هو الذي عمل القصيدة (ذات الحُلَل)، وفيها ذكر مبتدأ الخلق وأمر الدنيا وأشياء من المنطق، وغير ذلك، وهي قصيدة مشهورة. ومن الناس من ينسبها إلى أبي العتاهية، والصحيح أنها لأبان ـ (انظر كتاب الأوراق للصولي، تحقيق ج. هيورث، بيروت، ط٢ / ١٩٧٩، ص ١ و ص ٤٦ - ٤٨).

وقد نظم كلية ودمنة أيضاً ابن الهَبَّارية (٥٠٤ هـ) وهو الذي نظم أيضاً كتاب (الصادح والباغم). ومن ناظمي كتاب الفيلسوف الهندي، محمد الجلال، وعبد المنعم بن حسن، وعلي بن داود كاتب زبيدة ـ زوج الرشيد، وجلال الدين النقاش من القرن التاسع الهجري.

وفي مجال الفقه الاسلامي نظم محمد بن علي الرحبي (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) أرجوزة في أحكام الإرْث الاسلامي، وعرف كتابه بمتن الرحبية نسبةً إليه. وقد شرح هذا المتن كثيرون من العلماء، منهم: أبو بكر أحمد السبتي، وجلال الدين السيوطي، وعبد القادر الفيومي، ومحمد بن صالح الغزي، ومحمد بن محمد المارديني، وشرح هذا الأخير مطبوع. وكذلك شرح الرَّحبيَّة محمد بن خليل بن حمليون وسمى شرحه: (تحفة الاخوان البهية على

المقدمة الرحبية). وقد حقق هذا الشرح الأستاذ السائح علي حسين، وطبعه في طرابلس بليبيا عام ١٩٩٠ م، تحت عنوان (التحفة في علم المواريث). وفي أسباب الميراث نقرأ قول الرحبي (التحفة في علم المواريث ص ٨٥):

أسبابُ ميراثِ الورى ثلاثةْ   كلٌّ يفيد ربَّهُ الوراثةْ
وهي نكاحٌ وولاءٌ ونَسَبْ   ما بعدهنَّ للمواريثِ سَبَبْ

ويقول في موانع الإرْث (التحفة ص ٨٩):

ويمنع الشخصَ من الميراثِ   واحدةٌ من عِللٍ ثلاثِ
رقٌّ وقتلٌ واختلافُ دينِ   فافهمْ، فليس الشكُّ كاليقينِ

ويقول في باب أصحاب الثُمُن (التحفة ص ١٠٢):

والثُمْنُ للزوجةِ والزوجاتِ   مع البنين أو مع البناتِ
أو مع أولاد البنين فاعلمِ   ولا تظنَّ الجمعَ شرطاً فافهمِ

ومن الكتب القريبة من الفقه والشرع وصلتنا كتب تعالج قضية الإمامة في الاسلام منذ وفاة الرسول ﷺ إلى عصر كاتبها. ومن تلك الكتب كتاب بعنوان (الارجوزة المختارة) للقاضي النعمان (٣٦٣هـ). وقد حققها إسماعيل قربان حسين، ونشرها ضمن منشورات معهد الدراسات الاسلامية في (مونتريال) بكندا. وهذه الأرجوزة تلقي ضوءاً على موقف الفرق المختلفة من قضية الإمامة، والأدلة التي قدَّمَتْها كل فرقة، وتعد هذه الأرجوزة، التي أُلّفت في أيام الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله، من أقدم النصوص الفاطمية في الإمامة، وفي مطلعها يقول الناظم مثلاً:

الحمدُ لله بديعِ ما خَلَقْ   عن غير تمثيلٍ على شيء سبقْ
بل سَبَقَ الأشياءَ فابتداها   خلقاً كما أراد إذ بَراها

ومن كتب الفرق المنظومة شعراً " القصيدة الصورية " التي ألّفها الداعي الإسماعيلي الأجل محمد بن علي بن حسن الصوري، وحقّقها عارف تامر، ونشرها في نطاق منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق عام ١٩٥٥م. وهي كما قال ناشرها:

" أقدم المصادر عن الإسماعيلية، ومن أهم الرسائل التي تنطق بالحقائق، وتمثل العقائد أصدق تمثيل، ومن أحسن المراجع في تاريخ قصص الأنبياء وعدد الأئمة المنحدرين من الإمام علي بن أبي طالب حتى الإمام المنتصر با لله الفاطمي.. ولذلك كانت تتناقلها الدعاة ويحافظون على سريتها وعدم تسربها، وليس بالغريب إذا قلت إن أكثرهم كان يحفظها غيباً بالنظر لاعتمادهم على بيانها الرائع وأصولها وفروعها، ومتانة أسلوبها وترتيبها ".

ومؤلّف هذه القصيدة هو محمد بن علي بن حسن، كانت مدينة (صور) مسقط رأسه، لذا نُسِبَ إليها، وقد عاش ردحاً في طرابلس داعية للفاطميين، وقام بالرحلة في طلب العلم والحديث. وقيل إنه سمع بالكوفة من أربعمئة شيخ، وهبط القاهرة في عهد الامام المستنصر با لله الفاطمي. واستوطن بغداد سنة ٤١٨هـ، وقد توفي فيها سنة ٤٤١هـ.

والحقيقة أن هذه الأرجوزة الإسماعيلية ليست الوحيدة في تراثنا. فقد شاعت الأراجيز في العهود الفاطمية، واستعملت للدعاية وللتعبير عن الموضوعات الفلسفية والتعاليم العقائدية ـ (انظر ص ١٧ من القصيدة الصورية)، ولكي نعرف طريقة هذه المنظومات نسوق هنا مطلع القصيدة الصورية، وهي في باب القول بالحمد والاستفتاح (ص ٢٣)

الحمدُ لله مُعِلّ العللِ	ومبدعِ العقلِ القديمِ الأزلِ
أبدعَهُ بأمرهِ العظيمِ	بلا مثالٍ كانَ في القديمِ
وصيَّرَ الأشياءَ في هويتهْ	مجموعةً بأسرها في قدرتهْ
فهو لها أصلٌ كريمٌ يجمعُ	فمنه تبدو وإليه ترجعُ
سبحانه منْ مِلكٍ ديَّانْ	العقلُ والنفسُ له عبدانْ
جلَّ عن الإدراكِ في الضمائرِ	والوصفِ بالأعراضِ والجواهرِ

وفي مجال الفلاحة، نقرأ لسعد بن أحمد بن ليون التجيبي (٧٥٠هـ) أرجوزة تشمل (١٣٠٠) بيت. نشرها في غرناطة، عام ١٩٧٥ (جواكينا أجوارس أبانيث).

وقد كان ابن ليون التجيبي عالماً موسوعياً له ولعٌ باختصار الكتب، وتتلمذ على يديه في (المرية) من أعلام الأندلس ابن خاتمة الأنصاري، ولسان الدين بن الخطيب، وابن جعفر بن الزبير، وابن رشيد الفهري. وسمى (ابن ليون) أرجوزته " كتاب إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة ". وقد عدد المؤلف في كتابه هذا أركان الفلاحة شعراً، فكانت حسب قوله:

وهْيَ الأراضي والمياهُ والزبولْ — والعمل الذي بيانه يطولْ

ونراه يشير إلى الأرض ومايحفظها أو يفسدها، فيقول مرتجزاً:

الفولُ والترمس والكتّانْ — تحفظ الأرض وكذا الجلبانْ
والدخنُ مضعف لها والجُلْجُلانْ — ومايكرَّر بها كل زمانْ
وورق الحمّص والكرسنّةِ — مفسدةٌ للأرض بالملوحةِ

ونجده يشير في موضع آخر إلى أعمار الثمار والنبات في نظره، فيقول معتمداً على أقوال (ابن بصّال) و (الطغنري)، وهما عالمان في الزراعة أيضاً:

وَعُمْرُ الزيتونِ من عَدّ السنينْ — ثلاثةُ الآلافِ حيْنٌ بعد حينْ
وفي الصنوبر عن ابنِ بصّال — بمئتي عامٍ يقول استكمال
والطّغْنريُّ قال: مالايسقطُ — ورقهُ، أعمرُ مما يسقطُ
أكثرُ الثمارِ يبلغ المائه — أو، نحوها، وقد تزيد تبقيهْ
وكل مافي النشء منها يسرعُ — فعمرهُ أقصر لايتّسعُ

(انظر مقال أمين توفيق الطيبي في مجلة كلية الدعوة الأسلامية، طرابلس: كتب الفلاحة الأندلسية-ارجوزة ابن ليون في الفلاحة العدد ٦ ص ٣٥٤ فما بعدها).

وفي مجال الملاحة يقع الباحث على أراجيز كثيرة، فيطالع لابـن مـاجد (المتوفى بعد ٩٠٤هـ) الملقب بأسد البحر الذي أرشد قائد الأسطول البرتغالي (فاسكو داغاما) في رحلته لاستكشاف طريق الهند من خلال رأس الرجاء الصالح، أرجوزةً، اسمها " حاوية الاختصار في أصول علـم البحـار ". وقـد نشـر هـذه الأرجـوزة الأستاذ إبراهيـم خـوري بدمشـق ضمـن منشورات المعهد العلمي الفرنسي. يقول ابن ماجد في تقديم أرجوزته:

يـا أيُّهـا الطـالبُ علـمَ اليـمِّ	إليـك نظمـاً يـا لـه مـن نظـمِ
في العلـمِ والهيئـةِ والحسـابِ	ومـا هـو اسـتنبط للصـوابِ
إنْ كنـت مِمَّـنْ جـدَّ في العلـومِ	وذاكـر الأسـتاذ كـلَّ يـومِ
يغنيـك عـن رَهْمانجـاتِ النـثرِ	هـذا الـذي نظمتُـه بالشـعرِ

وفي ميدان الرياضيات يمكن أن نشير إلى أرجوزة (ابن الياسمين) في الجبر والحساب. وابن الياسمين هو عبد الله بن الحجاج المعروف بابن الياسمين. وهو من أهالي (فـاس). وقـد أفرغ علمه في هذه الأرجوزة الشهيرة، وتوفي ابن اليـاسمين عـام (٦٠٠هـ). وقـد بـدأ ابن الياسمين بوضع تعريف شامل وهام لمجال علم الجبر، فقال:

علـى ثلاثـةٍ يـدور الجـبرُ	المـالُ والأعـداد ثـمَّ الجـذرُ

ثم عرَّف المقصود بالمال في البيت الثاني، فقال:

فالمـال كـلُّ عـددٍ مربَّـعِ	وجـذرُهُ واحـدُ تلـك الأضلـعِ

والعدد عند (ابن الياسمين) هو الشيء، أو العدد المجهول، ومربعه هو الكمـال. وفي بعض أبيات الأرجوزة يقول:

وضـربُ كـلِّ زايـدٍ ونـاقصِ	في مثلـهِ زيـادةٌ للفـاحصِ
وضربُـه في ضـدِّهِ نقصـانُ	فـافهم هـداكَ الملـكُ الديَّـانُ

وقدم الأستاذ بديع الحمصي بحثاً عن ابن الياسمين وأرجوزته هذه في الندوة العلمية الثانية لتاريخ العلوم عند العرب في نيسان عام ١٩٧٩ م. وفي الظاهرية بدمشق سبع نسخ للأرجوزة وشروحها. ويذكر الأستاذ محمود الصغيري أن في (زبيد) باليمن ، تحتفظ المكتبات الخاصة بعشرات النسخ من هذه الأرجوزة.

انظر (قضايا في التراث العربي ـ لمحمود الصغيري، دمشق ١٩٨١ م ص ١٥٥).

وفي ميدان العلوم التطبيقية كالكيمياء والطب والصيدلة حَفِل تراثنا العظيم بأراجيز كثيرة جداً، تناولت المعارف التي تنتمي إلى هذه العلوم. ففي مجال الكيمياء ربما كان ديوان الأمير العالم الشاعر الأموي خالد بن يزيد (٩٠هـ) واسمه " الصنعة "، هو أقدم ما أُلِّف شعراً في علم الكيمياء. وربما أهَّل هذا الديوان صاحبه لأن يوصف بأنه الشاعر التعليمي الأول في التراث العربي. وقد ذكر حاجي خليفة هذا الديوان فقال يصفه:

(فردوس الحكمة في علم الكيمياء لخالد بن يزيد بن معاوية الأمير الحكيم. منظومة في قواف مختلفة وعدد أبياتها ألفان وثلاث مئة وخمسة عشر بيتاً أولها:

الحمدُ لله العليِّ الفردِ ... الواحدِ القهّارِ ربِّ الحَمْدِ
ياطالباً بوريسطسَ الحكماءِ ... خُذْ منطقاً حقّاً بغير خفاءِ

(كشف الظنون ١٢٥٤ - ١٢٥٥)

ويمكن أن نضيف إلى هذا الديوان ديواناً آخر لأبي الحسن علي بن موسى الأنصاري المعروف بابن أرفع رأس (٥٩٣هـ) اسمه " شذور الذهب في صناعة الكيمياء ". هو ديوان شعري مرتب على الحروف، شرحه أيدمر بن علي الجلدكي وسمى الشرح " غاية السرور ". وخمّسه شرف الدين محمد بن موسى القدسي الكاتب (المتوفى سنة ٧١٢هـ) تخميساً حسناً ـ (انظر كشف الظنون ١٠٢٧). وقد أضاف الأستاذ رزوق فرج رزوق أن عدد منظوماته في مخطوطة جامعة برستن بالولايات المتحدة ٤٣ منظومة يبلغ مجموع أبياتها ١٤٨٧ بيتاً .

وعدد منظوماته في مخطوطة كلية الآداب بجامعة بغداد ٤٢ منظومة يبلغ مجموع أبياتها ١٤٣١ بيتاً. (انظر مجلة المورد - بغداد ١٩٩٠ - مج ١٩ العدد الأول ص ٢١٣).

ومن المعروف أيضاً أن الرازي أبا بكر محمد بن زكريا (٣١٣ / ٩٢٥ م) (جالينوس العرب)، وهو من أكابر الكيميائيين والأطباء العرب، نقل (كتاب الآس) لجابر إلى الشعر، وله قصيدة في المنطقيات، وقصيدة في العظة اليونانية (الفهرست ط تجدد - ص ٣٥٩). وله أيضاً أرجوزة في الطب ذكرتها هيا محمد الدوسري في كتابها (فهرس المخطوطات الطبية المصورة - الكويت، ١٩٨٤ ص ٢٧) أولها:

الحمدُ لله الذي برانا	وركّبَ العقول والأذهانا
ومنْ بالسّماع والأبصارِ	يهدي لها من ذا اعتبار

وآخرها:

أما له مُعْتَبَرٌ في نفسه	كيف يصيرُ جسمُه في رمسهِ
بعدَ النعيمِ جيفةً نتينةْ	ونفسه بما جَنَت رهينةْ
حتّى تؤدّيه إلى دارِ البقا	والخلد إما في نعيم أو شقا

وقد نُسِخت هذه الأرجوزة عام ١٠٥٤هـ، وتقع في ٨ ورقات، وهي في (مكتبة جستر بيتي - ٥٢٤٤ مجموع).

ومن المعروف أن للرازي أيضاً كتباً كثيرة منها - عدا الحاوي، والمنصوري، والطب الروحاني - كتاب " بُرْء الساعة " وقد حوّل هذا الكتاب إلى أرجوزة محمد بن إبراهيم بن يوسف الحنبلي (٩٧١هـ) وأعطاها عنوان " الدرر الساطعة في الأدوية القاطعة ". وهي في ١٣٥ بيتاً، وذكر ذلك عمر رضا كحالة في كتابه: (معجم المؤلفين ٨: ٢٢٣).

أما ابن سينا الشيخ الرئيس (٤٢٨هـ) - (أبقراط العرب) وشيخ أطبائهم - فقد ألف كتاب " القانون في الطب " الذي ظل مرجعاً أساسياً لطلبة الطب في الشرق والغرب

حتى أواخر القرن الماضي، ابـن سينا هـذا ارتـأى أن يلخّص المعلومات الطبية الـتي وعاها وخبرها وتمرّس بها في أرجوزة شعرية تسهيلاً لحفظهـا، ولينتفـع بهـا تلامذتـه في كـل مكـان وزمان. لذا أنشأ " أرجوزة في الطب " تقع في ما يزيد على ١٣٠٠ بيت.

وقد أثّرت تلك الأرجوزة كثـيراً في تدريـس الطـب في المشرق العربي وفي المغرب والأندلس. وكـانت عمـدة أسـاتذة الطـب لسـنين طويلـة، وشُرحت كثيراً وعُلّق عليهـا، وعورضت واستدرك عليها. وممن استدرك عليها هارون بن اسحق المعروف بـابن عـزرون، وذلك في أرجوزته في الحميات والأورام، فقد ذكر ابن عزرون أن ابـن رشـد لاحـظ تقصير أرجوزة ابن سينا في ذكر الحميات والأورام ؛ فحفزته تلك الملاحظـة على نظـم أرجـوزة في هذا الباب... وأكمل محمد بن قاسـم بـن محمـد الفاسي (١١٢٠هـ) الأرجـوزة السـينوية بأرجوزة سمّاها " الدرة المكنوزة في تذييل الأرجوزة ". ومما قاله ابن سينا في أرجوزته:

بدأتُ باسمِ الله في النَّظْمِ الحسنْ — أذكـر مـا جرَّبْتُـه طـولَ الزَّمـنْ

وفي مـوضع آخر يقول ابن سينا:

الطِّبُّ حفْظُ صحَّةٍ بُـرْءُ مـرضْ — مـن سببٍ في بـدنٍ عنـه عـرضْ
قِسْـمَتُهُ الأولى لعلْـمٍ وعمـلْ — والعلمُ في ثلاثـةٍ قـد اكتمـلْ
سـبعُ طبيعـاتٍ مـن الأمـورِ — وسـتةٌ وكلُّهـا ضـروري
ثـم ثـلاثٌ سـطِّرت في الكتـبِ — مـن مـرضٍ وعـرضٍ وسـببِ

وقد طبعت أرجوزة ابن سينا. ومنها نسخ مخطوطة كثيرة في الظاهرية (انظر فهـرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية الطب والصيدلة ١ / ٤٥٠).

ولابن سينا ايضاً أرجوزة في التشريح (انظر فهرس مخطوطات الظاهرية- الطـب والصيدلة ٢/٣٤٢). وقد شرح ابـن رشـد (٥٩٥ هـ) منظومـة ابـن سـينا هـذه. ومـن هـذا الشرح نسـخة مخطوطـة في الظاهريـة (فهـرس الطب والصيدلـة ص ٤٤١)، ومنهـا نسـخة

مصورة عن مكتبة جستر بيتي (رقم ٣٩٩٣) في الكويت تقع في ١٣٠ ورقة – (انظر فهرس المخطوطات الطبية المصورة السابق الذكر – ص ١١٥).

وكذلك شرح هذه الأرجوزة محمد بن إسماعيل بن محمد المُتَطَبِّب (ت بعد ٩٨٨هـ). وهو شرح يقع في ١٨٠ ورقة. وعنوانه: التوفيق للطبيب الشقيق. ومنه نسخة بخط المؤلف في دار الكتب الوطنية بتونس (انظر فهرس المخطوطات الطبية المصورة في قسم التراث – الكويت ١٩٤ ص ٦٣). و (فهرس دار الكتب الوطنية تونس ٨/١) و (انظر ٩ أراجيز لابن سينا) ذكرها رزوق فرج رزوق في (مجلة المورد مج ١٩ العدد الاول لعام ١٩٩٠ ص ٢١٠–٢١١).

و نظم أبو عبد الله محمد بن أحمد الدنيسري (٦٨٦ هـ) أرجوزة في نظم مقدمة المعرفة لبقراط، و أرجوزة في الدرياق الفاروقي (انظر فوات الوفيات٢: ٤٤٠) و (هدية العارفين ٢: ١٣٦) . وكذلك نظم داود بن عمر الأنطاكي (١٠٠٨ هـ) ألفيّة في الطب، كما نظم القانون في الطب لابن سينا و شرحه (انظر كشف الظنون ١٣١٣) و (هدية العارفين ١: ٣٦٢). والحقيقة أن المنظومات الطبية كثيرة جداً. و لم نذكر منها إلا غيضاً من فيض . وذلك لأنَّ الاستقصاء هنا ليس غرضنا.

وإذا تركنا الطب و انتقلنا إلى الفلك، نجد أن العرب قد أحرزوا في هذا العلم إنجازات عظيمة، وليس أدلُّ على ذلك من احتواء اللوحة التي وضعها (نيل آرمسترونغ) أول إنسان وطئت قدماه أرض القمر على اسم (البتاني) وهو عالم فلكي سوري من الرقة عاش في القرن الرابع الهجري. وذلك تقديراً لجهود هذا العالم في علم الفلك وإجلالاً لما صنعه في زمانه من زيجات فلكية صحيحة.

ومن المعروف في هذا الباب أن لأبي الحسن علي بن أبي الرجال (بعد ٤٣٢ هـ) أرجوزة في الأحكام الفلكية و هي مطبوعة – (مجلة المورد مج ١٩ ع ١ لعام ١٩٩٠ ص ٢١١).

و نطالع في (كشف الظنون ص ١٣٤٥) ذكر قصيدة في النجوم مزدوجة طويلة ألّفها أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الغراوي. وكذلك ذكر د. رزوق فرج رزوق أنَّ محمد بن

إبراهيم بن محمد الأوسي المعروف بابن رقام (٧١٥ هـ) له منظومة في العمل بالإسطرلاب - (انظر بجلة المورد مـج ٢ ع ١ ص ٢١٨). ومن المعروف أن الإسطرلاب آلة فلكية. كذلك لعبد الواحد بن محمد بن محمد المشهدي (٨٣٨ هـ) منظومة في الإسطرلاب (انظر هدية العارفين ١:٦٣٢).

وفي (كشف الظنون) أيضا إشارة إلى أنَّ شرف الدين أحمد بن إدريس بن يحيى المارديني (٧٢٨ هـ) قد ألّف (نظم الدرر في معرفة منازل القمر) رتّبهُ على عشرة أبواب كلها منظومة (انظر كشف الظنون ص ١٩٦٣).

وكذلك نطالع أنَّ لرضي الدين أبي الفضل محمد بن أحمد الغزي (٩٣٥هـ) ألفيّةً في علم الهيئة وهو علم الفلك ذاته - (انظر بجلة المورد مج ٢٠ ع ١ لعام ١٩٩٢ بغداد ص ١٣٣).

ولفخر الدين محمد بن المصطفى بن زكريا الدروكي (٧١٣ هـ) قصيدة في النجوم (هدية العارفين ٢:١٤٢ -١٤٣).

وفي ميدان التاريخ نقع في كتاب،هدية العارفين على غير إشارة إلى منظومات في التاريخ منها مثلا أنَّ محي الدين عبد الله بن عبد الطاهر السعدي الجذامي الروحي (٦٩٢هـ) قد نظم سيرة السلطان الظاهر بيبرس (هدية العارفين ٢:١٣٧). و كذلك نظم شهاب الدين محمد أمين الخولي (٦٩٣ هـ) سيرة ابن هشام (هدية العارفين ١/٥٨١) و (كشف الظنون ٤٩٢، ١٠١٢).

و ذكر الزركلي أنَّ عبد الملك بن أحمد الأرمنتي (٧٢٢ هـ) قد نظم تاريخ مكة للأزرقي على شكل أرجوزة (الأعلام ٤:٣٠١).

و نظم صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٧٦٤ هـ) أرجوزة تاريخية وشرحها، و هي بعنوان:« تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء و الملوك و النواب » و قد طبع هذه الأرجوزة صلاح الدين المنجد و فيها يقول الصفدي مثلاً بعد حمد الله وشكرانه:

و بعدُ فالمقصودُ مِنْ ذا الرَّجزِ حسنُ البيانِ في كلامٍ موجزِ
أذكرُ فيه الخُلفا و الأمرا على دمشقٍ نسقاً كما ترى

وبعد أن يشير إلى عمل ابن عساكر في هذا الباب يقول:

لكنه على الحروف رتَّبهْ فضيَّعَ المقصودَ منه و اشتبهْ
و لم يصلْ إلاّ لنورِ الدينِ و عاق ذاك وارد المنونِ
و قد ذكرتُ مَنْ أتى من بعدِهِ ليومنا فاستجلِ دُرَّ عقدِهِ

ومن الجدير بالذكر أن المؤلف نفسه قد شرح أرجوزته في كتاب حمل العنوان ذاته. و قد طبع بدمشق عام ١٩٩٢ في جزأين بتحقيق إحسان بنت سعيد خلوصي و زهير حميدان الصمصام .

ويمكن أن نضيف في هذا المجال الأرجوزة التي نظمها تاج الدين الحسن بن راشد الحلي (نحو ٨٣٠ هـ). وعنوانها (تاريخ الملوك و الخلفاء)، وأرجوزة للمؤلف ذاته وعنوانها (تاريخ القاهرة) - (الأعلام ٢:٢٠٤). و الأرجوزة التي في تاريخ المعتضد بالله. وهي مطبوعة وقد ألفها أبو العباس عبد الله بن محمد الناشىء المعروف بابن شرشير (٢٩٣هـ).

و نظم عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري المعروف بالديرني (٦٩٤هـ) سيرة ابن هشام شعراً (انظر هدية العارفين ١:٥٨١).

و الحقيقة أن هذا التقليد التراثي أعني التأليف بالشعر لم يندثر، بل استمرت مياهه في مجرى الثقافة العربية تطالعنا بين الفينة و الأخرى، وإن قلَّتْ بوضوح عما كانت عليه في القديم. وقد راح بعض الشعراء في أيامنا هذه يستعرضون قدراتهم على النظم في تأليف بعض الكتب. و من هؤلاء الشاعر السوري (أحمد الجندي) رحمه الله الذي ألَّف كتاباً بعنوان، «قصة المتنبي شعراً» . وقد طبعه في بغداد عام ١٩٧٣، ثم أعاد طبعه في دمشق بدار طلاس.

و في هذا الكتاب الشعري يؤرخ أحمد الجندي بالشعر لحياة أبي الطيب المتنبي ـ شاعر العربية الأكبر، ومالىء الدنيا و شاغل الناس. وإذا فتحنا كتاب الجندي و جدناه يقول في (ص ٧ ـ طبعة بغداد) مثلاً :

مَـرّ في خـاطرِ الزمـانِ وليـدُ	عبقري السمات عـال فريـدُ
أسمرُ الوجـهِ كالمسـاءِ جـلالا	أسودُ العـين بـاهرٌ ممـدودُ
موجـةٌ مـن رجولـةٍ فـوقَ بحـرٍ	يتمطّى بـهِ تيـارُهُ العربيـدُ
فـإذا الشـاعر العظيـم حديـثٌ	يتغنّـى و نشـوة و قصيـدُ

ثم يضيف في (ص ١٣) على لسان شاعرنا العظيم كاشفاً عن بعض سجاياه وخصائصه :

لا أراني أعيـش في هـذه الأر	ضِ فنفسي يضيق عنها زمـاني
إنـني شـاعر العروبـةِ ضوئـي	مـلأ الارض بـالمنى و الأمـاني
و بشعري سار الزمان و غنّى الر	كبُ في البيد مطرباتِ الأغـاني

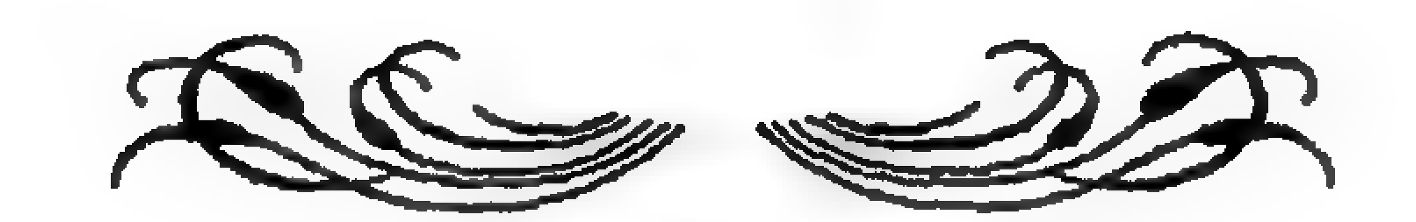
و بعد، فإننا نخلص من خلال العرض الموجز السابق إلى نتائج نصوغها على النحو التالي:

١ – إنَّ التأليف بالشعر عند العرب كان قد بدأ مع فجر عهدهم بالتدوين و التصنيف. وبعبارة أخرى منذ القرن الهجري الأول و حتى أيامنا هذه. ومن المعروف هنا أننا نريد نظم المعارف و العلوم و لا نقصد إبداع المسرح الشعري الذي يشكل نسقا فنياً آخر .

٢ – إنَّ بحر الرجز لم يكن البحر الوحيد الذي ركبه المؤلفون في مؤلفاتهم الشعرية، فهناك بحور اخرى كالبسيط، وغيره من البحور، نظمت عليها ألوان من المعارف متباينة . وقد كان بحر الخفيف مثلاً هو بحر أشعار المرحوم أحمد الجندي التي مثلنا عليها قبل قليل.

٣ – بعض أشكال هذا النظم التعليمي، وخاصة النحو و اللغة منه، قد عقد بعض المسائل، و لم يبسّطها نظراً لكثافة الشعر و اختزاله و إيجازه، مما دفع بعض الناظمين، أو من جاء بعدهم إلى شرح هذه المنظومات. و قد ضربنا أمثلة كثيرة على هذه الشروح .

٤ – إن العرض السابق على وجازته و على الرغم من أنه جاء للتمثيل والتدليل، لا للاستيفاء والاستقصاء، يدل على أن هـذا الباب واسع جداً، وأنه تناول مختلف جوانب المعرفة. وثمة جوانب أخرى لم نعرض لنماذج لها فيما تقدم. و هذا إنْ دلَّ على شيء فإنما يدل على مواهب العرب الشعرية الغزيرة، وعلى أثر الشعر في نفوسهم، كما يدل على عظيم عطائهم التصنيفي، وهو عطاء يكاد المرء يزعم أن الأمة العربية لا تضاهيها فيه أية أُمَّةٍ على وجه هذه البسيطة .



مصادر البحث و مراجعه

- ابن الانباري، محمد بن القاسم: قصيدة في مشكل اللغة دمشق ١٩٨٩، مستل من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.
- ابن حمليون، محمد بن خليل : التحفة في علم المواريث، تحقيق السائح علي حسين – ليبيا طرابلس١٩٩٠.
- ابن رشيق: العمدة في صناعة الشعر و نقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٧٤ –ط ٤ .
- ابن ماجد: حاوية الاختصار في أصول علم البحار، تحقيق إبراهيم الخوزي، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق .
- ابن النديم: الفهرست، تحقيق رضا تجدد، بيروت ١٩٧١ .
- البغدادي: هدية العارفين، بيروت، دار الفكر ١٩٨٢ .
- الجندي، أحمد: قصة المتنبيَ شعراً، بغداد ١٩٧٣.
- حمصي، أسماء: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية – علوم اللغة العربية – دمشق ١٩٧٣.
- خليفة، بديري: نظم متن الآجرُّوميّة – مقال في مجلة كلية الدعوة الإسلامية – ليبيا طرابلس – العدد السادس لعام ١٩٨٩.
- خليفة ، حاجي : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، بيروت ، دار الفكر ١٩٨٢ .
- الخيمي، صلاح: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية – الطب و الصيدلة – دمشق ١٩٨١.
- الدوسري، هيا محمد: فهرس المخطوطات الطبية المصورة بقسم التراث، الكويت ١٩٨٤ .

- رزوق، فرج رزوق: الشعراء التعليميون و المنظومات التعليمية، مقال في مجلة المورد العراقية المجلد ١٩ ـ العدد الأول، و المجلد ٢٠ العدد الأول، بغداد ١٩٩٢ .
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، بيروت ط٥ ، ١٩٨٠ .
- الصغيري، محمود: قضايا في التراث العربي، دمشق ١٩٨١.
- الصفدي، خليل بن أيبك: تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك، تحقيق إحسان خلوصي و زهير حميدان الصمصام، دمشق ١٩٩٢ .
- الصوري، محمد بن علي بن حسن: القصيدة الصورية، تحقيق عارف تامر، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٥٥ .
- الصولي، أبو بكر: الأوراق تحقيق ج. هيورث، بيروت ط ٢، ١٩٧٩.
- الطيبي، أمين توفيق : كتب الفلاحة الأندلسية، مقال في مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد ٦ – طرابلس ليبيا ١٩٨٩.
- الكتبي، ابن شاكر: فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، بيروت.
- كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، بيروت ـ دار إحياء التراث العربي د.ت .
- محمد بن محمد، بدر الدين: زبدة الأقوال في شرح قصيدة الأفعال، تحقيق ناصر حسين علي، دمشق ١٩٩٢ .
- القاضي النعمان: الأرجوزة المختارة، تحقيق إسماعيل قربان حسين، مونتريال كندا.
- اليازجي، ناصيف: الجمانة في شرح الخزانة، بيروت ١٨٧٢ .



الكتـاب الثاني

(ضروب من كتب التراث)

١.أمثال العرب، لِلْمُفَضَّل الضَّبِّي (١٦٨ أو ١٧٨/ ٧٨٤ أو ٧٩٤).

٢.فحولة الشعراء، للأصمعي (٢١٦ / ٨٣١).

٣.طبقات فحول الشُّعراء، لابن سلاَّم الجُمحي (٢٣١ / ٨٤٥).

٤.المعمَّرون والوصايا، لأبي حاتم السَّجستْاني (٢٥٥ / ٨٦٨).

٥.الفاضل، للمبرِّد (٢٨٥ / ٨٩٨).

٦.الورقة، لمحمَّد بن داود بن الجرَّاح (٢٩٦ / ٩٠٨).

٧.شَجَر الدُّرّ، لأبي الطيِّب اللغوي (٣٥١ / ٩٦٢).

٨.معجم الشعراء، للمرزباني (٣٨٤ / ٩٩٤).

٩.الفصول الأدبية، للصاحب بن عبّاد (٣٨٥ / ٩٩٥).

١٠.الصَّداقة والصديق، لأبي حيَّان التوحيدي (٤١٤ / ١٠٢٣).

١١.الحدائق الغنّاء في أخبار النِّساء، للمعافري المالقي (٦٠٥/ ١٢٠٨).

١٢.معجم الأدباء، لياقوت الحموي (٦٢٦ / ١٢٢٨).

١٣.النجوم الزواهر في معرفة الأواخر، لابن اللبّودي (١٤٨٤/٨٨٩).



أمثال العرب

لِلْمُفَضَّل الضَّبِّي (١٧٨ / ٧٩٤)

كانت الأمثال غُصْناً يانعاً ومثمراً في دوحة الثقافة العربية، في تراثنا القديم، وربما كانت محاولات التأليف في هذا المجال تَرْقى إلى العصر الجاهلي ؛ فقد طالَعْنا في ديوان الشاعر الجاهلي بشر بن أبي خازم الأسدي هذا البيت:

وَجَدْنا في كتابِ بني تَميمٍ   أحقُّ الخيلِ بالرَّكْضِ المُعارُ

وقيل في التعليق على هذا البيت: إن الشطر الثاني منه (مَثَلٌ) قرأه الشاعر في كتابٍ لبني تميم. وفي حين شكَّ بعض المستشرقين مثل (غولد تسيهر) و (كاسكل) و (زولهايم) في نسبة هذا البيت إلى بشر، واستبعدوا وجود مثل تلك المجموعات المثلية في العصر الجاهلي، وجدْنا الدكتور (ناصر الدين الأسد) يردُّ حججهم تلك إلى مقولة آمنوا بها، هي (تجهيل الجاهليِّين). وما هي بمقولة صحيحة - (انظر مصادر الشعر الجاهلي، لناصر الدين الأسد ص ١٦٣ - ١٦٤ و ٥٥٩ - ٥٦٠).

ومهما يكن من أمر، فإن كُتُبَ الأمثال كانت معروفة تماماً إبّان العصرين الراشدي والأموي، ومِمَّنْ ألَّف فيها (عبيد بن شريه الجرهمي)، و (علاثة بن كرشم الكلابي)، و(صُحار العبدي). وكلهم رجال منَ القرن الأول الهجري. وقد تلا هؤلاء علماء أُخَر من رجال القرن الثاني، ألَّفوا كتباً في الأمثال، كأبي عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) ويونس بن حبيب (١٨٣) وأبي فيد مؤرِّج السدوسي (١٩٥ هـ) والمفضلِ الضبي هذا الذي نتحدث عنه الآن، وعن كتابه (أمثال العرب)، الذي حظي حديثاً بنشرة علمية من قبل الباحث الدكتور إحسان عباس.

والمفضَّل الضّبيّ رجل من رجال الشعر والرواية في القرن الثاني، يُرجِّح الدكتور عباس تاريخ ميلاده بين سنتَيْ (٩٨ - ١٠٢) وهو عالم من علماء الكوفة الكبار، بها ولد ونشأ ونضج، وأتم علومه فيها على أيدي مجموعة من الشيوخ، منهم عاصم بن أبي النجود، وسماك بن حرب، والأعمش، وغيرهم... ولما جلس، بعد أنْ أحكم علمه، للتدريس، تخرَّج على يديه ربيبه ابن الأعرابي، والفرّاء، والكسائي، وأبو عمرو الشيباني، وعمر بن شبَّة، وأبو زيد الأنصاري. وقد ارتحل المفضل إلى البصرة، وكان موطن إجلال وتقدير فيها. وقال فيه ابن سلاّم الجمحي: « وأعْلَمُ مَنْ وَرَدَ علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي ».

وقد شارك المفضَّل في ثورة محمد النفس الزكية التي شبَّت في المدينة، ولما أرسل محمدٌ أخاه إبراهيمَ إلى البصرة ليدعو الناس إلى الثورة وجد إبراهيم في دار المفضل خير ملاذ له من بطش العباسيين. ولما أخفقت الثورة لم يلاحق العباسيون صاحبَنا، بل جعلوه مُؤدِّباً لأولادهم، فقد صار، بعد أن ارتحل إلى بغداد، مربياً للمهدي بن المنصور، وكانت له علاقة بالهادي وبهارون الرشيد من بعده، إلى أن توفي في حوالي سنة (١٧١ هـ) حسبما يذكر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة، وثمة من يرى وفاته في سنة (١٦٨ هـ) أو في سنة (١٧٨).

وقد خلف لنا المفضل عدة مؤلفات، هي:

١ ـ كتاب في العروض.

٢ ـ كتاب في معاني الشعر.

٣ ـ كتاب في الألفاظ.

٤ ـ المفضليات، وهي مجموعة من عيون الشعر العربي تبلغ ١٣٠ قصيدة جاهلية وإسلامية.

٥ ـ وكتابه هذا الذي نحن بصدده (أمثال العرب).

و(أمثال العرب) كان طُبِع بمطبعة الجوائب عام ١٢٠٠ هـ . ثم طُبِع مرة أخرى بمصر عام ١٩٠٩. ونهض أخيراً الدكتور إحسان عباس بطبعته الأخيرة العلمية المحققة فنشره عام ١٩٨١، وأعاد نشره مرة ثانية عام ١٩٨٢ في دار الرائد العربي ببيروت.

ويُعَدُّ كتاب المفضل الضبي (أمثال العرب) أقدم صورة لدينا عن المثل الجاهلي المقترن بالحكاية، وتكمن أهميته في كونه مصدراً لأكثر الكتب التي أُلّفت في بابه، ككتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام، والفاخر للمفضل بن سلمة، والدرَّة الفاخرة في الأمثال السائرة للأصبهاني، وجمهرة الأمثال للعسكري، ومجمع الأمثال للميداني، والمستقصى في الأمثال للزمخشري.

وميزة كتاب الضبي هذا أنّه ينصبُّ في أكثره على ما كان يدور على ألسنة الناس في العصر الجاهلي من أمثال. وهي غالباً ترتبط بقصص وحكايات تكون مهمازاً للمثل، أو إطاراً له، تنتهي دائماً بعبارة على لسان بطل القصة أو خصمه. فتصير هذه العبارة مثلاً، ويعبر عن ذلك بعبارات نحو (أرسلها مثلاً) أو (فذهبت مثلاً) أو (فصار قوله مثلاً).

ومن أمثلة قصص الكتاب التي تنتهي بعبارات صارت مثلاً، ما رواه الضبي إذ قال: (زَعَمُوا أنَّ الحارث بن عُباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة طلّق بعض نسائه بعدما أسنَّ وخرف، فخلف عليها من بعده رجل كانت تظهر له من الوجد به ما لم تكن تظهره للحارث بن عباد، فلقي زوجُها الحارثَ بن عباد، فأخبره بمنزلته منها، فقال له الحارث: «عِشْ رَجَباً تَرَ عجبا، فأرسلها مثلاً » - (أمثال العرب ص ١٤٠). ومن القصص ماورد فيه غير مثل، فقد جاء في مطلع الكتاب هذه القصة:

(زعموا أنَّ ضَبَّةَ بن أدّ بن طلحة... كان له ابنان، يُقال لأحدهما سعد، وللآخر سعيد، وإن إبل ضبَّة نفرت تحت الليل وهما معها. فخرجا يطلبانها... فوجدها سعد فجاءَ بها. وأما سعيد فذهب ولم يرجع. فجعل ضبة يقول بعد ذلك إذا رأى تحت الليل سواداً مقبلاً: (أسعد أم سعيد) فذهب قولُهُ مثلاً. ثم أتى على ذلك ماشاء الله أنْ يأتي لا يجيء سعيد، ولا يعلم له خبر. ثم أن ضبة بعد ذلك بينما هو يسير والحارث بن كعب في الأشهر الحرم، وهما يتحدثان، إذ مرَّا على سَرْحة بمكان، فقال له الحارث أترى هذا المكان ؟ فإنّي لقيت فيه شاباً هيئته كذا وكذا - فوصف صفة سعيد - فقتلتُهُ، وأخذتُ بُرْداً عليه. ومن صفة البُرْدِ كذا وكذا، فوصف صفة البرد، وسيفاً كان عليه: فقال ضبة والسيف ؟ قال هاهوذا عليَّ. قال فأرنيه، فأراه إيّاه فعرفه ضبَّةُ ثم قال: « إنَّ الحديث لذو شجون ». ثم ضربه حتى

قتله، فذهب قوله أيضاً مثلاً. فلامه الناس وقالوا قتلت رجلاً في الأشـهر الحـرم. فقـال ضبـة: «سَبَقَ السيفُ العَذْلَ» فأرسلها مثلاً - (ص ٤٧ - ٤٨).

وهكذا تسوق هذه القصة ثلاثة أمثال هي: (أسعد أم سعيد) و (ان الحديـث لـذو شجون) و (سبق السيف العذل). والمُلاحظ أن غالبية أمثـال الضبي وقصصـه تبـدأ بكلمـة (زعموا)، ثم تساق قصة يختار من بين عباراتهـا عبـارة قصـيرة موجـزة، لهـا وقـع خـاص في مجرى الحوار أو الحدث، فتصير مثلاً يدور على الألسنة ويتناقله النـاس جيـلاً بعـد جيـل. وفي بعض الأحيان تأتي قصة المثل مشفوعة بالشعر الذي يرد في شطر من شطور ذاك المثل.

وقد وردت في هذا الكتاب أمثال لقبـائل عربيـة عديـدة، كقبيلـة ضبَّـة وتيـم وبكـر وتغلب. ومن الأمثال ما يتصل بالحروب العربية، كحرب البسوس، ومنها ما يتصل بالشـعراء كامرئ القيس وطرفة والمتلمس، ومنها مـا يتصـل بـأعلام قدمـاء كبـار، كالزبـاء، وجذيمـة، ولقمان، والمنذر بن ماء السماء...الخ.

فقد جـاء في (ص ١٦٩) القصـة التي تحكـى قصـة المثـل « مـايوم حليمـة بِسِـرٍّ » وخلاصتها: أن المنذر بن ماء السماء لما غزا الحارث بن جبلة الغساني، كان في جيشه رجل، أُمُّهُ من غسَّان، اسمُهُ شمر بن عمرو، فتسلَّل من جيش المنذر وأتى الحارث وأخبره بأنه جاءه ما لا طاقة له به. فانتدب الحارث مائة رجل من جيشـه اختـارهم رجـلاً رجـلاً بينهـم لبيـد بـن عمرو، وأمرهم بالتوجُّه إلى المنذر، ليخبروه بأن الحارث يدين له ويعطيه حاجتـه، وأمـر ابنتـه (حليمة) أن تطيبهم بطيب من الزعفران وغيره. فجعلت تطيبهم حتّى مرَّ بها لبيد بـن عمـرو فلما دنت منه قبَّلها، فلطمَتْهُ وبكَتْ. وأتت أباها فأخبرته، فقال: ويلكِ اسكتِي فهو أرجـاهم عندي ذكاء قلب. ومضى القوم حتى بلغوا المنذر، فقالوا ما أوصاهم به الحارث، فتباشر أهل عسكره وغفلوا بعض الغفلة، فحمل الحارث وجنده عليهـم، فقتلـوا المنـذر وهزمـوا جيشـه. فقيل: (ما يوم حليمة بِسِرٍّ)، فذهبت مثلاً. وقد قال النابغة في ذلك مادحاً الغساسنة:

ولا عَيْـبَ فِيْهِـم غيرَ أنَّ سـيوفَهُمْ	بهِـنَّ فلـولٌ مِـنْ قِـراعِ الكَتَـائِبِ
تُخيِّرْنَ مِـنْ أزمـانِ يـومِ حليمـةٍ	إلى اليومِ قَدْ جرِّبْنَ كـلَّ التَّجارِبِ

وأخيراً، فإنَّ كتاب (أمثال العرب) حوى (١٦٠) مثلاً تقريباً، سِيْقَتْ في إطار (٨٨) قصة أو خبراً. وهي أمثال تحتاج بلا ريب إلى وقفة متأنية، ودراسة مستقصية تستخلص منها ماهو قمين بأن يفيد الدارسين للأدب القديم، والباحثين في تقاليد الجاهليين وعاداتهم وحضارتهم.



فحولة الشعراء

للأصمعي (٢١٦ / ٨٣١)

« فحولة الشعراء » للأصمعي رسالة صغيرة تقرأ في ساعة واحدة أو تكاد. وقد حقّق هذه الرسالة المستشرق ش. توري ونشرها سنة ١٩١١ ثم أعيدت طباعتها في بيروت سنة ١٩٧١. وقدم لها الدكتور البحاثة صلاح الدين المنجد. وقد عرّف المنجد بالمستشرق المذكور فقال عنه: إنه أستاذ في جامعة (ييل) بالولايات المتحدة. ونشر عدداً من النصوص العربية منها : فتوح مصر وأفريقية والمغرب لابن عبد الحكم، وأغلاط الضعفاء لابن بري، وفحولة الشعراء للأصمعي.

ومن الجدير بالذكر أنَّ « فحولة الشعراء » قام بنشرها أيضاً محمد عبد المنعم خفاجي في القاهرة مرة ثالثة مُعرِّفاً بها وبالأصمعي وبموقع كتابه هذا في تاريخ النقد العربي القديم.

ولكن الرسالة التي بين أيدينا لا تتجاوز صفحاتها العشرين صفحة. ومن أهم ما يقال فيها: إن دلالة العنوان « فحولة الشعراء » لاتتضح من خلال التفصيلات الواردة في هذا الرسالة، أو الأجوبة التي يجيب بها الأصمعي على أسئلة تلميذه ـ أبي حاتم السجستاني، الذي يسأله عن شاعر أو شعراء بأعينهم، فمرَّةً يشترط الأصمعي أنْ يقول الشاعر خمس قصائد، أو أكثر، ليلحق بالفحول، كما هي الحال بالنسبة للحويدرة، وثعلبة بن صعير المازني. ومرَّة يتطلَّبُ الكثرة، وذلك واضح في جوابه عن شاعرية أوس بن غلفاء إذ قال: (لو كان قال عشرين قصيدة لحق بالفحول ولكنه قُطع به) (ص١٥). ومرة ثانية ينسب الفحولةَ لشاعر ما، لأنه كان غاية في النَّعْت، كطفيل الغنوي، الذي لُقّب بطفيل الخيل، لحُسْنِ نَعْتِه للخيل. ومرة ثالثة يقصر الفحولة على قصيدة بعينها، فهو يقول عن كعب بن سعد الغنوي: ليس فحلاً إلا في المرثيّة. ومرة رابعة ينظر في الصفة الغالبة على الرجل موضوع الحديث، فهو

يقول عن حاتم الطائي (إنه يُعَدُّ بكرم). وعن خُفاف بن ندبة، والزبرقان بن بدر، وعباس بن مرداس، وبشر بن أبي خازم: « إنهم أشعر الفرسان... ». الخ .

ولكن الذي يمكن التعويل عليه أو الاستفادة منه، هو قوله في معنى الفحل : « مَنْ له مزّيةٌ على غيره كمزيّة الفحل على الحقاق » (ص ٩). وقد استعان على توضيح هذا المعنى ببيت جرير:

وابن اللبون إذا ما لُـزَّ في قَـرَنٍ ... لم يستطع صولـةَ البُزْلِ القناعيسِ

وقد أفسح الأصمعي في رسالته هذه المجال لآراء المتقدمين عليه من الرواة وعلماء الشعر، فهو يقول مثلاً: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: « إن قصيدة فلان الرائية أو الميمية أَلْحَقَتْه بالفحول ! » وفي مناسبة أخرى يذكر أن خلفاً الأحمر، وهو أستاذ الأصمعي، كان لا يقدّم على الأعشى أحداً، لأنه كان قد قال في كل عروض وركب كل قافية - (ص ١٢).

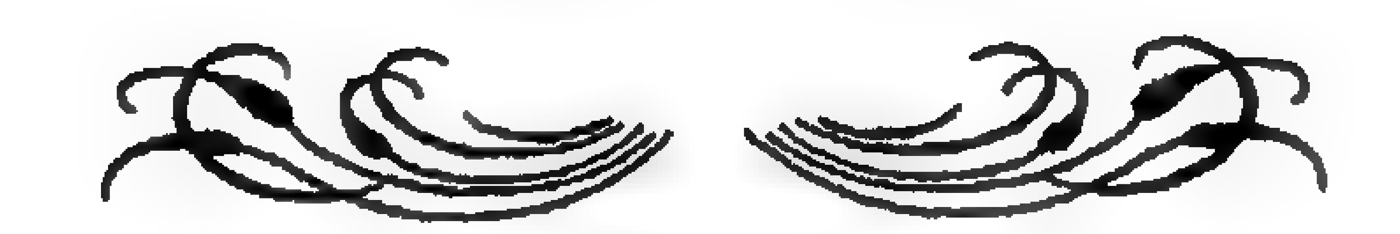
ويمكن للدارس أن يستنتج أن النظر في « فحولة الشعراء » كان في زمن سابق على زمن الأصمعي. وقد استمر الاهتمام في هذا المصطلح إلى أنْ ألّف محمد بن سلام الجمحي (٢٣١هـ) كتابه الشهير طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين، وهو أقدم كتاب وصل إلينا عن الشعراء في العصرين الجاهلي والإسلامي، وهو الكتاب الثالث الذي سندرسه في هذا القسم من كتابنا.

وقد حوت الرسالة التي نحن بصددها بعض الأحكام التي لا صلة لها بمعنى الفحولة، كقول الأصمعي « ذهب أميّة بن أبي الصلت في الشعر بعامة ذِكْرِ الآخرة، وذهب عنترة بعامة ذِكر الحرب، وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذِكر النساء » (ص١٨). وكقوله أيضاً: « ليس في الدنيا قبيلة على كثرتها أقل شعراً من بني شيبان وكلب، وليس لكلب شاعر في الجاهلية قديم ». (ص١٩)

وإذا دقّقْنا في هذا الكلام وجدناه غير صحيح، فلكَلْب أكثر من شاعر قديم ومهمّ، منهم مثلاً زهير بن جناب الكلبي، الذي كان رأس مجموعة من الشعراء انحدرت منه، ومثله

في ذلك مثل قَطَن بن نهشل الدارمي ، وزهير بن أبي سلمى ، وقد قال فيه أبو الفرج الأصفهاني : « ولم يوجد شاعر في الجاهلية والإسلام ولد من الشعراء أكثر مما ولد زهير » (انظر الأغاني ١٩:٢٤ ، وكتابنا : الشعراء الجاهليون الأوائل ، بيروت ١٩٩٤ ص ٣٩٢).

وأخيراً فإن هذه الرسالة جاءت لتؤكد أن النقد القديم، وإلى زمن الأصمعي المُتوفّى سنة (٢١٦هـ) بقي على الغالب الأعم أحكاماً سريعة تُطْلَق جُزافاً، دونما تعليل أو تحليل، أو تدقيق ، الأمر الذي لا يرتضيه الناقد المعاصر الذي يسعى جاهداً ليكون نقده أكثر قبولاً، وأقوى قدرة على الإقناع والإمتاع.



طبقات فحول الشعراء

لابن سلاّم الجمحي (٢٣١ / ٨٤٥)

ألّف هذا الكتاب محمد بن سلاّم الجمحي المولود سنة ١٣٩ هـ والمتوفّى سنة ٢٣١ أو ٢٣٢ هـ . و(طبقات فحول الشعراء) واحد من ستة كتب صنّفها هذا الاديب الناقد، منها: **كتاب الفاصل في ملح الأخبار والأشعار، وبيوتات العرب، والحلاب وإجراء الخيل.** وتتلمذ ابن سلاّم على (٧٩) شيخاً، من بينهم أبوه سلاّم بن عبيد الله، وسيبويه، ومعاوية بن أبي عمرو بن العلاء، والأصمعي، وبشّار بن برد الشاعر، وخلف الأحمر، وأبو زيد الأنصاري. كما تتلمذ عليه تلامذةٌ كثر، نذكر منهم ثعلباً، وأحمد بن حنبل، وأبا خليفة الجمحي، واسمه الفضل بن الحباب، وهو الذي روى كتاب **طبقات فحول الشعراء** عن خاله محمد بن سلاّم. وقد كان هذا الراوية أعمى، وكان مسند عصره في الحديث بالبصرة، وتوفي سنة ٣٠٥ هـ.

وطُبع هذا الكتاب للمرة الأولى سنة ١٩١٦ م بعناية المستشرق (يوسف هل) بلندن، ثمَّ أعاد طبعه حامد عجّان الحديد بالقاهرة سنة ١٩٢٠ م. وطُبع ثالثة بتحقيق الأستاذ محمود شاكر بدار المعارف سنة ١٩٥٢م. وطبع رابعة بعناية الأستاذ شاكر نفسه. وفي هذا الطبعة الأخيرة التي كانت سنة ١٩٧٤ تبرأ المحقق من طبعته الأولى التي أصدرها عام ١٩٥٢ كما سنرى.

محتويات الكتاب:

يحوي الكتاب مُقدّمة نقديَّة حسنة، ومن بعدها أخباراً عن شعراء جاهليين وإسلاميين... فقد قسم المؤلّف كتابه، عامّة، إلى طبقات حوتْ كلُّ طبقة أربعة شعراء. وبلغ عدد طبقات الشعراء الجاهليين عشر طبقات، ومثلهم من الإسلاميين. فكان المجموع (٨٠) ثمانين شاعراً. ولكن عدد الشعراء الذين ترجم لهم ابن سلاّم (١١٤) مئة وأربعة عشر

شاعراً. فمن أين أتى الشعراء الـ (٣٤) الأربعة والثلاثون الآخرون ؟ والجواب جاؤوا من خلال عنوانات أخرى اصطنعها المصنِّف ـ ابن سلاّم، وهي:

١. شعراء المراثي وعددهم أربعة، وهم: مُتمّم بن نويرة، والخنساء، وأعشى باهلة، وكعب الغنوي.

٢. شعراء القرى العربية، وعددهم (٢٢) اثنان وعشرون شاعراً. وقد وزّعهم على أربع قرى، هي: المدينة، ومكة، والطائف، والبحرين.

٣. شعراء يهود، وعددهم ثمانية شعراء، وهم: السموءل، والرَّبيع بن أبي الحقيق، وكعب بن الأشرف، وشريح بن عمران، وسعية بن العريض، وأبو قيس بن رفاعة، وأبو الذيال، ودرهم بن زيد.

ويجدر بالذكر أن هؤلاء قد وردوا، قبل الانتقال إلى طبقات فحول الإسلام، في كتاب ابن سلاّم.

مفهوم الطبقة ومسوّغاته:

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال مآله: ما هو الأساس الذي بنى عليه ابن سلاّم طبقات الشعراء ؟ وهل كان للطبقة مفهوم محدّد في ذهنه ؟ ثم ما هو مسوّغ هذا التقسيم المعتمد على الرقم (٤) أربعة ؟

والحقيقة أنّ مفهوم الطبقة عند ابن سلاّم كان غامضاً ومختلطاً. ومحاولة البحث عن أساس نقدي لتوزيعات ابن سلاّم لا تفضي إلى نتائج يركن إليها الباحث. وذلك لأن ابن سلاّم اتخذ أكثر من معيار لإحلال الشعراء منازلهم. وواضح أن ابن سلاّم قد نظر بعد معيار الزمن (جاهلي × إسلامي) إلى البيئة، فصنّف (شعراء القرى العربية) ثم تحوّل إلى الانتماء الديني فقال بـ (شعراء يهود).. ! الامر الذي أثار تساؤلات عدّة حول مفاهيمه النقدية ومنطلقاته المعيارية.

ورغم ما تقدّم، فإن الأستاذ (محمود شاكر)كان يرى أن صاحبنا ابن سلاّم فهم الطبقة على أنها منزلة شعرية، أو ضَرْبٌ من ضروب الشعر، أو نَهْجٌ من مناهجه، فشعراء الطبقة الأولى مثلاً، وهم: امرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، والأعشى،

يتشابهون في أنهم أشعر العرب، في مَنْهَبٍ من مذاهب الشعر، أو في نَهْجٍ من مناهجه، أو في ضَرْبٍ من ضروبه - (انظر مقدمة شاكر للكتاب ص ٦٨). ولكنه يمضي فيقول إن التشابه لايعني التطابق، فهم متشابهون في الزعامة والتقدم والرئاسة.

ورأى (إحسان عباس) أن أساس هذا التقسيم يقوم على معنى « الفحولة » أي التميُّز، فالفحل من كان له ميزة على غيره... ولكن أحكام ابن سلاّم كانت تختلف عن أحكام الأصمعي، فالأصمعي لم يعدَّ الأعشى ولاكعب بن زهير بيّنَ الفحول، في كتابه **فحولة الشعراء**، ومع ذلك فقد أدرجهما ابن سلاّم بين فحول طبقاته، فوضع الأول في الطبقة الأولى، ووضع الثاني في الطبقة الثانية، فمفهوم الفحولة متفاوت بين الأصمعي وابن سلاّم، وهو أوسع عند الأخير منه عند الأول (تاريخ النقد الأدبي لإحسان عبّاس ص ٨٠).

ولكن السؤال الأهمّ هو: لماذا خالف ابن سلاّم هذا المفهوم، وانتقل ليقيم أساساً آخر غير أساس التشابه في الزعامة الشعرية لِفَنٍّ من فنون القول، أو أساس الفحولة، وهو أساس البيئة (شعراء القرى) ثم بدّل هذا، فأرسى أساس الانتماء الديني (شعراء يهود) ؟

فهل كان تعدد المقاييس النقدية رائدهُ في هذا التقسيم ؟ أم أنه لم يَدُرْ في خلده مثل هذه الأمور البتّة ؟؟

ثم هناك سؤال آخر يبرز في هذا الصدد، وهو لِمَ التوزيع الرباعي للشعراء، وهل كان تعسُّفيّاً حقًّا، ولماذا قصر عدد الشعراء في كل طبقة من طبقاته العشرين على أربعة، وليس على أقل أو أكثر ؟؟

في البدء لابد من الإشارة إلى أنَّ ابن سلاّم لم يكن مبتدع أساس الطبقات في التأليف، فقد سبقه واصل بن عطاء (١٣١ هـ) إلى ذلك، فألف كتاباً سمّاه (**طبقات أهل العلم**). وساد في زمانه مفاهيم ومصطلحات تشبه مفاهيمه ومصطلحاته إلى حد ما، فثمة طبقات للفقهاء، وطبقات للرواة، وطبقات لأصحاب الأخبار، وطبقات للحفّاظ، وطبقات لِخُزّان العلم... الخ، لذا فلا بأس عليه في أنْ يجعل الشعراء في طبقات.

أما توزيعه الشعراء على الرقم (٤) أربعة، فهذا عائد إلى خصوصية لهذا الرقم استبدّتْ بالأذهان من قبله ومن بعده. ولا جرم في ذلك، فللرقم (٤) منزلة خاصة في

الفكرين اليوناني والعربي قديماً. وهذان الفكران تبادلا التأثُّر والتأثير بوضوح في أثناء الاحتكاك الثقافي فيما بينهما... ومن المعروف أن كثيراً من تفريعات العلوم وتقسيمات المعارف قد قصرت على الرقم (أربعة). فعند الاغريق، يتكوَّن الكون من أربعة عناصر هي: الماء والنار والهواء والتراب، وبما أن جسم الإنسان صنوٌ للكون، فهو مُكوَّن من أربعة عناصر أساسية هو أيضاً، هي: الدم، والبلغم، والمِرَّة الصفراء، والمِرَّة السوداء، وعليه فالفصول أربعة، والجهات أربع... وأولو العزم من الرسل أربعة..! وقد انتقل تأثير هذه الظاهرة إلى الفكر الأدبي، فألف أبو هِفّان المِهْزمي (٢٥٧/٨٧١) كتاباً كاملاً سمّاه: (**الأربعة في أخبار الشعراء**) وهو كتاب ذو عنوان غامض، يتضح غموض عنوانه اذا قرأناه في ضوء خصوصية الرقم (أربعة). وإذا طالعنا شذرات منه نشرها هلال ناجي في مجلة **المورد العراقية** (المجلد الثامن / العدد الثالث) نرى تفريعات الاخبار والأحكام التي أقيمت على أساس هذا الرقم. ولم يكن أبو هفّان الوحيد الذي ألّف كتاباً بهذا العنوان في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وهو القرن الذي عاش فيه ابن سلاّم، بل تابعه في هذا الأمر ذاته محمد بن داود بن الجرّاح (٢٩٦/٩٠٨) وأبو محمد ـ الوزير المُهَلّبي (٣٥٢/٩٦٣) من بعده وآخرون.

لذا لا غرو أن يجعل ابن سلاّم شعراء طبقاته من جاهليّين وإسلاميّين أربعة فأربعة. ومن الملاحظ أنّه ذكر في شعراء المراثي أربعة شعراء فقط، وأنه اختار من القرى العربية أربع قرى، كما قدّمنا، وأنّه ذكر من الشعراء اليهود ثماني شعراء، والرقم (ثمانية) من مضاعفات العدد (أربعة).

وفيما تقدم يكمُن السرُّ وينكشف الإشكال الذي حيَّر بعض الباحثين مِمَّنْ تصدَّوا لحلِّ هذه المشكلة التي لا يمكن أن تفهم إلاّ في ضوء المعرفة التاريخية والثقافية آنذاك... لذا ليس الأمر كما يقول د. إحسان عباس من أن التصنيف الرباعي قائم على نوع من التحكّم في الرقم، بل هو على العكس تماماً تصنيف يقوم على استبداد هذا الرقم في معارف الناس وتقسيماتهم وتفريعاتهم (انظر تاريخ النقد الأدبي ص ٨١).

وثمة مشكلة أخرى أثيرت في معرض نشر هذا الكتاب، فحواها: هل جاء هذا الكتاب كاملاً ؟ والجواب بالنفي طبعاً، لأنَّ محقق الكتاب (محمود شاكر) أضاف إلى أصل

الكتاب الذي أخرجه عنه (٢٣) ثلاثة وعشرين خبراً من كتاب (الأغاني) أخلّتْ بها المخطوطة التي طبع الكتاب على أساسها. وهي من مخطوطات شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنّورة. كما أضاف إلى أصل المخطوطة أخباراً عزيت لابن سلاّم في كُتُب أخرى مثل **شَرْح نهج البلاغة** لابن أبي الحديد، ومثل **تاريخ دمشق** لابن عساكر وغيرهما، فبلغ مجموع زياداته (٣٦) ستة وثلاثين خبراً.

وقد ألّف الدكتور منير سلطان كتاباً كاملاً حول ابن سلاّم وكتابه هذا، ذكر فيه أنه جرد كتاب (الأغاني) بكامله فوجد (١٢٢) خبراً معزوّةً لابن سلاّم غير موجودة في كتابه المطبوع (**طبقات فحول الشعراء**)، وواصل أبحاثه في بطون أمّهات الكتب القديمة فعثر بـ (٦٢) اثنين وستين خبراً آخر رواها ابن سلاّم، فصار لديه (١٨٤) خبراً جديداً.

ومع العلم بأن بعض هذه الأخبار يمكن أن يُعْزَى إلى كُتُب ابن سلاّم المفقودة مثل كتاب (**بيوتات العرب**) وكتاب (**الحلاب وإجراء الخيل**) فإنَّ بعضها الآخر يمكن أنْ يكون جزءاً من الضائع من كتاب (**طبقات فحول الشعراء**) فقد ذكر أبو الفرج في أخبار (**ابن ميادة**) أنَّ ابن سلاّم قد جعله في الطبقة السابعة (الأغاني ٢: ٢٦٢) مع عُمَر بن لجأ والعجيف العقيلي والعجير السلولي، وهو ما لم يرد في (**الطبقات**) مِمّا يدل على أمرين: إمّا على وَهْم من أبي الفرج، أو على أنَّ أبا الفرج كان يملك نسخة أوْفى من النسخة التي طبع عنها (كتاب الطبقات).

قيمة هذا الكتاب:

على الرغم من كل ما قيل سابقاً، فالكتاب درّة ثمينة، وهو قابل لأنْ يُنْظَر إليه من زاويتين هما:

أ ـ باب التراجم.

ب ـ باب النقد الأدبي والتاريخ الأدبي.

فمن زاوية التراجم حوى الكتاب إشارات وأحكاماً على سير (١١٤) شاعراً من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين. ومن الملاحظ أيضاً أنَّ ثـمَّة إشارات عَرَضيَّة لشعراء أُخر مَرَّ ذكرهم في صلب الكتاب غير مقصودين لذواتهم.

ومن زاوية النقد الأدبي، فإنَّ مقدّمة ابن سلاّم لكتابه هذا حوتْ حصيلة نقديَّةً طيّبة لآراء من سبق هذا المصنّف، كما حوتْ أحكاماً خاصّة كان هو يطلقها. وقد أثار ابن سلاّم في مقدمته مجموعة كبيرة من القضايا النقدية، وقضايا الأدب، منها مثلاً:

١ ـ إشارته إلى قضية نحل الشعر الجاهلي، فهو يقول: « وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجّة في عربيته، ولا أدب يُسْتفاد، ولا معنى يستخرج... وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء » ـ (المقدمة ص ٤).

ومن المعروف أن طه حسين قد اعتمد على أقوال ابن سلاّم هذه، وما شاكلها، في نظريته في الشعر الجاهلي، التي أنكر فيها أن يكون هذا الشعر قد قيل في الجاهلية، وزعم أنه في معظمه منحول على أصحابه في الإسلام. وقد أثار كتاب طه حسين (**في الشعر الجاهلي**) الصادر في القاهرة عام ١٩٢٦ ضجَّة كبيرة في زمانه، وحظي بردودٍ واسعة عليه لسْنا هنا في معرض التفصيل فيها.

٢ ـ وكذلك أعلى ابن سلاّم من شأن الناقد الخبير، وعدَّ الشعر صناعة وثقافة لا يعرفها إلاّ أهل العلم بها. وراح ينقل عن خلف الأحمر تشبيه الناقد بالصرّاف الذي يميز أصيل الدراهم من زيوفها (المقدمة ص ٧).

٣ ـ وأثار ابن سلاّم أيضاً قضية بدايات الشعر العربي، فذكر أنَّ أول من قصَّدَ القصائد وذكر الوقائع مهلهلُ بن ربيعة التغلبي، وذكر أيضاً أنَّ تقصيد القصيد وتطويل الشعر كانا على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف (المقدمة ٢٦).

كما عرض لقضايا تتصل بأقْدَمِيَّة اللغة العربية، وأولية علم النحو، وتنقّل الشعر بين القبائل، وأخلاق الشعراء، وغير ذلك، مما كان موضع خلاف وجدل بين الباحثين المعاصرين الذين لهم آراء مُباينة لآراء ابن سلاّم ومنهجه.

والحقيقة أنَّ كثيرين ممن أرَّخوا للنقد العربي القديم وقفوا عند مقدمة ابن سلاّم في كتابه هذا، ومن أولئك مثلاً (طه أحمد إبراهيم) الذي رأى أن هذه المقدّمة مقدمتان، وأنَّ خلطاً وَمَزْجاً قد داخلاها، وعندما عالج مفهوم الطبقة عند ابن سلاّم وجد أنّها ضعيفة وغير مقنعة وانتهى إلى أنَّ ملكة ابن سلاّم النقديّة أضعف بكثير من ملكته العلمية...

وكذلك ناقش آراء ابن سلاّم (أحمد أمين) في كتابه (**في النقد الأدبي**) و(محمد مندور) في كتابه (**النقد المنهجي عند العرب**) و (ناصر الدين الأسد) في كتابه (**مصادر الشعر الجاهلي**)، و (إحسان عباس) في كتابه (**تاريخ النقد الأدبي عند العرب ـ نقد الشعر**). وانتهى الأمر أخيراً بالسيد (منير سلطان) إلى أن يُقيم بحثاً كاملاً حول المؤلف تقدم به لنيل درجة الدكتوراه، ثم طبعه بالاسكندرية سنة ١٩٧٧، وهذا ما ذكرناه من قبل.

وقد انتهينا من خلال أبحاثنا في الأدب القديم، ومقارنتها بما جاء في كتاب ابن سلاّم (**طبقات فحول الشعراء**) إلى مجموعة من الملاحظات على هذا الكتاب نسوقها فيما يلي:

١ ـ إنَّ حديث ابن سلاّم عن بدايات الشعر العربي غير دقيق، وغير منسّق، وفيه خلط وغلط واضحان. فتطويل الشعر لم يبدأ ـ كما يرى هو ـ في عهد عبد المطلب أو هاشم، بل كان قد بدأ على يدي أبي قِلابة الهُذلي ـ أكبر شعراء (هذيل)، الذي عاش في القرن الخامس الميلادي، وهو أقدم من مهلهل بكثير، حسب استقراءاتنا التي أوصلتنا إلى هذه النتيجة. وهذا مبسوط في كتابنا (**الشعراء الجاهليون الأوائل**) ـ المطبوع ببيروت عام ١٩٩٤.

٢ ـ إنَّ ابن سلاّم لم يحتكم إلى مبدأ واضح في تقسيم شعرائه على طبقات، فهو مثلاً يضمّ إلى شعراء كبار شاعراً ليس من طبقتهم، بإجماع الكثيرين، ولا يشبه شعرُهُ شعرَهم، من ذلك مثلاً أنّه قَرَنَ (الراعي النميري) إلى جرير والأخطل والفرزدق، وهو دونهم منزلةً بلا خلاف...

٣ ـ ثمّةَ لونٌ من عدم التدقيق في تواريخ حيوات الشعراء الذين عالجهم، فابن سلاّم يدمج سحيم عبد بني الحسحاس مع الشعراء الجاهليين، مع أنّه وُلد في أوائل عصر النبوة

ومات سنة (٤٠ هـ). وكذلك فعل بالشاعر الكُميت بن زيد، وهو إسلامي، وقد أدرجه مع الجاهليين.

٤ ـ شابَ بعضَ أحكام المصنّف التعسُّفُ والبناء على عدم الاستقصاء والشمول، فهو مثلاً يقول (١: ٦٧): « ولم يقوِ من الطبقة الأولى ولا من أشباههم إلاّ النابغة الذبياني في بيتين هما:

١ ـ أمنْ آلِ ميّةَ رائحٌ أمْ مُغْتدِي	عجلانَ ذا زادٍ وغَيْرَ مُزَوَّدِ
٢ ـ زعمَ البوارحُ أنَّ رحلتَنا غداً	وبذاكَ خبَّرَنا الغرابُ الأسودُ»

وهذا حُكْمٌ غيرُ صحيح البتَّة، فقد أقوى كثيرون جداً من فحول الجاهلية. وقال أبو عمرو بن العلاء في هذا المجال: « فحلان من الشعراء يقويان هما: النابغة وبشر بن أبي خازم» ـ (الموشح ٨٠) ـ وكذلك وقع الإقواء في شعر امرئ القيس الكندي (انظر ديوانه ص ٨٢، ١١٦، ٣٥٣)، وأقوى الأعشى والحارث بن حلّزة، ودريد بن الصمة، وعامر بن الطفيل، وخُفاف بن نُدْبة، وعُرْوة بن الورد، وسلامة بن جندل، وشعراء من هذيل كثيرون... (انظر كتابنا بشر بن أبي خازم الأسدي ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣).

ولكن رغم ما تقدم، يبقى كتاب (**طبقات فحول الشعراء**) لابن سلاّم مصدراً مُهمّاً من مصادر التراجم القديمة ومصادر النصوص الشعرية. يصعب على الباحث في التراث العربي أن يتجاوزه أو يغضَّ الطرف دونه. ولكن إجلالنا لعلمائنا لا يعني أنه يجب أنْ نسلّم لهم بكل ما جاؤوا به من آراء، أو أحكام، أو أقوال... ولا شكَّ لدينا في أنَّ بحثاً أطْوَل ونظراً أمهل في هذا الكتاب سيقودان إلى أكثر مما نبّهنا عليه أو أشرنا إليه هاهنا.



المُعَمَّرون والوصايا

للسجستاني (٢٥٥ / ٨٦٨)

جَمَعَ هذا الكتاب أديب من أدباء العربية في القرن الثالث الهجري، هو أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني المتوفى سنة (٢٥٥هـ). والكتاب مجموعة من أخبار وأشعار المُعمَّرين الذين عاشوا في الجاهلية وصدر الإسلام. وتكشف الأشعار التي انطوى عليها هذا الكتاب عن أغراض من أغراض الشعر القديم كانت غير معروفة، فالمعمرون، في نصوصهم المختارة لهم، يصورون لنا مشاعرهم، وهم على أعتاب الأبدية، فهم يندبون أيامهم الغابرة، ويبكون شبابهم الهارب، وفتوتهم الضائعة.

وقد صدر هذا الكتاب في القاهرة عام ١٩٦١ مُحقَّقاً من قبل (عبد المنعم عامر). وهو لا ينطوي على أخبار المعمرين وقطوف من إبداعهم الشعري فحسب، بل أيضاً على وصاياهم لبنيهم قبل الموت، فعنوانه الكامل هو (المعمرون والوصايا).

والكتاب رواه تلميذ أبي حاتم (أبو روق الهزاني) وربما كان هذا التلميذ تصرَّف قليلاً فيما سمعه عن أستاذه السجستاني فقد يزيد أو ينقص أو يؤكد رواية أبي حاتم بروايات أخرى سمعها من غيره.

ويرى ناشر الكتاب « أنَّ القارئ لِسِيَرِ المعمرين وأخبارهم وأشعارهم التي وردت في كتاب المعمرين ليدرك أنَّ الشعر في غالبهِ يرجع إلى قبائل جنوب بلاد الجزيرة العربية ــ (الحميريين)، لفظاً ومعنى ونظماً، وأنَّه يعود إلى عصر الجاهلية حقيقة. وليس ببعيد أن يكون بعض هذا الشعر منظوماً في العصر العباسي، وقد نُسِب إلى العصر الجاهلي زيفاً وبُهْتاناً من خلف الأحمر، أو محمد بن سلاّم كما يذهب بعض النقاد للشعر الجاهلي، اعتماداً على المقاييس النقدية التي تمتاز بها العصور الأدبية. ولكنَّ هذا التشكيك بعيد الاحتمال» (صفحة ج و ط).

والذي يبدو لنا أنَّ شكًّا عريضاً يحوم حول هذه الأشعار المسوقة في كتاب (المعمرون)، ولسنا نوافق المحقق على توثيق هذا الشعر، أو بالأصح لا نوافقه على توثيق جميع هذا الشعر، ذلك أننا لا نجد لبعضه أيَّ ذِكْرٍ في كتب التراث الأخرى، كما أننا نلاحظ سهولة تعابيره وبساطة بنيته الفنية، ونلاحظ بُعْدَ منهج القصائد الواردة فيه عن المنهج الشائع والمعروف في كثير جداً من القصائد التي تنتمي حقاً إلى الشعر الجاهلي.

ومع ذلك فإنَّ الشكَّ في أشعار الكتاب لا يمنعنا من تعرف منهج هذا الكتاب ومضمونه، فهو يذكر اسم المُعَمَّر ونَسَبَهُ، ويشير إلى بعض أخباره، ويسوق بعض أشعاره، ويذكر دوماً الروايات التي تَحَدَّثت عن عمره. وقد كانت العرب لا تجعل الرجل مُعَمّراً حتى يبلغ من العمر مائة وعشرين سنة. والمعمرون الذين روى أبو حاتم أخبارهم بلغوا في روايته أعماراً تتراوح بين عشرين ومائة سنة، ومائتين أو أكثر من مائتين.

ولكن ما ذكره أبو حاتم عن أعمار هؤلاء لايمثل واقع العدد بقدر ما يمثل طول الأبد.

وقد كان التاريخ عند الجاهليين غائماً مهملاً، فهم يؤرخون بأحداث وقعت لهم أو بأزمة أصابتهم، أو بعامل يكون عليهم، أو بوقعة حربية فاصلة، أو بخروجهم من بلد إلى آخر... الخ.

ومن أمثلة ذلك قول الربيع بن ضبع الفزاري:

ها أنذا آمل الخلودَ وقدْ	أدرك عقلي ومولدي حُجْرا
أبا امرئِ القيسِ هلْ سمعتَ بِهِ	هيهاتَ هيهاتَ طالَ ذا عُمْرا

فأرَّخ عُمْرَهُ بزمنِ حُجْرِ بن عمرو الكنديّ والد امرئ القيس ـ الشاعر الجاهلي المعروف.

وطول أعمار الأولين يثير مسألة المقارنة بيننا وبينهم، فمن الراجح أنهم كانوا أطول أعماراً، والمعمرون بينهم أطول عمراً من المعمرين بيننا، بسبب طيب المناخ وبرودة الطقس.

وقد بيَّنتِ البحوث العلمية أن الإنسان قادر على أن يحيا (١٥٠)سنة، إذا عرف كيف يتحكم في أعصابه، فلا يدع التلف يدب إليه باستسلامه لانفعالاته من غضب أو حزن أو حقد أو قلق، فتثور غدده، وتصبُّ في دمه مواد كيماوية يؤدي بعضها إلى ضعف الأعضاء وعجزها عن أداء وظيفتها، ومن هنا لا نستطيع إلا أن نقر بوجود المعمّرين، جاعلين عدد السنوات التي يذكرها أبو حاتم لهم في كتابه هذا تدل على طول الأبد، وليس على دقة العدد، كما ذكرنا من قبل.

ولكن هل ذكر أبو حاتم كل المُعمَّرين ؟ الجواب: لا، لأن هذه الإحاطة والاستقصاء لم يكونا شرطاً له في كتابه، ويبدو أنَّ هدفه الأبرز كان اختيار الحكم والأمثال التي تفوَّه بها المعمرون في أواخر حيواتهم.

واختيارات السجستاني تفيدنا، إذا وثقنا بها، في معرفة المعاني التي تعاورها المعمرون في أشعارهم، فهم مثلاً يشبهون الشيب بالضيف المكروه، يقول بعضهم:

ضيفٌ بغيضٌ لا أرى لي عُصْرةً منهُ هربتُ فلمْ أجدْ لي مَهْرَبا

ومن معانيهم المتداولة التعبير عن الغصَّة والأسى على قُوَّتهم التي تضارع قوة الأسود في شبابهم، وضعفهم الذي آلوا إليه، وصيَّرهم إليه الدهرُ الخؤون الأعجب:

ولقدْ أراني والأسُودُ تَخافُني وأخافني منْ بعدِ ذاكَ الثعلبُ
وإذا رأيتَ عجيبةً فاصبِرْ لَها والدَّهْرُ قدْ يأتي بما هو أعجبُ

ومن الأعلام الواردة تراجمهم في هذا الكتاب: زهير بن جناب الكلبي، وعامرُ بن الظرب العدواني، وعمرو بن حممة الدوسي، والربيع بن ضَبُّع الفزاري، والأَفْوَه الاودي، وآخرون كثيرون. ولسنا هنا بصدد التفصيلات الواسعة، وحسبنا أن نقدم فكرة ما عن كتاب من كتب تراثنا الغني الخالد أُلِّف في القرن الثالث الهجري.

الفاضل

للمبرِّد (٢٨٥ / ٨٩٨)

المُبَرِّد عَلَمٌ بارزٌ جداً من أعلام تراثنا العربي الباذخ، وهو من مواليد البصرة في السنة ٢١٠ هـ، وقد اعتمد على مؤلفاته الجَمَّة الدارسون والمؤلفون، في القديم والحديث معاً، وكتابه « الكامل في اللغة والادب » لا يزال حتى اليوم يدرس في الجامعات، وفي أقسام اللغة العربية من كليات الآداب فيها.

واسم المُبَرِّد العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثُّمالي الأزدي البصري، وهو إمام اللغة العربية ورأس النحاة البصريين في زمانه. وقد كان، كما وصفه عارفوه، من العِلم، وغزارة الأدب، وكثرة الحفظ، وحسن الإشارة، وفصاحة اللسان، وبراعة البيان، وملوكية المجالسة، وكرم العشرة، وبلاغة المخاطبة، وجودة الخط، وصحة القريحة، وقرب الإفهام، ووضوح الشرح، وعذوبة المنطق، على ما ليس عليه أحد مِمَّن تقدَّمه أو تأخَّر عنه.

تلقى المُبَرِّد علمه على أيدي شيوخه الكبار، أمثال أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني والرياشي والجرمي، وأخذ العلم عنه أبو بكر الصولي ونفطويه وأبو علي الطوماري والأخفش الصغير وغيرهم وغيرهم... وكان من خصومه الألداء عَلَمٌ لغوي كبير يدعى (ثعلباً)، وثعلب أحد زعماء مدرسة الكوفة، ومن كتبه المطبوعة: مجالس ثعلب، وقواعد الشعر، وشرح ديوان زهير بن أبي سُلْمَى.

ولقد عاش المُبَرِّد حياة حافلة بالعلم والدرس والعطاء، وكما كان لخصمه (ثعلب) مجلسٌ للعلم، كمان للمبرد مجلس آخر يؤمُّهُ العلماء والأدباء والشعراء، ولما مات عام (٢٨٥هـ) عبَّر أحد الشعراء عن مدى الخسارة الكبيرة التي أصابت الأدب بوفاته فقال:

ذهب المبردُ وانقضت أيامُهُ ... وليذهبنْ إثرَ المبرد ثَعْلَبُ

بيت من الآداب أضحى نصفُهُ ... خرباً وباقي بيتها فسيخرَبُ

فـابكوا لمـا سَلَبَ الزمـانُ ووطِّنـوا   للدَّهـرِ أنفسَكُم على مـا يسـلُبُ

ومن الجدير بالذكر أن هذا العالم العظيم استحق أن يكون موضوعاً لرسالة دكتـوراه تقدم بها السيد حازم طه مجيد إلى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام ١٩٧٣.

هذا، وقد خلف لنا المبرد اثنين وستين كتاباً أحصاها جميعاً الدكتور رزوق فـرج رزوق عام ١٩٧٤ في مقال له نشره في مجلة المورد العراقية، وقد دل على المخطوط والمطبوع منها، فذكر مثلاً من كتبه المطبوعة: **الكامل في اللغة والأدب، وشرح لامية العرب، ونسب عدنان وقحطان، والمقتضـب، والمذكر والمؤنـث، والتعازي والمراثي**، وكتابه هـذا الـذي نتحدث عنه الآن: (**الفاضل**).

و(**الفاضل**) كتاب صغير لطيف، يقلُّ قليلاً عن مائة وسبعين صفحـة، وهـو كتـاب أدب ولغة وشعر وحكم وأمثال وأخبار، وبعبـارة أخـرى، هـو مُصَنَّـف يـروِّح عـن النفـس، ويثقّف اللسان، ويمتع المتأدِّب، لما يحويه من مصفّـى الشـعر، ومنخـول النـثر، وروائـع الخطبـة، وبليغ الرسائل، وظريف الأخبار، وغريب اللغة والنوادر.

وقد عثر على هذا الكتـاب المرحـوم عبـد العزيـز الميمـني في أثنـاء تطوافـه في خزائـن استانبول بتركيا، وهي ملأى بالمخطوطات العربية النفيسة، كغيرها مـن المـدن التركيـة، فقـام بنسخه وتحقيقه، وقدمـه لـدار الكتـب بمصر عـام ١٩٣٨ فقـامت بطبعـه، وقـد أعيـد طبعـه بالتصوير مرة ثانية في الآونة الأخيرة.

أمـا منهـج الكتـاب ومادتـه ، فقـد سـلك فيهمـا المبرد وِفـاقَ مـا سـلكه في منهـج «الكامل» ومادته، وهو منهج كان يحكـم أكـثر كتـب الادب الـتي أُلِّفـتْ في القـرن الثـالث الهجري، كالبيان والتبيين للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة. فالمؤلف سرعان مـا يَثِـبُ مـن فكرة إلى فكرة، ومن طرفة إلى أخرى، لغرض الترويح عـن القـارئ، ودفـع الإمـلال والسـأم اللذيـن قد يصيبانه في مطالعة مثل هذه المؤلفات. وبإيجاز فإنَّ (الفاضل) صورةٌ مصغَّرة عـن (الكامل).

وبُغية إعطاء فكرة عن مضمون هـذا الكتـاب نسـوق هـذه الأخبـار والاشـعار الـتي حواها، والتي تبين منهج المبرد في تآليفه اللغوية والأدبية.

قال المبرد في فاتحة كتابه:

« حدثني أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي: روى لنا أشياخنا أنَّ رسـول ا لله ﷺ كان يستحسن الشعر وينشده من أهله، ويثيب عليه قائله، ثم يروي أنَّ شاعراً أنشـده مدحاً في ا لله ومدحاً فيه، فأثابه على مدحه لله، ولم يثبه على مدحه له ... وكـان يقـول: إنَّ من الشعر لحكمةً، وإنَّ من البيان لسحراً، وكان حسان بن ثابت شاعره، ويـروى أنـه أنشـده في كلمة له يقول فيها :

لَـوْ لَمْ تكـنْ فيـه آيـاتٌ مبّينـةٌ كـانتْ بداهتُـهُ تنبيـكَ بـالخَبَرِ

فأُعجب بذلك ﷺ وأثاب حسَّاناً ودعا له ».

ومن الطرف الرائعة التي ساقها في كتابه، والتي تحكي وفاء الحيوان وإخلاصـه، هـذه التي سمعها عن جابر بن سليمان الأنصاري الذي روى عنه عمه عثمان بن صفوان الأنصاري، قـال: « خرجنـا في جنـازة علـي بـن الحسـين رحمـة ا لله عليهمـا، فتبعتنـا ناقتـه تخـطُّ الأرض بزمامها، فلما صلينا عليه ودفناه، أقبلت تحنُّ وتردد، وتريد قبره، فأوسعنا لها، فجـاءت حتـى بركت عليه وجعلت تفحص بكركرتها وتحنّ، فوالله مابقي أحدٌ إلاّ بكـى وانتحـب. وقـال: وبَلَغَنا أنّه حجَّ عليها ثماني عشرة حجّة أو تسـع عشـرة حجّـة لم يقرعهـا بعصـا ! » ـ (ص ١٠٥).

وفي فصل آخر عن الشعر والفصاحة قال المبرد: (وحـدَّثَ أبـو عبـد ا لله محمـد بـن سلاّم الجمحي قال: رأيت أعرابياً من بني أُسيد أعجبـني ظرفُـهُ وروايتـه، فقلْـتُ أيهمـا أشـعر عندك ؟ فقال: بيوت الشعر أربعة: فَخْرٌ ومَـدْحٌ وهجـاءٌ ونسيبٌ، وفي كلهـا غلـب جريـر، فالفخر قوله:

إذا غضبتْ عليكَ بَنُو تميمٍ ... حَسِبْتَ النَّاسَ كلّهُمُ غِضابا

والمدح قوله:

ألستُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا ... وأنْدَى العالمينَ بطونَ راحِ

والهجاء قوله:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فلا كعباً بلغْتَ ولا كِلابا

والنسيب قوله:

إنَّ العيونَ التي في طَرْفِها مَرَضٌ ... قتلْننا ثُمَّ لمْ يُحْيِيْنَ قتْلانا

وقال أبو عبد الله: والنَّسيب عندي قوله:

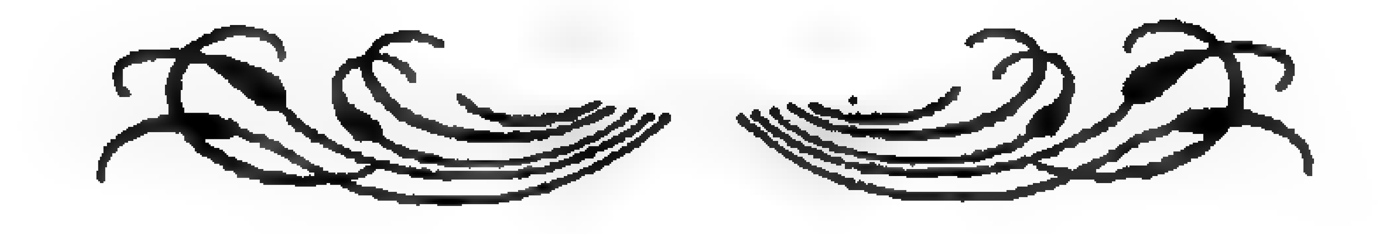
ولمَّا التقى الحَيَّان أُلْقِيَتِ العَصا ... وماتَ الهوى لمّا أُصيبتْ مقاتلُه

فقلت للأُسَيِّدي: والله لقد أوجعكم (يعني في الهجاء)، فقال: يأحمق أَوَ ذاكَ يمنعه من أنْ يكون شاعراً » - (ص ١٠٩ - ١١٠).

وهنا نلاحظ روحاً موضوعية عالية تُكْبِر الشعر، وتُغْلي قِيَمَةُ الجمالية على أي قيم أخرى، فالأسيدي اعترف لجرير بسموِّ الشاعريّة، رغم أنَّ هجاءه في قومه كان مُوْجعاً !

وفي فصل في الجَمال قال المبرد: « يروى عن ابن كُناسة أنّه قال: الجَمالُ في الأنف، والحُسْنَ في العينين، والملاحة في الفم. وقال ابن عبَّاس وقد سُئِل عن المُحْدَثين وعن بني أُميَّة فقال: نحنُ أَصْبَحُ وأَسْمَعُ وأفْصَحُ » - (ص ١١٦).

وهكذا نرى المبرد ينتقل بنا من خبر إلى آخر، ومن طرفة إلى أخرى، فيُمتِّعنا ويـروِّح عنّا، ويشدُّنا إلى قراءة كتابه، ونحن على أشد ما نكـون مـن الشـوق والـترقب، لمـا تجـود بـه خواطره من ألوان ومنوعات. وقد كان ذلك كله يجيء على جناح لغة جميلة وعبـارة رشيقة صقيلة.



الورقة

لمحمد بن داود بن الجرّاح (٢٩٦ / ٩٠٨)

يُعَدُّ هذا الكتاب من طلائع الكتب التي أُلفت في تراجم الشعراء ـ فقد ألفه أبو عبدالله محمد بن داود بن الجراح في القرن الثالث الهجري، فكان مع كتاب: طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، والشعر والشعراء لابن قتيبة، وطبقات الشعراء لابن المعتز، من المناهل الأولى التي اعتمد عليها من ألّف في الشعراء فيما بعد.

ومؤلّف الكتاب هو محمد بن داود بن الجراح المتوفى في السنة (٩٠٨/٢٩٦) قال عنه ابن النديم: (لم يُرَ في زمانه أفضل منه. وكان عالماً لقي الناس وأخذ عن العلماء والفصحاء والشعراء. وكتَبَ بخطّه مالا يُحْصى كثرةً).

ومن المعروف أن أباه داود بن الجرّاح قد ولي ديوان الزمام في عهد الخليفة المتوكّل. أما داود نفسه فقد تولّى ديوان المشرق، ثم ديوان الأشراف، فديوان الجيش. ولما بُويِعَ ابن المعتزّ بالخلافة صار وزيراً له. وحين قُتل هذا الخليفة بعد يوم وليلة، اختفى وزيرُهُ محمَّدٌ، ثم أسلم نفسه إلى أحد رجال دولة الخليفة المقتدر با لله، فأمر الخليفة بحبسه، ثم قُتل في العام (٢٩٦هـ) وهي السنة التي قتل فيها ابن المعتز أيضاً.

ومن مؤلّفات ابن الجراح: **أخبار الوزراء، والشعر والشعراء، وكتاب الأربعة في أخبار الشعراء، وكتاب الورقة.**

وكتاب الورقة هذا، كتاب لطيف يقع في (١٥٩) صفحة. وقد حققه الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستّار فراج، ونشره في القاهرة في سلسلة (ذخائر العرب ـ رقم ٩) في سنة ١٩٥٣.

وقيل: إنَّ المؤلف سمَّى كتابه هذا (الورقة)، لأنه كان يُترجم لكلّ شاعر من الشعراء بورقة. ولكن الحقيقة غير ذلك، فثمَّةَ ترجمات تزيد على أربع صفحات، وترجمات تقل عن صفحة واحدة. ولكنّه ربّما غلب الكثرة على القلّة، فمعظم التراجم لا يزيد على ورقة.

تضمَّن كتاب « الورقة » ثماني وخمسين ترجمة، وورد في بعض الترجمات ذِكْر لأكثر من شاعر، فكان عدد الشعراء ثلاثة وستين شاعراً.

والحقُّ أنَّ المؤلف ترجم لرجال لايُعْرَف عنهم أنهم شعراء بالدرجة الأولى، وان كانوا رجال أدب ورواة شعر. فهو مثلاً يترجم لمحمد بن عبد الملك الفقعسي، وهو راوية قبيلة أسد بن خزيمة وصاحب مآثرها وأخبارها. وذكره ابن النديم على أنه مؤلف كتاب (مآثر أسد وأشعارها). فالفقعسي إذن مصنِّفٌ، أكثر مما هو مبدع أو شاعر.

وحين يترجم للكسائي نجده يقول في (ص ٢٥): « علي بن حمزة، ويكنى أبا الحسن كوفي نزل بغداد، وأدَّب محمد بن الرشيد. وهو إمام الناس في النحو والقراءة، وأستاذ الفرَّاء وعلي بن المبارك الأحمر. وجمع الرشيد بينه وبين سيبويه، فخطَّأه الكسائي وغلاماه، فأمر الرشيد بصرْف سيبويه، وأمر له بعشرة آلاف درهم، فلم يدخل البصرة استحياء مِمَّا وقع عليه، ومضى إلى فارس فمات فيها. ويزعم البصريون أنه مات وله نيّف وعشرون سنة. وللكسائي أشعار حسان قليلة... ».

ولا يصحُّ أنْ نستنتج أنّ ابن الجرّاح قد اهتم فقط بالأعلام الكبار، كالكسائي، وهارون الرشيد، والأصمعي، وأبي يعقوب الخُرَيمي، وعلي بن جبلة ـ العَكَوَّك، إذْ نجده يترجم أيضاً لمغمورين أمثال أبي العذافر ـ ورد بن سعد، والبطين بن أمية البجلي، وخارجة بن فليح الملي، وميمون الحضري... إلخ.

وابن الجرَّاح في تراجمه للمشاهير وللمغمورين كان يعود إلى مصادر سبقته، أو عاصرته. ومن المؤلفين الذين عاد إلى كتبهم وأكثر من النقول عنهم: دِعْبِل الخُزاعي، وهو مؤلف كتاب في تراجم الشعراء، يقول ابن الجراح في ترجمته لأبي الجهم ـ أحمد بن سيف الأنباري الكاتب « شاعر محسن طريف... وأنشد دعبل لأبي جهم أحمد بن سيف في كتاب الشعراء:

أعـاذلُ ليـسَ البخـلُ مِنّي سـجيّةً ولكـنْ رأيـتُ الفقـرَ شـرَّ سَـبيلِ

... إلخ » - (ص ١٢٣).

وكذلك نقل ابن الجراح عن أبي هِفّان المهْزمي (٢٥٧/٨٧٠). والمرجَّح أنه كان ينقل عن كتابه المفقود (**الأربعة في أخبار الشعراء**). مما يضفي على كتاب الورقة قيمة إضافية. ونقل ابن الجراح أيضاً عن أبي خيثمة، واسمه أحمد بن زهير (٢٩٩ / ٩١١) في مواضع كثيرة... كما أفاد من مؤلفات هارون بن المنجم (٢٨٨ / ٩٠٠). ولهذا المصنف الأخير كتابان هامان الأول اسمه: **اختيار الشعراء** ، والثاني اسمه: **البارع في أخبار الشعراء المولدين**، وفيه جمع تراجم (١٦٥) شاعراً، أولهم بشّار بن برد، وآخرهم محمد بن عبد الملك بن صالح. ولكن ابن الجرّاح لم يكن لِيُسمّي دوماً الكتب التي ينقل عنها، فأفقدنا بذلك فرصة معرفة المصدر الدقيق لكل مقبوساته. ولا شك أن مؤلفات أخرى كانت من موارد **كتاب الورقة**، مثل كُتُب المرثدي، والجاحظ، وابن سلاّم، وابن قتيبة... الخ.

بَيْدَ أنَّ كتاب الورقة هذا الذي بين أيدينا اليوم، ليس كتاب الورقة كما جَفَّ عنه مداد مُؤلِّفه، بدليل أن كتباً أخرى في تراجم الشعراء والمؤلفين نقلت نصوصاً عنه، لم يحوها هذا الكتاب المطبوع. وقد أشار إلى ذلك محقق الكتاب في مقدمته.

ولقد عثرتُ في أثناء مراجعاتي في كتب التراث على بعض تلك النصوص الساقطة من كتاب « الورقة » المطبوع، ولم أتقصَّ جميع كتب التراجم لغرض استدراكات النواقص هاهنا، وإنما كانت الرغبة في إثبات هذه الفكرة هي الأساس، وعلى سبيل المثال وجدت في كتاب (**وفيات الأعيان**) لابن خلكان (٦٨١ / ١٢٨٢) ترجمة لديك الجن الحمصي، أفاد منها ابن خلكان من كتاب « **الورقة** »، يقول ابن خلكان: « أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب... الكلبي الملقب ديك الجن. الشاعر المشهور. وذكر ابن الجراح في كتاب « **الورقة** » أنه مولى لطيِّئ، والله أعلم. أصله من أهل سلمية ومولده بمدينة

حمص... » - (وفيات الأعيان ج٣ ص١٨٤). وقد أشار الدكتور إحسان عباس ـ محقّق الوفيات، إلى خلو كتاب الورقة من هذا الخبر.

وكذلك وجدت الصفدي (٧٦٤ / ١٣٦٢) يقول في كتابه (**الوافي بالوفيات**) في أثناء ترجمة إبراهيم بن العباس الصولي:

« هو أبو اسحق الصولي الأديب أحد الشعراء المشهورين والكتاب المذكورين له ديوان شعر مشهور... قال محمد بن داود بن الجراح في كتاب **الورقة** : أشعارُهُ قِصار، ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة، وهو أنْعَتُ الناسِ للزّمان وأهله، غير مُدافع » - (الوافي بالوفيات ج٦ ص٢٤ - تحقيق س. ديدرينغ. بيروت ١٩٨١). وقد أشار محقق الوافي إلى أن هذه الترجمة للصولي لم ترد في كتاب الورقة المطبوع. وهو على صواب في ذلك.

وكذلك عثرت في الكتاب ذاته على ترجمة أخرى لشاعر اسمه: حمدان بن الحسن الجرار، قال فيها الصفدي: إنَّ أبا عبدا لله محمد بن داود بن الجراح الكاتب قد ذكره في كتاب **الورقة في أخبار الشعراء المحدثين** من جَمْعِهِ، وذكر أنه بغدادي ماجن معتضدي ـ (الوافي بالوفيات ج١٣ ص١٦٢ - ١٦٣ تحقيق محمد الحجيري، بيروت ١٩٨٤). ولم ترد ترجمة الشاعر حمدان بن الحسن الجرار فيما طبع من كتاب الورقة - وقد لاحظ ذلك المحقّق (محمد الحُجيري) في حاشية له في الجزء الذي حققه من كتاب : الوافي بالوفيات.

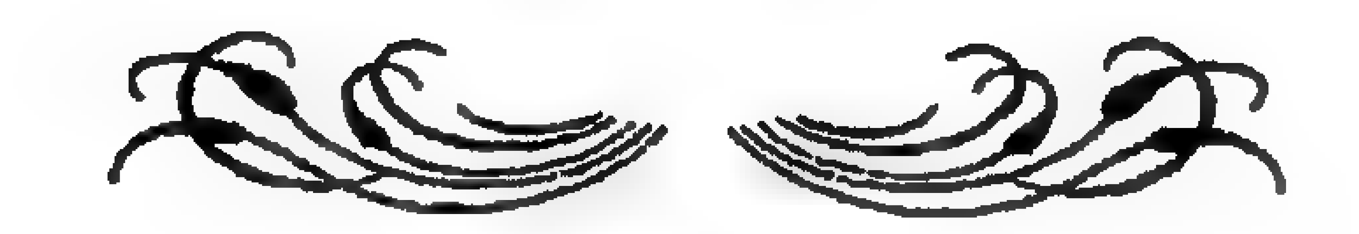
وفي الجزء الثالث عشر من الوافي أيضاً، إشارة إلى تراجم أخرى كان محمد بن داود ابن الجراح قد ذكرها. ولكننا لا نستطيع أن نبتَّ في أنها من كتاب الورقة، لأنَّ لابن الجرَّاح كما قدمنا كتباً أخرى في التراجم - (انظر الوافي بالوفيات ج١٣ ص ٢٤٧ و ص ٤٦٥). وقد كانت الترجمة الأولى لخالد بن أبان أبي الهيثم الكاتب الشاعر الذي ذكره ابن الجراح وقال فيه: « شاعر يطيل ويمدح، وله القصيدة التي في طرد النعام. ألف بيت رجز ». والترجمة الثانية لداود بن جهور الأواني أبي علي (الكاتب). قال فيه ابن الجراح: « كاتب رسائل فصيح اللسان، كثير التنفع في رسائله، له رسائل جياد، ومن شعره...».

ولكن الصفدي أفادنا فائدة أخرى في نُقُوله عن ابن الجراح، إذ حدّد ووضّح اسم كتابه هذا، الذي نناقشه هنا. فقال فيه: **الورقة في أخبار الشعراء المحدثين**. وقد صدق

الصفدي في ذلك. فكل الشعراء والأعلام الذين تُرْجِمَ لهم في كتاب الورقة المطبوع، كانوا محدثين نسبياً، إذ لانجد شاعراً جاهلياً أو إسلامياً أو أموياً.

وتوجد في كتاب (**المحمدون من الشعراء**) للقفطي (٦٤٨ / ١٢٤٨) (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ص ٣ و ٤ و ١٧٤) ترجمتان أفاد منهما القفطي من كتب ابن الجرّاح، ولكننا لانعرف بدقّة هل كان مصدره كتاب **الورقة**، أو كتباً أخرى لابن الجراح. لذا أحجمنا عن إيرادهما هنا.

ورغم ما تقدم يبقى كتاب « **الورقة** » مصدراً من مصادر الشعر والشعراء قبل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي. وليس في وسع الباحثين في الأدب القديم الاستغناء عنه وإنْ كان في وسعهم إكمال نقصه والاستدراك عليه، كما فعلنا نحن هنا على سبيل التمثيل، وليس على سبيل الاستقصاء.



شَجَرُ الدُّرِّ

لأبي الطيِّب اللغوي (٣٥١ / ٩٦٢)

الكتاب الذي نتحدَّث عنه هنا من كُتُب فِقْهِ اللغة القديمة عامة، ومن كُتُب المشترك اللفظي خاصة.

ونعني بالمشترك اللفظي اشتراك الكلمة باللفظ الواحد، ودلالتها في الوقت نفسه على معان مختلفة، منها الحقيقي ومنها المجازي.

وربّما كان أوَّل من ألّف في هذا الجانب من اللغة أبو عُمَر المطرِّز البغدادي (٣٤٥هـ) صاحب كتاب : المداخل، وهو فصول رواها عن أستاذه ثعلب، ورواها ثعلب، من قبل، عن ابن الأعرابي وغيره.

كما ألّف فيه محمّد بن يوسف بن عبد الله السرقسطي (٥٣٨ هـ) صاحب كتاب: المسلسل في غريب لغة العرب.

أمَّا مُؤلِّف كتاب « شجر الدُّر في تداخل الكلام بالمعاني المختلفة » فهو أبو الطيِّب اللغوي المتوفَّى في السنة (٣٥١ هـ)، وهو صاحب عدة كتب في اللغة، نُشر بعضها، والبعض الآخر لا يزال مخطوطاً. ومِمَّا نُشِر له: كتاب مراتب النحويين، الذي حققه محمّد أبو الفضل إبراهيم، وكتاب المثنى، وكتاب الإبدال، وقد طُبعا بدمشق بتحقيق عز الدين التنوخي، وكتاب الأضداد في كلام العرب، ونشره بدمشق أيضاً الدكتور عزة حسن و(شَجَر الدر) هذا الذي نتحدّث عنه.

والكتاب الذي بين أيدينا ـ حقَّقه محمد عبد الجواد، وظهر في القاهرة، منذ زمن بعيد نسبيّاً ـ مُكوَّن من فاتحة وستّ شجرات. والشجرة الأولى، مثلاً، مؤلّفة من خمسة فروع، كل فرع يبدأ بلفظ جديد، هو شرح للفظة الأولى، التي بدأت بها الشجرة، والشجرة الثانية مؤلفة من /١٢/ فرعاً، والثالثة من /١٠/ فروع وهكذا...

ولعلّ خير ما نوضّح به مضمون الكتاب أنْ نذكر ما قاله المؤلف فيه (ص ٥٩) وهو: « هذا كتاب مداخلة الكلام بالمعاني المختلفة سمّيناه: شَجَر الدُّرِّ، لأنّا تَرْجَمْنا كل باب منه بشجرة، وجعلنا لها فروعاً، فكل شجرة مائة كلمة، أصلها كلمة واحدة، تتضمن من الشواهد عشرة أبيات من الشعر، وكل فرع عشر كلمات، فيها من الشواهد بيتان، إلاّ شجرة ختمْنا بها الكتاب، لا فَرْعَ لها ولا شاهد فيها، عدد كلماتها خمسمائة كلمة، أصلُها كلمةٌ واحدة، وفي آخرها بيت واحد من الشعر. وإنّما سمّينا الباب من أبواب هذا الكتاب شجرة، لاشتجار بعض كلماته ببعض، أي تداخله، وكل شيء تداخل بعضه في بعض فقد تشاجر، ومنه سمّيت الشجرة شجرة، لتداخل بعض فروعها في بعضٍ...».

ولنأخذ نموذجاً من الكتاب يوضّح طريقة المؤلف ومنهجه، فهو مثلاً في الشجرة رقم «١» يبدأ بكلمة « الصّحن » ثم يتدفّق قائلاً: «الصحن: قدح النبيذ، والنبيذ الشيء المنبوذ، والمنبوذ اللقيط، واللقيط النّوى، والنوى الشّحط، والشّحط الذبح، والذّبح الشّقّ، والشقّ... الخ». وحينما يصل إلى الفرع «١» من الشجرة ذاتها يعود فيبدأ من جديد - «ص ٣٧» - «والصحن: إصلاح الشعب، والشّعب الرفو، والرفو السكون، والسكون جمع سكن وهو النار، والنار الوشم، قال الشاعر:

فقد تَرك الصلاءُ بهنّ نارا   المحنّ وهنّ أغفالٌ عليه

والفرع الثاني أيضاً، يبدأ بكملة (الصحن)، ويأتي أبو الطيب بمعانٍ جديدة مسلسلة له، ولمعاني معانيه (ص ٨٠)، والشيء ذاته يقال عن: الفروع ٣ و ٤ و ٥ فكل منها يبدأ بكلمة (الصحن).

وأمّا محور الشجرة الثانية فهو كلمة (الهلال)، والثالثة (الثور)، والرابعة (العين)، والخامسة (الرؤية)، والسادسة (النعل).

وهكذا نرى أنَّ هذا اللون من التأليف اللغوي يحاول نظم مجموعة من المفردات في سموط عجيبة تربط حبّاتها وشائج من المعاني اللطيفة، وبها يتنقل القارىء من لفظةٍ إلى أخرى على خيط من المعنى المشترك يجمع بينها.

ومن خلال هذه الرياضة اللغوية الماتعة يتم تحصيل أكبر ثروة لغوية ممكنة، ويقع استذكار معاني مفردات اللغة دونما سأمٍ أو ملل، وتوضَع لبنةٌ من لبنات المعجم العربي الشامل.

وأخيراً ليس لنا سوى أنْ نُكبر جهود لغويِّينا القدامى، وأن نثني على عبقرية أبي الطيب اللغوي، الذي كان من أبرز هؤلاء اللغويين وأعلاهم مكانة وقدراً.



معجم الشعراء

للمرزباني (٣٨٤ / ٩٩٤)

مؤلّف هذا المعجم هو محمّد بن عُمران أبو عبيد الله المرزباني المولود في بغداد سنة (٢٩٧ / ٩٠٩) والمتوفّى سنة (٣٧٨ هـ) أو (٣٨٤ هـ) في رواية أخرى.

وينتمي المرزباني إلى أسرة علم وأدب خراسانية الأصل، وكلمة مرزبان تعني باللغة الفارسية: حافظ الحدّ. ومما يروى انه كان في بيته خمسون ما بين لحاف ودواج مُعدَّة لأهل العلم الذين يبيتون عنده. ولقد خلف لنا المزرباني /٥٥/ خمسة وخمسين كتاباً حسب إحصاء الدكتور (رمضان عبد التواب) لها في كتابه (مناهج تحقيق التراث ص٢٨٥-٢٨٧) يبلغ مجموع أوراقها حوالي (٤٧٠٠٠) ورقة. ولسوء الحظ لم يصل إلينا من هذه الكتب الكثيرة سوى الكتب التالية:

١- الموشح، وقد طبع في مصر بتحقيق علي محمد البجاوي في السنة ١٩٦٥.

٢- أخبار السيد الحميري، وحقّقه محمد هادي الأميني، وطبع في النجف في السنة ١٩٦٥.

٣- أخبار شعراء الشيعة، وحقّقه محمد هادي الأميني، ونشره بالنجف في العام ١٩٦٨.

٤- كتاب معجم الشعراء، وهو الذي سنتحدث عنه هنا.

ومعجم الشعراء هذا ثمرة من ثمرات التصنيف والتأليف في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، الذي بلغ فيه الفكر العربي والحضارة العربية شأناً كبيراً، ومستوى رفيعاً من النضج والعمق والاتساع والتشعب والتنوع. وقد كرَّس المزرباني معجمه لتراجم الشعراء بعد أن سبقه الى هذا الضرب من التأليف ابن سلام الجحمي والجاحظ وعمر بن شبَّة

وابن قتيبة وعلي بن يحيى المنجم ومحمد بن داود بن الجراح والأصفهاني والآمدي وآخرون كثيرون...

وتألّف هذا المعجم، لحظة فرغ منه صاحبه، من (١٠٠٠) ورقة (الفهرست ـ طبعة رضا تجدد ص ١٤٦). ولكن هذه الأوراق الألف لم تصل الينا كاملة، بل وصلنا منها قطعة تعادل خُمْس الكتاب، فقد بلغ مجموع تراجم الجزء المطبوع الذي بين أيدينا نحو ألف شاعر. في حين ترجم المرزباني في كامل كتابه لنحو (٥٠٠٠) خمسة آلاف شاعر أنجبتهم العبقرية العربية الشعرية من الجاهلية حتى زمانه.

وقد نشر هذا الكتاب لأوّل مرّة على يد المستشرق الألماني (فريتس كرنكو) في القاهرة عام ١٣٥٤ هـ مع كتاب المؤتلف والمختلف للآمدي. وأعاد نشره ثانية المحقق المرحوم عبد الستار فرّاج بالقاهرة عام ١٩٦٠، مستقلاً عن كتاب المؤتلف والمختلف، ثم طبع بالتصوير في دمشق، بعد أن عزّت طبعته الثانية على الباحثين والدارسين.

والمنشور من هذا الكتاب هو الجزء الثاني منه. أما الأول فلا يعرف مكانه الى اليوم. وحتى هذا الجزء الثاني ضاعت منه صفحات شملت بعض الحروف، فحرف الغين ساقط منه، وكذلك حرف النون، وحرف الواو، عدا عن السقط في بعض الأسماء.

ويبدأ المطبوع من هذا المعجم بحرف العين، ولكنه لايَسْتَتِمُّه، فثمّة مئات من الشعراء العبادلة (جمع عبد الله) سقطوا من الأصل الذي أُخرج عنه الكتاب. فهو يبدأ بذكر من اسمه (عمرو). ومع ذلك لايستقصي كل هؤلاء الشعراء، فقد ذكر من بين من اسمه عمرو (١٩٢) شاعراً، في حين ترجم محمد بن داود بن الجرّاح (٢٩٦ / ٩٠٨) في كتابه (من اسمه عمرو من الشعراء) لِـ (٢٠٦) شعراء، ويفصل بين ابن الجرّاح والمرزباني نحو تسعين عاماً، لاشك أنه ظهر فيها شعراء كثر باسم (عمرو).

والحقيقة أن نشرة المرحوم فرّاج قد استدركت الكثير الكثير على ما جاء في نشرة (كرنكو) التي سبقتها بربع قرن، وقد بلغ مجموع ما استدركه فرّاج (٢٩٨) شاعراً لم ترد أسماؤهم في ما وصل إلينا من هذا الكتاب، بل ذكرتهم مصادر أخرى نقلت عنه قبل ضياع قسم منه، مثل كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي، والإصابة لابن حجر العسقلاني،

وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي، وفوات الوفيات له، والاشتقاق لابن دريد، وتهذيب تاريخ ابن عساكر، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد...الخ.

ومع ذلك فقد أصدر الدكتور إبراهيم السامرّائي كتاباً بعنوان: من الضائع من معجم الشعراء للمرزباني، عام ١٩٨٤، ذكر فيه ما مجموعه (٢٦٤) شاعراً، سقطوا من مطبوعة (معجم الشعراء)، وقد رتبهم ألفبائياً، وساق الأخبار المتّصلة بكل منهم، نَقْلاً عن المصدر الذي عاد إليه، وذكر في النهاية مصادر عمله هذا، فبلغت أحد عشر مصدراً...!

وبعد أن ظهرت أجزاء معيّنة من كتب تراثية أخرى قام الدكتور إحسان عباس باستدراكات أخرى على ما طبع من (معجم الشعراء) فعثر على أسماء أكثر من ثمانين شاعراً أحلّت بهم المطبوعة، ونشر عمله هذا في أحد أعداد مجلة الأبحاث الصادرة عن الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٨٥.

ويمكن للمرء أن يضيف إلى كل هذه الاستدراكات أيضاً أسماء شعراء أخر ترجم لهم المرزباني، وسقطت تراجمهم من كتابه المطبوع، وعلى سبيل المثال فقد وجدتُ، دون جهد استقصائي محكم، في كتاب الإكمال، لابن ماكولا، اسم شاعر سقط من جميع تلك الاستدراكات، وهو جُدَيٌّ بن تدُول الطائي ترجم له المرزباني في معجمه، ولم يرد اسمه بين الأسماء المشار إليها في الاستدراكات السابقة (انظر الإكمال ٢: ٦٣). وكذلك وجدت في كتاب: تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر - دمشق ١٩٨٦، (ج ٣٨ ص ٢٨٢) اسم شاعر يدعى (عبد الله بن محمد بن يزداد) وهو أبو صالح الكاتب، وأصله من مرو، وكان أبوه وزيراً للمأمون، وقد ذكره المرزباني في (معجمه)، وهو ليس بين استدراكات (فرّاج) أو (السّامرّائي) أو (عباس). ووجدت أيضاً شاعراً ثالثاً لم يذكر في الاستدراكات ذاتها. ورد في (تاريخ مدينة دمشق) لابن عساكر، دمشق ١٩٩٤، (ج ٣٧ ص ٢١٣) واسمه عبد الله بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، قال ابن عساكر: «وهو ابن أبي قطيفة الشاعر كان في زمان هشام بن عبد الملك وبينه مزاحمة في الشعر ذكره أبو عبيد الله المرزباني في كتاب معجم أسماء الشعراء ». ولم يرد فيما وصل إلينا من هذا الكتاب.

وندع ما سبق، لأنه ليس من همّنا هنا أن نتقصّى أسماء الشعراء الآخرين الذي ترجم لهم المرزباني في معجمه وسقطوا من مطبوعه، ونبقى على ثقة بأن جهداً يرصد كتب التراجم الأخرى التي ظهرت حديثاً في ثمانينيات وتسعينيات هذا القرن، مما ألّف بعد زمن المرزباني، سيؤتي أكله دون ريب، وسيستدرك صاحبه أسماء شعراء أُخر، لم يقع عليها الباحثون الذين قاموا بما يشبه هذا العمل من قبل.

بيد أنه من الأهمية بمكان أن نعرّف القارئ بمنهج الكتاب وطريقة صاحبه في التأليف، فالمرزباني كان يهتم بكل شاعر يصادفه، حتى وإن لم يبق من شعره سوى بيتٍ أو بيتين، وذلك عملاً بالميل إلى الاستيعاب... ومن هنا حوى « معجم الشعراء » حوالي خمسة آلاف ترجمة لخمسة آلاف شاعر - كما قدّمنا. ولا شك في أن شعراء العربية بلغوا إلى زمن المرزباني أكثر من خمسة آلاف شاعر بكثير.

ويفتتح المرزباني كتابه بذكر من اسمه (عمرو) فيذكر أولاً هذه الترجمة مثلاً:

«هاشم واسمه (عمرو) بن عبد مناف - واسمه المغيرة بن قصي - واسمه زيد - بن كلاب بن مرّة بن لؤي، وهاشم هو جد الرسول ﷺ ، ويكنى أبا نضلة، وفيه يقول مطرود ابن كعب الخُزاعي:

عمرو الذي هشمَ الثريدَ لقومِهِ ورجالُ مكّةَ مسنتونَ عِجافُ

ولمّا قصد البيت بعض من قصده، قال هاشم في رجز له: « عُذْتُ بما عاذ به إبراهيم» (معجم الشعراء ص ٣).

وفي وسعنا أن نعدَّ هذه الترجمة نموذجاً، من حيث الطول والقصر، على تراجم الكتاب بأسره، مع اختلافات يسيرة. وفي مقدورنا تفسير قصر الكلام على الشعراء برغبة المؤلف في استيفاء تراجم الشعراء الذين سبقوه - كما أوضحنا.

وإذا كان المرزباني قد بنى معجمه على أساس الترتيب المعجمي لأسماء الشعراء، فإنه لم يكن يراعي، في كثير من الأحيان، الحروف الثواني في تسلسل أسماء الشعراء المبدوئين

بحرف واحد، فهو مثلاً يذكر أولاً اسم (عمرو)، وبداخله يسوق بالترتيب (عميراً)، ثم يعود في (ص ٨٨) إلى ذكر من اسمه (عثمان). وفي (ص ١٠١) يذكر مباشرة من اسمه (عباس) ثم يأتي في (ص ١٠٥) بمن اسمه (عتبة)، وفي (ص ١٠٦) يورد من اسمه (عتاب). وفي (ص١٠٩) يجيء بمن اسمه (عُيينة)... وهذا مخالف للمبدأ المعجمي في ترتيب الأعلام حسب الحرف الثاني.

وقد اهتم المرزباني أيضاً بذكر زمن الشاعر أو عصره، كأن يشير إلى ارتباطه بشخصية معروفة، أو حادثة مشهورة، أو يوم من أيام العرب، أو يقول صراحةً هذا عباسي، أو إسلامي، أو مخضرم، أو جاهلي...الخ. وهنا لابد من التوقُّف عند هذه النقطة، فَنَعْتُ المرزباني لبعض الشعراء بأنهم جاهليون مثلاً، لايصح الركون إليه، وربما انطوى على بعض التجوُّز، أو الخطأ أحياناً، ففي (ص ٣٠٩) مثلاً ينعت المرزباني الشاعر (مغلّس بن لقيط بن حبيب بن خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان الأسدي) بأنه جاهلي، ومغلّس هذا، كما يتبيّن من نسبه، هو ابن حفيد خالد بن نضلة الذي يروى أنه كان رئيس قبيلة أسد في (يوم النسار). وقد تبيّن لنا في بحوثنا أن (يوم النسار) وقع على الأرجح بين سنتي (٥٨٣ - ٥٨٤م) (انظر كتابنا بشر بن أبي خازم الأسدي، بيروت ١٩٩١ ص ٦٤) وبالتالي فإن ابن حفيد خالد بن نضلة يصعب أن يكون شاعراً جاهلياً، وهو بالتأكيد شاعر مخضرم، إن لم يكن شاعراً إسلامياً.

ومن هنا نجد أن التسليم بجميع أحكام المرزباني، فيما يتصل بأزمان الشعراء، أو في نسبة الشعر إليهم، لا يستقيم، فهي أحكام - كغيرها من الأحكام الأدبية التي نعثر عليها في بعض كتب التراث - تحتاج إلى تمحيص وتحقيق وتوثيق.

وأخيراً نستطيع القول - رغم ما سبق - إن كتاب معجم الشعراء هذا كتابٌ ثمينٌ وقيِّمٌ لأنه نقل لنا أخبار شعراء لا نجد لهم ذكراً في غيره من كتب التراث، كما حوى نصوصاً تفرّد بروايتها لكثير من أعلام العرب في ميدان القريض، مما جعل الباحث في التراث العربي بحاجة ماسة إليه في بحوثه ودراساته المتصلة بالشعر والشعراء.

الفصول الأدبيّة

للصّاحب بن عبّاد (٣٨٥ / ٩٩٥)

من بين الكتب التي أصدرتها مديرية إحياء التراث العربي في وزارة الثقافة والإرشاد القومي في سورية كتاب (**الفصول الأدبية**)، لمؤلفه الصاحب بن عبّاد. وقد حقّقه الشيخ محمد حسن آل ياسين. ومحقق هذا الكتاب يكاد يكون متخصّصاً بتحقيق آثار ابن عبّاد. فقد أخرج له ما لا يقل عن أحد عشر كتاباً نذكر منها:

١ ـ الإقناع في العروض والقوافي.

٢ ـ الأمثال السائرة في شعر المتنبي.

٣ ـ ديوان الصاحب بن عبّاد.

٤ ـ الفرق بين الضاد والظاء.

٥ ـ الكشف عن مساوئ شعر المتنبي.

كما تولّى إخراج معجم ابن عبّاد (المحيط في اللغة) وهو سبعة مجلدات، أصدر منها حتى الآن جزأين. والشيخ محمد حسن آل ياسين، من ثمَّ، من الرجال الغير على التراث المخلصين في خدمته ونشر كنوزه، وممّا يُذكر له في هذا المجال نشره لمجموعة من المخطوطات النادرة دعاها «نفائس المخطوطات» وهي تقع في قسمين.

أمّا ابن عباد، فقد ولد في السنة ٣٢٤ هـ أو ٣٢٦ هـ وتوفي في السنة ٣٨٥ هـ، وكانت سنواته الستون هذه حافلة بالعلم والعطاء، فقد تتلمذ على ابن العميد، الذي كان الثعالبي يعدُّه وحيد عصره في الكتابة، والذي قيل فيه: «بُدئت الكتابة بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد» (يتيمة الدهر ٣: ١٨٣). كما تتلمذ على يد العلاّمة اللغوي الشهير أحمد بن فارس، صاحب معجم المقاييس. ومن شيوخه أبو سعيد السيرافي، وأبو بكر أحمد بن كامل بن شجرة، وأبو بكر محمد بن الحسن العطار المقرئ.

وممّا يدهش ويعمّق الإعجاب بابن عبّاد، ما رواه صاحب « يتيمة الدهر » من أنّ كتب ابن عباد تحتاج إلى أربعمائة بعير لنقلها... وقد روى ياقوت الحموي عنه قوله:

«مُدحت بمئة ألف قصيدة شعر عربية وفارسيّة، وقد أنفقت أموالي على الشعراء والأدباء والزُوّار والقصّاد.» (معجم الأدباء ٦: ٢٦٣).

وقد كان عطاء الصاحب بن عباد العلمي جمّاً، ومن أشهر كتبه: المحيط في اللغة، والكشف عن مساوئ شعر المتنبي، وهما مطبوعان، كما ذكرنا. وممّا طبع من آثاره: الإبانة عن مذهب أهل العدل، والتذكرة في الأصول الخمسة، ورسالة في الهداية والضلالة...الخ.

أما كتابه هذا « الفصول الأدبية » فهو لم يرد بين قوائم مؤلفاته، بَيْدَ أنّ المحقّق استنتج نسبته إليه من خلال عبارة وقع عليها في (**كشف الظنون**)، لحاجي خليفة، ولكنه عاد وأثار الشك في هذه النسبة، لاختلاف أسلوب هذه الفصول، عمّا هو عليه أسلوب الصاحب في كتبه الأخرى، والتمس تفسيراً لهذا الاختلاف في أن تكون هذه الفصول قد كتبت في أيام شباب الصاحب، وقبل أن يعلو كعبه في صناعة الإنشاء، وتطول باعه في الكتابة الفنية. كما استأنس بقدم تاريخ نسخ المخطوطة التي أخرج عنها هذا الكتاب المنسوب إلى الصاحب فيها، وهي مخطوطة يرجع تاريخ نسخها إلى أوائل القرن السابع الهجري.

والكتاب الذي نتحدث عنه هنا هو مجموعة من الرسائل (العبّاديَّة) التي كان يصحّ للمرء أنْ يحتذيها آنئذ، أو ينسج على منوالها في مخاطبة مَنْ هو فوقه، ومَنْ هو مثله، ومن هو دونه.

والكتاب مؤلّف من خمسة عشر باباً، وكل باب من هذه الأبواب مقسم إلى خمسة عشر فصلاً. وهذه الفصول تتألف من ثلاث مجموعات، كل واحدة منها خمسة فصول، يصحّ أنْ يخاطب فيها صاحب مرتبة من تلك المراتب الثلاث.

ويمكن لنا أن نمثّل لمنهج الكتاب بالآتي: فالباب الأول في (التلطّف) وهو في خمسة عشر فصلاً، يقول ابن عباد مثلاً في واحد من الفصول الخمسة الأولى: « إنْ قد غاب عنه ـ أدام الله عزه– وجهي، وطال عليه عهدي، لما غاب عن مكارمه ثنائي، ولاعن فَضْلِه رجائي، وكيف يغيب عنه الرجاء، وينقطع عنه الثناء، وهو قريعُ دهره في الكَرَم، ونسيج

وحده في بُعْدِ الهمم، والذي يُستَضاء بغرّته وتُنتَجَعُ رياض نعمته...» (ص ٤٨). ويقول في فصل من الفصول الخمسة الثانية، وهو خطاب موَجّه إلى من هو مثلك: « ما اعتَمدْتُ لكَ ياسيدي – أطال الله بقاك – لأمل إلاّ حقَّقْتَه وإن عَظُمْ، ولاذكرتُ لَكَ شيئاً سَلَفَ إلاّ عرفته وإنْ قَدُمْ. وقد أسعد الله تعالى من شام بَرْقَكَ، وتوسّم فَضْلَكَ...الخ » (ص ٥٢). وفي واحد من الفصول الخمسة الأخيرة من هذا الباب يقول، والكلام يصحّ أنْ يُوَجَّه إلى من هو دونك: « أنت – أطال الله تعالى بقاك وأدام عزَّكَ ونعماكَ – في خصالِكَ البهيّة وخلالِكَ المَرْضيَّة الزكيّة، تأتي في إسعاف الحاجات، وأداء الطلبات بما يليق بكرمكَ، ويليق بشيمكَ، لتجمعَ بذلك كلَّ مَحْمَدةٍ، وتحوزَ كلَّ رِفْعةٍ ومَنْقَبَةٍ...الخ » (ص ٥٥).

وعبارات هذه الرسائل تكشف عن أسلوب النثر الفني في كتابات القرن الرابع الهجري عامة، وعن خصائص النثر الفني في كتابات ابن عبَّاد خاصة. فقد اتصف هذا النثر بكثير من التكلّف والتصنّع، وباهتمام شديد بالسجع والمحسّنات اللفظيّة. وهذا ما لاحظه الدكتور عبد الوهاب عزام إذ قال: « إن الصاحبَ عُني في رسائله بالسَّجْع فلا ينفكُّ عنه إلا نادراً، كما عُني بطول الجُمَل وتحليتها بالبديع، وخاصة الجناسات والاقتباسات والتشبيهات والاستعارات، وإنَّ مَنْ يقرنُ رسائلَه إلى رسائل القاضي الفاضل، وحَلَبته من كتّاب العصور التالية ، يدركُ أنَّ هؤلاء الكتّاب إنّما استنّوا في رسوم كتاباتهم بالسَّنَنِ التي نراها عند الصاحب... وهي سَنَنٌ اقتفى الصَّاحب فيها أستاذه ابن العميد. ومن المعروف أنَّ ابن العميد تناول الكتابة ممَّن سبقوه وهي مليئةٌ بالسَّجْعِ...ولم يكتف ابن العميد بالسجْعِ فقد أضاف إليه البديع...ثم جاء الصاحب من بعده فارتفع بالكتابة الديوانيّة إلى الصورة التي وصفناها » (مقدمة الفصول الأدبية ص ٢٢).

ومِمَّا يُرْوى عن استبداد السجع بأسلوب الصاحب أن سَجْعة اضْطرَّتْهُ، وهو الوزير، إلى عزل قاضي مدينة قُمْ، فإنه قال يوماً: أيها القاضي بقم. ثم حاول أن يكمل السجع، فأعْنَتَهُ ذلك، فقال: « قَدْ عَزَلْناكَ فقُمْ » !

وهكذا فإنَّ هذا الكتاب يُعدُّ شاهداً من شواهد انزلاق العربيّة، على سعة بحرها، وغِنى ألفاظها وتراكيبها، إلى مهاوي التكلف والتصنع والزخرف، وهي صفات كانت تطبع

جُلَّ آثار النثر الفنّي في القرن الرابع، ولم يشذ عن تلك السنّة المَرْذولة سوى عَلَم شامخ من كتّاب القرن نفسه، هو أبو حيان التوحيدي، الذي كان يُعدُّ خَصْمَ الصاحب اللّدود، والذي نجا من سطوة مدرسةِ ابن العميد، وكان في ترسُّله وبلاغته خليفة للجاحظ، ذي العبارة الدقيقة المرنة المصورة المشرقة في الوقت نفسه، وهذا ما سيتضح أكثر في دراستنا التالية عن أبي حيَّان وكتابه (الصداقة والصديق) .



الصداقة والصديق

لأبي حيَّان التوحيدي (٤١٤ / ١٠٢٣)

يعدُّ أبو حيان التوحيدي من أكابر كتاب عصره، وعصره هو القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وقد لقَّبه (ياقوت الحموي) بأديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، وقال عنه (آدم متز): « ربّما كان التوحيدي أعظم كتاب النثر العربي على الإطلاق» (الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري ١ / ٣٩٤).

والتوحيدي هو عليُّ بن محمّد بن العبّاس، وقد اختُلِف في مسقط رأسه، فقيل: في شيراز، وقيل بنيسابور، وقيل بواسط، وقيل ببغداد...

ومن المعروف أن هذا اللقب «التوحيدي» قد لصق بصاحبنا لأنّ أباه محمّداً كان يبيع في بغداد نوعاً من التمر، اسمه «التوحيد»، فنُسِبَ الابن إلى لفظ يتّصل بحرفة أبيه. وثمة من يرى أنه هو الذي نسب إلى نفسه «التوحيد»، فعرف بالتوحيدي، كما سمَّى (ابن تومرت) أتباعه بالموحِّدين...

وما تقدم ينفي عن هذا الأديب ما توهَّمه بعض المعاصرين من أنه كان معتزلياً، فمن الثابت أن أبا حيَّان كان من ألدِّ خصوم المعتزلة.

وقد استخلص (عبد الرزاق محي الدين) نصوصاً من مؤلفات التوحيدي تنفي عنه الانحياز إلى الاعتزال، وتثبت عكس ذلك تماماً (انظر إحسان عباس، مجلة الأبحاث الجامعة الأمريكية - بيروت ١٩٦٦ ع ١٩ ص ١٩١).

وذكر أبو حيان في الليلة الثامنة من ليالي كتابه «الإمتاع والمؤانسة» ما يثبت كرهه لهؤلاء الذين آمنوا بعلم الكلام، وسموا بالمعتزلة. (وانظر شوقي ضيف ــ عصر الدول والإمارات ص ٤٥٣).

وفي الوقت ذاته نفى الدكتور (يوسف زيدان) أن يكون التوحيدي متصوفاً، أو شيخاً للصوفية، فسيرته لا تتسق إطلاقاً مع مبادئ التصوف وأعرافه، وأهمها الزهد والتقشف، ولئن افتقر أبو حيان وتقشف، إنَّ هذه الحال كانت فرضاً عليه لا اختياراً... وقد كانت حياته وقوفاً متتالياً على أعتاب الوزراء والكبراء، وحين يتحدث عن الصوفيين، كان ينعتهم بـ «الآخرين» أو «هذه الطائفة». وكتاب «الإشارات الإلهية» الذي قد يستشفُّ منه صوفية أبي حيان لم تثبت نسبته إليه، وقد شكك بذلك الدكتور (زيدان) في مقاله المنشور في مجلة الهلال (نوفمبر ١٩٩٥) بانياً شكه على حجج وأدلة معقولة. والحقيقة انه لو وصلت إلينا رسالتاه حول الصوفية، وأخبار الصوفية، لعرفنا على نحو أدقَّ موقفه من هذا المذهب في الحياة والدين، ولكنهما فُقِدتا لسوء الحظ.

حياة التوحيدي: ولد أبو حيان التوحيدي بين سنتي ٣١٠ ـ ٣٢٠ هـ طبقاً لرسالة له ذكرها ياقوت مؤرَّخة بالسنة ٤٠٠ هـ، يقول فيها التوحيدي: إنه كان آنئذٍ في عشر التسعين من عمره. وتوفي على الأرجح، نحو السنة ٤١٤ هـ.

وقد احتفل بألفية وفاته في جمهورية مصر العربية (عام ١٣١٤ هـ) وصدرت حوله وحول آثاره دراسات في أعداد خاصة، أو في محاور، لعدة دوريات عربية هامة، مثل أعداد (مجلة فصول) الثلاثة الخاصة بأبي حيان (١٩٩٥ و ١٩٩٦)، وعدد مجلة (أدب ونقد) (رقم ١٠٧) الذي ضم محوراً عنه، وعدد من مجلة الهلال (نوفمبر ١٩٩٥) وضم أربع دراسات عن التوحيدي.

نذكر ذلك وفي ذهننا كتب كاملة، سبقت هذه (الألفية)، وتناولت أبا حيان التوحيدي، فقد ألَّف عنه كتاباً قائماً برأسه كلٌّ من: زكريا إبراهيم، وعبد الرزاق محي الدين، وأحمد الحوفي، وإحسان عبّاس، وإبراهيم الكيلاني، ومحمود إبراهيم، وعبد الأمير الأعسم، وعبد الواحد الشيخ، وحسن ملكاوي، وعفيف بهنسي. وعالج هؤلاء حياةَ الرجل وآثاره وآراءه وعطاءاته وجهوده المختلفة، كلّ بحسب الزاوية التي انطلق منها.

ولا غرو أن يؤلَّف عن هذا الأديب الفيلسوف كلُّ هذه الدراسات، لأنه كاتبٌ طُلَعة، موسوعي المعرفة، متعدد المواهب، غزير التآليف، ضارب في كل علم من علوم عصره

بسهم، بل هو ـ كما يقول ياقوت: « فَرْدُ الدنيا الذي لانظير له ذكاءً وفطنةً، وفصاحةً ومكنةً، كثير التحصيل للعلوم في كل فنٍ، واسع الدراية والرواية». وعرف عنه أنه عربي قُحّ، وليس فارسيّاً، وقد دافع عن العرب ومآثرهم دفاعاً مجيداً، في الليلة السادسة من ليالي كتابه «الإمتاع والمؤانسة»، وفي المقابسة الثامنة من «مقابساته»، وفي المسألة الرابعة والثلاثين من كتابه «الهوامل والشوامل».

ولكنّ هذا الرجل العصامي العظيم عاش فقيراً ومات فقيراً، ونظراً لتواضع نسبه، ونكر نجاره، احترف مهنة الوراقة (نسخ الكتب)، وهي مهنة تشبه صنيع عامل المطبعة في زماننا. وقد كره التوحيدي هذه الحرفة، وسماها حرفة الشؤم، لأنها تُذْهب العمر والبَصَر، ولكنها، رغم ذلك، تتيح لصاحبها ثقافة عريضة وعميقة، كما هي الحال مع صاحبنا وصاحبها، وكما كانت الحال مع الجاحظ الذي احترفها أيضاً، ومع آخرين عاشوا في زمان أبي حيان، مثل أبي سعيد السيرافي ويحيى بن عدي، وبعد أبي حيان، كياقوت الحموي والقفطي.

حجَّ التوحيدي في السنة ٣٥٣ هـ، وتعرف بمكة مجموعة من الصوفيين، كابن الجلاء، والحراني، ولكنه لم يكن متصوفاً، على الأرجح، كما أشرنا.

وكان من قبل قد عقد أواصر صداقة في العراق مع مسكويه، وأبي سعيد السيرافي، وأبي سليمان المنطقي السجستاني، وأبي الوفاء المهندس، الذي قدمه إلى الوزير (ابن سعدان)، فألف له كتاب «الإمتاع والمؤانسة»، كما نفّذ نصيحة لهذا الوزير بتأليف كتاب آخر هو: «الصداقة والصديق»، وهو الذي سنقف عنده بعد قليل.

وممن عاصرهم التوحيدي وأقام صلات بهم الوزيران ابن العميد والصاحب بن عباد. ولكنه غادرهما مغضباً وخائباً، وكره عشرتهما وصحبتهما، فألّف في ذلك كتاباً سمّاه: «أخلاق الوزيرين»، وعُرف أيضاً بـ «مثالب الوزيرين».

وقد نُكِبَ التوحيدي غير مرة، وكما أساءت إليه الخاصة، أساءت إليه العامة، فقد نهبت داره في ثورة العامة ببغداد في السنة ٣٦٣ هـ، فخسر جُلَّ ما جمعه في شبابه، وعاش بعد ذلك في فقر مدقع، فانطلقت عقيرته تشكو وتتذمر، وتعبر عن الظلم والحيف اللذين

لحقا به. وقد عرف عنه تشاؤمه العميق المفرط، وخيبات أمله المتعاقبة من الناس عامة، ومن الأصحاب خاصة، واتسمت روحه بسوداوية غريبة. وفي لحظة يأس مُطْبِق أقدم أبو حيان على حرق كتبه في أواخر أيامه، خوفاً من أن يعبث بها ويسيء إلى صاحبها من لا يعرف قدرها... ولكن النسخ التي نقلت عنها قبل الحرق هي التي وصلت إلينا، أو وصل بعضها إلينا.

هذا، وعلى الرغم من تديُّن التوحيدي، وحجه، وإيمانه بالقرآن والسنة، طُعِنَ عليه في عقيدته، واتهم بالزندقة، فقد قال ابن الجوزي: «زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، وأبو العلاء المعري، والتوحيدي» وأضاف: إن الأخير شرُّهم، لأن الاثنين الأولين صرَّحا، أما الثالث فجمجم، ولم يصرح (انظر الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٢ ـ ٣٩).

أساتيذه ومؤلفاته: ذكرنا أن ثقافة أبي حيان اتصفت بالموسوعية والتنوع والعمق والشمول، فقد درس من علوم عصره: النحو واللغة والأدب والفقه والحديث والتصوف والفلسفة والمنطق والرياضيات والهندسة، لذا كثر شيوخه وتنوعوا: فقد درس النحو واللغة في بغداد علي أبي سعيد السيرافي والرماني، ودرس الأدب والمعارف العامة على القاضي أبي الفرج النهرواني، وهو فقيه وأديب وشاعر.ودرس الحديث على أبي بكر بن عبد ا لله الشافعي، والفقه على القاضي أبي حامد المروروزي. أما التصوف فعرف شأنه من جعفر الخالدي تلميذ الجنيد، ومن ابن سمعون، ولم ينتحله. وكان أساتذته في المنطق والفلسفة أبا سليمان المنطقي، ويحيى بن عدي، والنوشجاني، ومسكويه، وتتلمذ في الرياضيات والهندسة على أبي الوفاء المهندس، وهو الذي ـ كما ذكرنا ـ قدمه إلى الوزير ابن سعدان، وزير صمام الدولة البويهي، فجالسه أربعين ليلة، ثم عاد ونقل له ما دار في هذه الليالي في كتاب «الإمتاع والمؤانسة».

ولم يكن «الإمتاع والمؤانسة» كتاب أبي حيان الوحيد، فقد عَدَّ (ياقوت الحموي) لأبي حيان سبعة عشر كتاباً (انظر معجم الأدباء ١٥: ٧ ـ ٨)، وكذلك فعل الصفدي في (الوافي بالوفيات ج ٢٢ ص ٤٠)، في حين عَدَّ السيوطي من كتبه تسعة كتب، وأشار ابن

خلكان إلى خمسة، والذهبي إلى أربعة فقط.وهذه هي مؤلّفاته المطبوعة حسب ترتيبها الألفبائي:

١ ـ أخلاق الوزيرين: وطبع مرتين بدمشق، الأولى بتحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني عام ١٩٦١، والثانية بتحقيق محمد بن تاويت الطنجي ١٩٦٥ (طبع المجمع العلمي).

٢ ـ الإشارات الإلهية: طبع ما وصل منه، وهو غير كامل، بتحقيق عبد الرحمن بدوي بالقاهرة سنة ١٩٥٠، ثم بالكويت ط ٢ / ١٩٨١.

وحققته ثانية وداد القاضي ونشرته ببيروت سنة ١٩٧٣. ولكن الدكتور (يوسف زيدان) في مقالته المشار لها سابقاً (بمجلة الهلال) يشكك في أن يكون أبو حيان التوحيدي هو مؤلف هذا الكتاب.

٣ ـ الإمتاع والمؤانسة: وطبع بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين بالقاهرة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٤ في ثلاثة أجزاء، ومرة ثانية في القاهرة ١٩٥٣، ثم ظهر في بيروت (بالتصوير) بمكتبة الحياة سنة ١٩٥٧.

٤ ـ البصائر والذخائر، أو (بصائر القدماء وبشائر الحكماء): وطبع بالقاهرة بعناية أحمد أمين والسيد أحمد صقر سنة ١٩٥٣، وحققه عبد الرزاق محي الدين في بغداد سنة ١٩٥٤، ونشره الدكتور إبراهيم الكيلاني بدمشق في ستة أجزاء ١٩٦٤ ـ ١٩٦٦.

وحققته وداد القاضي ونشرته بتونس سنة ١٩٧٨، ثم صدر ببيروت بدار صادر سنة ١٩٨٨، بتحقيق القاضي نفسها.

٥ ـ رسائل أبي حيان: حققها الدكتور الكيلاني وطبعها بدمشق مرتين، كانت الأخيرة بدار طلاس سنة ١٩٨٥.

٦ ـ الرسالة البغدادية: حققها هايلدبرغ سنة ١٩٠٢، ثم نشرها عبود الشالجي في بيروت سنة ١٩٨٠ .

٧ ـ رسالة الصداقة والصديق: نشرت أولاً في القسطنطينية بمطبعة الجوائب بعناية أحمد فارس الشدياق سنة ١٣٠١ هـ، ثم نشرها الشيخ البحراوي بالقاهرة سنة ١٩٠٦، وحققها الدكتور الكيلاني ونشرها بدار الفكر بدمشق سنة ١٩٦٤، وظهرت مرة رابعة في

القاهرة بتحقيق علي متولي صلاح سنة ١٩٧٠، ثم أعادت دار الفكر بدمشق طباعتها ثانية بتحقيق د. الكيلاني عام ١٩٩٦، وسنفصل القول فيها بعد قليل.

٨ ـ المقابسات: وهي (١٠٦) مقابسات. وطبعت بالحجر في بومباي سنة(١٣٠٦ ـ ١٨٩٨ م)، ونشرت بعناية حسن السندوبي بالقاهرة عام ١٩٢٩، وحققها محمد توفيق حسن ببغداد سنة ١٩٧٠، ونشرت بطهران (مركز نشر دانشكاهي) سنة ١٩٨٧ م.

٩ ـ مناظرة بين أبي بشر متّى بن يونس القنائي وأبي سعيد السيرافي: طبعت بعناية مرجليوث في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بلندن ١٩٠٥، ونشرت بعناية حسن السندوبي بالقاهرة عام ١٩٢٩، وهي أصلاً جزء من كتابه (الإمتاع والمؤانسة).

١٠ ـ الهوامل والشوامل: وهي (١٨٠) مسألة دارت بين أبي حيان ومسكويه، وقد حققها أحمد أمين وسيد أحمد صقر بالقاهرة سنة ١٩٥١.

أما المؤلفات التي لم تصل إلينا، أو ربما وصلت ولم تطبع، فهي:

١ـ تقريظ الجاحظ.

٢ـ الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي، وهو سبب اتهامه بالزندقة.

٣ـ الرد على ابن جني في شرح شعر المتنبي.

٤ـ رسالة في أخبار الصوفية.

٥ـ رسالة الصوفية.

٦ـ رسالة في الحنين إلى الأوطان.

٧ـ رياض العارفين.

٨ـ الزلفة.

٩ـ المحاضرات والمناظرات.

ب ـ رسالة الصداقة والصديق

ذكرنا من قبل أن الدكتور الكيلاني قد طبع هذه الرسالة مرتين بدمشق، وكانت طبعته الثانية لهذه الرسالة في العام ١٩٩٦، وقد كان لنا عند هذه الطبعة وقفة، وفيها نظرة، نلخص أهم ما خلصنا إليه من خلالهما فيما يلي:

سبب التأليف: فالتوحيدي يذكر في البدء سبب تأليفه لهذه الرسالة فيقول: إنه ذكر أقوالاً في الصداقة والصديق أمام زيد بن رفاعة أبي الخير، وهو من جماعة إخوان الصفا، فنماه هذا إلى ابن سعدان الوزير، فسأل هذا الوزير أبا حيّان التوحيدي عن حقيقة ذلك، فأجابه: نعم قد حصل. فطلب ابن سعدان أن يدونه في كتاب.

وقد حبَّر أبو حيان كتابه هذا خلال ثلاثين عاماً. ولما كان قد ألَّفه في أواخر حياته، فإنه يُعَدُّ حصيلة خبرة طويلة بالناس، وثمرة معاناة مريرة للكاتب في زمانه، الذي ودَّعه وله من العمر تسعون عاماً تقريباً.

والحقُّ أنَّ أبا حيّان عزم على تأليف هذه الرسالة وفي نفسه حرقة وخيبة وشؤم وشك بالناس أجمعين، يقول مثلاً في هذا الصدد: «إذا أردت الحق، علمت أن الصداقة والألفة والأخوة والرعاية والمحافظة قد نُبِذتْ نبذاً، ورُفضت رفضاً، ووطئت بالأقدام، ولويت دونها الشفاه...» (الصداقة والصديق ص ٥٠).

وهو لا يتردد في القول: « يجب أولاً أن نثق بأن لا صديق ولا من يشبَّه بالصديق» (ص ٣٦).ويستعير دعاءً للخوارزمي يصدر به كتابه يقول فيه الخوارزمي: «اللهم نفّق سوق الوفاء، فقد كسدت، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت، ولا تُمِتْني حتى يبور الجهل كما بار العقل، ويموت النقص كما مات العلم» (ص ٣٠).

صفة الكتاب الأبرز: ورغم ذلك، فنحن واجدون في هذا الأثر الأدبي والإنساني أقوالاً في الصداقة والأصدقاء تجعل منه مجموعة من الاستشهادات على حالات نفسية وفكرية، وعلى مواقف اجتماعية غريبة وعجيبة، تنمُّ على روح العصر، وعلى موقف الكاتب

من هذه القيمة الإنسانية الخالدة. فالكتاب، وإن دار حول فكرة واحدة وحيدة، على غير نهج بعض كتب التراث، فإنّه لم يكن كتاباً علمياً فلسفياً يتصف بالتنظيم والتحام الأفكار والمعالجة المنطقية المرتكزة على منهج محدد، أو على خطة موضوعة تقود إلى نتائج محددة، بل هو مجموعة من النصوص النثرية والشعرية استقاها الكاتب من مصادر معينة سبقته.

مصادر الكتاب: ألف أبو حيان هذا الكتاب بعد أن كان وراءه معالجات كثيرة لفكرة العلاقات الإنسانية، منها ما هو لفلاسفة اليونان كأفلاطون وأرسطو، اللذين نُقلتْ آثارهما عن اليونانية والسريانية إلى العربية قبل التوحيدي وفي زمانه، ومنها ما هو نصوص شعرية في الصداقة والإخوانيات ساقها مؤلّفو كتب الحماسات والاختيارات الشعريَّة، كالبحتري، وأبي تمام، وصاحب مجموعة المعاني. بل إن أبا حيان كان قد سُبق إلى تآليف أخرى تنتمي إلى هذا الباب، مثل كتاب: المودة في ذوي القربى، لإبراهيم بن محمد (٢٨٣ هـ)، وكتاب الصديق والصداقة، لابن الخمّار المولود سنة (٣٣١ هـ)، وكتاب السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية، لأبي حسن العامري المتوفّى سنة (٣٨١ هـ)، وقد نقل عن الأخير مسكويه في كتابه: تهذيب الأخلاق. وكذلك ضمت كتب الأدب المتقدّمة على أبي حيَّان نصوصاً عن الصداقة والإخوان وعلائقهم مختلفة ومتنوعة، أمثال كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبد ربه، ففي كل من هذين السفرين باب طويل، أو (كتاب) حسب المصطلح القديم، اسمه (الإخوان). ولهذا لايصح قول المحقق في مقدمة الكتاب بأن هذا السفر فريد في بابه (المقدمة ص ١٥).

شروط الصداقة: ويستطيع المرء أن يستخلص من كتاب أبي حيان هذا (الصداقة والصديق) شروط الصداقة في نظر مؤلفه، فهي عنده «كرم العهد، وبذل المال، وتقديم الوفاء، وحفظ الذمم، وإخلاص المودة، ورعاية الغيب، وتوفر الشهادة، ورفض الموجدة، وكظم الغيظ، واستعمال الحلم، ومجانبة الخلاف، واحتمال الكلّ، وبذل المعونة، وحمل المؤونة، وطلاقة الوجه، ولطف اللسان، وحسن الإستنابة، والثبات على الثقة، والصبر على الضراء، والمشاركة في البأساء» (ص ١١٧ - ١١٨).

بعض أنواع الصداقة: ونقع في هذا الكتاب على بعض تصنيفات للصداقة والأصدقاء، فالصداقة عند أرسطو ثلاثة ضروب:

١ ـ صداقة المنفعة. ٢ ـ وصداقة اللذة. ٣ ـ وصداقة الفضيلة.

والأصدقاء عند هارون الرشيد، كما يذكر أبو حيان، ثلاثة أنواع:

أ ـ نوعٌ كالغذاء الذي لايمكن الاستغناء عنه.

ب ـ ونوعٌ كالدواء الذي يُحتاج إليه بين الفينة والفينة.

ج ـ ونوعٌ كالسُّمِّ الذي لا ينبغي تجريبه.

والحقيقة أنّ التوحيدي نفسه كان يلاحظ تناقضاً واضحاً كامناً في عالم الإنسان، فالإنسان بحاجة إلى صديق حقيقي، ولكنه عاجز عن إيجاده. وهذه معضلة. وهي معضلة لها علاقة بالعصر الذي عاش فيه أبو حيان، وهو عصر دسائس ومؤامرات... وقد حل التوحيدي هذه المسألة من خلال دعوته إلى الإنسان ليقبل بعيوب أخيه الإنسان، ويغفر له ذنوبه، والدليل أنه ختم كتابه ببيت النابغة القائل:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّه على شعثٍ، أيُّ الرجالِ المهذّبُ

وقول الشاعر الآخر:

وكنتُ إذا الصديقُ نبا بأمري وأشرقني على حنقٍ بريقي
غفرتُ ذنوبه وكظمتُ غيظي مخافةَ أن أعيشَ بلا صديق

وقول الثالث وهو آخر ما استشهد به من الشعر:

ومن لم يطب نفساً ويستبقِ صاحباً ويغفرْ لأهل الود يَصْرِمْ ويُصْرَمِ

حول النص المحقق: هذا بخصوص الكتاب ومضمونه، أما بخصوص النص المحقّق، فلنا وقفة أخرى حوله وحول مقدمته. فقد ذكر المحقّق في مقدمته أن نص أبي حيان نصٌّ فريد في

تراثنا العربي، وقد تقدم في حديثنا عن مصادر أبي حيان أن هذا الحكم غير دقيق، لأن كتباً أخرى في الصداقة والصديق قد أُلّفتْ قبل أبي حيان، وكذلك يمكن أن نضيف كتاباً آخر أُلّفَ في هذا الباب، وصاحبه معاصر لأبي حيان لم يزل مخطوطاً، وهو كتاب: الأنس والعرس، للآبي، المتوفى سنة ٤٢١ هـ. وهو مجموعة من الأشعار والأقوال المنثورة في الصداقة والصديق، وقد بوّبت في (٣٣) باباً، والنسخة الوحيدة في العالم له توجد في المكتبة الوطنية بباريس، وقد ذكرها فؤاد سزكين في كتابه تاريخ التراث العربي (مج ٢ ج ١ ص ١٢٤). إذاً نَصٌّ أبي حيان هذا ليس فريداً، وقول المحقّق إنه فريد مردودٌ، لأنه مسبوق ومتبوع بآثار مشابهة كما ذكرنا.

وثمة ملاحظات على النص المطبوع يمكن أن نوجزها بالنقاط التالية:

١ ـ مجيء أبيات مُختلّة الوزن في الكتاب المطبوع.

٢ ـ أخطاء في الشكل والضبط.

٣ ـ تحريفات لم ينبّه عليها المحقق.

٤ ـ أبيات لم تُعْزَ إلى أصحابها أو تخرج من دواوينهم، رغم طبع الدواوين في الفترة الواقعة بين طبعتي هذا الكتاب الدمشقيتين، وهي فترة امتدت (٣٢) عاماً.وسنضرب مثالاً واحداً على الأقل على كل من هذه الملاحظات:

١ ـ الخلل العروضي:جاء في (ص ١٠٣ ط٢) هذا البيت وقد وزع شطراه على النحو التالي:

يحصي الذنوبَ عليكَ أيّامَ الصداقةِ للعداوه

والصواب أن يرسم كما يلي، وهو من مجزوء الكامل:

يحصي الذنوبَ عليكَ أيّـ ـامَ الصداقةِ للعداوه

وانظر أيضاً خللاً عروضياً في الأبيات الفائية (ص ٤٠ و ٤١).

٢ ـ **الخطأ في الضبط**: جاء في (ص ٣٩) هذا الخبر: « أخبرنا أبو سعيد السيرافي، قال: أخبرنا ابن دريد قال: قال أبو حاتم السجستاني: إذا مات لي صديق سقط مني عضواً» والصواب: (عضوٌ)، لأنه فاعل (سقط)، ولا وجه لِنَصْبِه. وكذلك ورد في (ص ٣٧) هذا البيت، بهذه الصورة:

أيا ربُّ كلُّ الناسِ أبناءُ علَّةٍ   أما تَعْثُرُ الدنيا لنا بصديقِ

والصواب: « أيا ربُّ، كُلُّ الناس أبناءُ علّةٍ ».

٣ ـ **التحريف**: جاء (في ص ٢١٦) هذا البيت لشريح بن الأحوص:

تَبَعْ ابنَ عَمِّ الصِّدْقِ حَيْثُ لقيْتَهُ   فإنَّ ابنَ عَمِّ السوءِ أوْغِرَ جانُبه

والصواب (أوعَرَ) بالعين لا بالغين.

وكذلك جاء في ص (٣٧ – ٣٨) قول أبي حيان: « واسترسال الكلام في هذا النمط شفاء للصدر وتخفيف من البرحاء، وانجياب الحرقة.... ولا بأس بإمرار كل ما لاءمه ودخل في حوزته، وإن كان آخره لا يدرك، وغايته لا تملك». وفي الحاشية ذكر المحقق أنه في (ج ق ـ بإيراد) بدلاً من (بإمرار)، والحقيقة أن ما جاء في (ج ق) هو الصواب بعينه، لأن (إيراد ما يلائم) أنسب وأكثر اتّساقاً مع ما (يدخل في الحوزة)، فالمعنى يرشحه ويتطلبه.

٤ ـ **نقص التخريج، وعدم العزو**: ثمة أبيات كثيرة وردت في المطبوع لطرفة بن العبد، ولعبد الله بن معاوية، ولأبي نواس، وللمتلمس الضبعي، ولمطيع بن إياس، لم يخرجها المحقق من دواوين هؤلاء الشعراء الذين طبعت دواوينهم بعد الطبعة الأولى من (الصداقة والصديق)، وبعضها لا يوجد في دواوينهم، فبيت طرفة بن العبد:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً   على المرء من وَقْعِ الحسامِ المهنّدِ

لم ينسبه المحقق إلى طرفة، و لم يخرجه من ديوانه. وهو كذلك ينسب إلى عدي بن زيد العبادي، والبيت في ديواني الشاعرين.

وكذلك وردت أربعة أبيات لعبد الله بن معاوية (ص ١٤٨) لم يخرجها المحقق من شعر هذا الرجل الذي طبعه عبد الحميد الراضي ببيروت، وهي في شعره (ص ٨١)، والأبيات الأربعة تقول:

١ ـ تبدي لك العينُ ما في نفس صاحبها	مِنَ الشناءةِ أو وُدٌّ إذا كانا
٢ ـ إنَّ البغيضَ له عينٌ يصدُّ بها	لايستطيعُ لما في الصدرِ كتْمانا
٣ ـ وعينُ ذي الودِّ ما تنفكُّ مقبلةً	ترى لها محجراً بَشّاً وإنسانا
٤ ـ والعينُ تنطقُ والأفواهُ صامتةٌ	حتّى ترى من ضميرِ القلبِ تبيانا

وجاء في (ص ١٣٧) من المطبوع ثلاثة أبيات لم تعز لقائل، وقائلها هو عبد الجبار بن سعيد المساحقي. وثمة أبيات في (ص ٩٥) لمطيع بن إياس، وهي ليست في ديوانه المطبوع بتحقيق (غوستاف فون غرونباوم) (انظر كتابه شعراء عباسيون). ويقال الشيء ذاته، أو ما يشبهه بخصوص أبيات أخرى للمتلمس الضُّبعي، وغيره من الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين.

وفيما عدا ذلك، فإن النص جاء صحيحاً مضبوطاً مخدوماً إلى حد بعيد. ويبدو أن العودة في إخراج هذا السِّفْر التراثي إلى مخطوط له وحيد، جَلَبَهُ الدكتور الكيلاني من (تركية)، هي السبب في بعض هذه الملاحظات اليسيرة التي لا تطعن بقيمة كتاب: الصداقة والصديق، الصادر عام ١٩٩٦.

وعلى الرغم من أن شخصية أبي حيان التوحيدي في هذا الكتاب كادت تتوارى خلف نصوص الآخرين وأقوالهم وأشعارهم، فإننا نملك القول: إن الاختيار هو جزء من الحكم، وهو دالٌّ على فكر صاحبه وعقله، بيد أنه من الصعوبة بمكان تلمُّس مزايا أسلوب التوحيدي وفنه الكتابي من خلال هذا الكتاب، لذا لا نرى بأساً في أن ننشئ فقرة أخيرة حول فنِّ التوحيدي الكتابي ومنزلته في ميدان النثر الفني في تاريخ الأدب العربي القديم.

فَنُّ التوحيدي النثري ومنزلته:

كان أبو حيان في ميدان النثر الفنّي طائراً غرَّد في غير سربه، فالنثر الفني في القرن الرابع الهجري أثقلته قيود التصنّع والتكلف والسجع والتزويق، وكبّلته تكاليف الازدواج والجري وراء الألفاظ المنمقة والعبارة المصنعة، فلم يجر على رسله. وكان الكتّاب آنئذٍ يُوْلـون الشكل اهتماماً أكثر من المضمون، واللفظ عناية أكثر من المعنى. وقد بلغ هذا النهج الكتابي أوجه، وأشد صور تعقيداته، على أيدي الوزيرين اللذين كرههما أبو حيان، أعني: الصاحب بن عباد، وابن العميد، ومَنْ لفَّ لفَّهما... ولم يكد أحدٌ ينجو منه. إلا أن أبا حيان الكاتب الأصيل لم يكن لينصاع إلى سطوة هذا التقليد الكتابي المتكلّف، بل كان معجباً بأسلوب الجاحظ الذي جاء متحرراً من هذه القيود والكوابل، منطلقاً إلى التعبير عن الفكرة بأيسر السبل، وأقرب الموارد. لذا أولى التوحيدي المعنى جلَّ اهتمامه، على غزارة من معجم لفظي، وثراء من مخزون لغوي، واستطاع أن يعبر عن أدق المعاني، وألطف الأفكار ببيان ناصع مرسل، وبلفظ حُرٍّ ومعنى حُرٍّ، وها هو ذا يقول في صناعة الكتابة: «ومن استشار الرأي الصحيح في هذه الصناعة الشريفة، علم أنه إلى سلاسة الطبع أحوج منه إلى مغالبة اللفظ، وأنه متى فاته اللفظ الحر لم يظفر بالمعنى الحر، لأنه متى نظم معنىً حرّاً ولفظاً عبداً، أو معنى عبداً ولفظاً حرّاً، فقد جمع بين متنافرين بالجوهر متناقضين بالعنصر». وكذلك وجدناه يدعو إلى ما يسمى «بالسهل الممتنع» في الكتابة، فيقول في الليلة الخامسة والعشرين من ليالي «الإمتاع والمؤانسة»:

«وفي الجملة أحسن الكلام ما رقَّ لفظه، ولطف معناه، وتلألأ رونقه، وقامت صورته بين نظم كأنه نثر، ونثر كأنه نظم، يطمع مشهوده بالسمع، ويمتنع مقصوده على الطبع، حتى إذ رامه مريغ حلّق، وإذا حلّق أسفَّ، يبعد على المحاول بعنف، ويقرب على المتناول بلطف».

وفي دعوة أبي حيان هذه، وفي ممارساته العملية لفن الكتابة المتحررة والمنطلقة والسلسة والسهلة، وفي تحرره من قيود السجع والتزويق، تكمن أهمية نثره وأدبه، مما حدا بآدم متز ليقول ـ كما قدمنا: «ربما كان التوحيدي أعظم كتاب النثر العربي على الإطلاق».



الحدائق الغناء في أخبار النساء

للمعافري المالقي (٦٠٥ / ١٢٠٨)

أَلَّفَ هــــذا الكتـاب أبو الحسن علي بن محمد المعافري المالقي المتوفى سـنة (٦٠٥هـ)، وحققته الدكتورة عائدة الطيبي، ونشرته الدار العربية للكتاب في ليبيا وتونس عام ١٩٧٨.

والكتاب الـــذي وقعت عليه المحقّقة كان مُغْفَل العنوان، فاختارت له عنوان: "الحدائق الغنّاء في أخبار النساء". وكانت قد عثرت على مخطوطته في مكتبة (تشستربيتي) في (دبلن) بايرلندا. ولكن هذا المخطوط كان بمنتهى النفاسة، لأنه كتب بخط يد المؤلف، كما تذكر المحققة في مقدمتها (ص ١٠). وهو من هذه الناحية يشبه المخطوط الذي عثر عليه (كراتشكوفسكي) المستشرق الليتواني بخط مؤلّفه، وهو كتاب: المنازل والديار، لأسامة بن منقذ، والعجيب أيضاً أن كلا المخطوطين كان بلا عنوان.

وموضوع هذا الكتاب هو أخبار النساء في صدر الإسلام. وقد عرض المؤلف في أربعة أجزاء من كتابه إلى أحاديث أخرى عن حواريّي المسيح، وحواء، وروى قصة بلقيس وسليمان، وأيوب وزوجته...ولكن المحققة الدكتورة (الطيبي) لم تشأ إلا تقديم سبعة أجزاء من المخطوط، هي الأجزاء من ثلاثة إلى تسعة، وهي تتصل بأخبار النساء إبّان الإسلام، كما قدمنا.

وقد حوى الكتاب المطبوع كلاماً على ستٍّ وثلاثين امرأة، منهن: ميسون الكلبية، وعائشة بن طلحة، وأم سلمة، ونوار جاوية الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وأم سعيد، وهي أمة شاعرة، وعريب المأمونية، وعزة صاحبة (كُثيِّر)، وفاطمة بنت الحسين بن علي، وليلى الأخيلية...الخ.

ومن الواضح أن لا رابطة بين هذه النسوة سوى الشهرة، فمن بينهن المرأة المشهورة بذكائها كميسون، والمرأة المحدّثة الفطنة صاحبة المآثر كعائشة بنت طلحة، والمرأة الشاعرة كليلى الأخيلية.

والمهم في هذا الأثر التراثي هو أنه يكشف لنا صورة مشرقة وبهية للمرأة في صدر الإسلام، فهي معتدة بنفسها، وفية لزوجها، فطنة، ذكية. كما نلمس من خلال حكاياته أن قسطاً من المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة كان متوافراً آنئذٍ، فأمُّ أبان مثلاً تُعلِن عن الأسباب التي جعلتها تختار طلحة بن عبيد الله، فتقول: إنها اختارته زوجاً لأنها عرفت فيه صفات بعينها، فهو كريم بشوش، إذا أحسنت عملاً شكرها وإذا أذنبت غفر لها... وتتجلى روح المساواة في قول أبي الدرداء لزوجته: « إذا غضبتِ أرضيتُك، وإذا غضبتُ فأرضيني، فإنْ لم تفعلي ذلك، فما أسرع ما نفترق » (ص ٤٧).

ومن الظواهر التي تتجلّى لنا في أخبار نسوة هذا الكتاب الحرية والاستقلال في الشخصية، فنحن نقرأ أن عائشة بنت طلحة لم تكن تحتجب عن الرجال، بل كانت تجلس وتأذن، كما يأذن الرجال (انظر ص ٦١).

وفي هذا المؤلف ما هو لطيف ومسلٍّ، ففيه خبر يفيد أن (عَزَّة) حبيبة (كُثيِّر) أرادت مرة أن تعلم مكانتها عند كثير، فتنكرت، ومرت به متعرضةً، فانتبه، وقام وتبعها وكلمها، فقالت له:أين حبك (عزة)؟ فقال: أنا الفداء لك لَوْ أن (عزة) أمةٌ لي، لوهبتُها لكِ ! فقالت: ويحكَ، لا تفعل فقد بلغني أنها لك في صدق المودة ومحض المحبة والهوى، على حسب الذي كنتَ تبدي لها من ذلك وأكثر، وبعد فأين قولك:

إذا وصلتْنا خلّةٌ كي تزيلَنا   أبَيْنا، وقلنا: الحاجبيّةُ أوّلُ

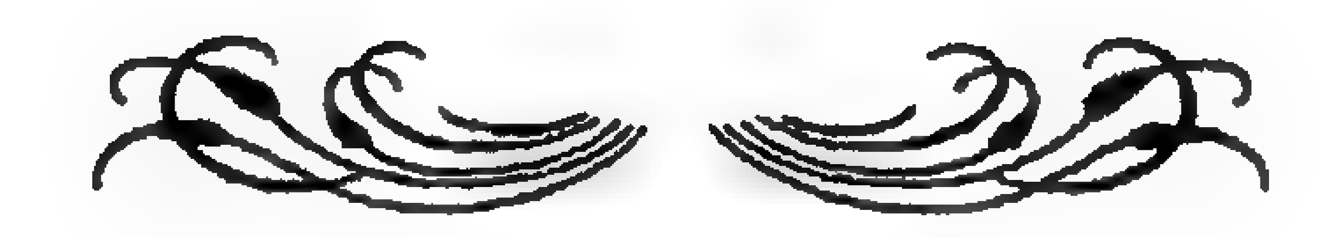
فقال (كثير): بأبي أنتِ وأمي، اقصري عن ذكرها، واسمعي ما أقول، ثم قال:

هل وَصْلُ عزةَ إلا وصلُ غانيةٍ   في وصلِ غانيةٍ من وصلها بَدَلُ

قالت: فهل لكَ في المجالسة؟ فقال لها: وكيف لي بذلك؟ فقالت له: فكيف بما قلتَ في (عزة) وسيَّرته لها؟ فقال: أقلبه فيتحوَّل إليكِ، ويصير لكِ. قال: فسفرت عن وجهها عند ذلك وقالت: أغدراً ونكاثاً يا فاسق؟ قال: فبُهِتَ وأبلس ولم ينطق، وتحير وخجل... ولما عرفتْ أمره، قالتْ: قاتل الله (جميلاً) حيث يقول:

لحا الله مَنْ لا ينفعُ الودُّ عندَهُ　　　ومَنْ حَبْلُهُ، إنْ مُدَّ، غيرُ مَتِيْنِ

وهكذا، فنحن إزاء إثر لطيف ممتع حوى من الأخبار والقصص التاريخية والأدبية ما لم نشر إليه إلا إشارات مختصرة، ويبقى في العودة إليه فائدة وغناء.



معجم الأدباء

لياقوت الحموي (٦٢٦ / ١٢٢٨)

مؤلّف هذا الكتاب هو أبو عبد الله ـ شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، الرومي الجنسية، والحموي الولاء، والبغدادي الدار. ولد سنة (٥٧٤ أو ٥٧٥ / ١١٧٩ أو ١١٨٠) وتوفي سنة (٦٢٦ / ١٢٢٨) وكان قد أُسر من بلاده، وهو صغير، فاشتراه تاجر من بغداد يعرف بـ (عسكر بن ابراهيم الحموي) وأدخله الكتاب ليتعلم القراءة والكتابة، وليساعد مولاه عسكر في بعض أعماله التجارية. فشدا ياقوت علماً حسناً أولاً، وشغله (عسكر) بأسفار للتجارة، ثم أعتقه سنة (٥٩٦ / ١١٩٩)، وكان له من العمر واحد وعشرون عاماً. فراح ياقوت يعمل بالوراقة، أي نسخ الكتب وبيعها، وهذه مهنة سبقه إليها أعلام كبار في تراثنا، كالجاحظ، وأبي حيان التوحيدي، وهي صنعة تعلم الكثير النافع، وتكوّن لدى صاحبها ثقافة عريضة واسعة... وهي من أهم مكونات شخصية ياقوت، يضاف إليها مكوّن آخر هو الرحلات التي كان صاحبنا يقوم بها، فقد رحل إلى دمشق، وحلب، والموصل، ومرو، وخراسان، وخوارزم، والإسكندرية، والتقى علماء وناظر أدباء وأصحاب مذاهب ونحل، فغزرت معارفه، واتّسع علمه.

وفي دمشق مثلاً حصلت جَفْوة بين ياقوت وأحد مناظريه النافذين... فخاف وولى هارباً إلى حلب، وكان ذلك في السنة (٦١٣ / ١٢١٦). ومن حلب انتقل إلى إربل، وخراسان، ومرو. وكان في (مرو) آنئذٍ مكتبة عامرة وحافلة بالكتب المتنوعة، فأفاد منها ياقوت إفادة جليلة، ولإعجابه بها راح يصفها في رسالة وجهها إلى معاصره (القفطي)، فقال إنه «وجد بها من كتب العلوم والآداب، وصحائف أولي الأفهام والألباب ما شغله عن الأهل والوطن، وأذهله عن كل خلٍّ صفيٍّ وسكن، فظفر بضالته المنشودة، وبغية نفسه المفقودة، فأقبل عليها إقبال النهم الحريص، وقابلها بمقام لا مزمع عنها ولا محيص، فجعل

يرتع في حدائقها، ويستمتع بحسن خلقها وخلائقها... الخ » (وفيات الأعيان، لابن خلكان ج ٦ ص ١٢٧ فما بعدها).

إن تاريخ هذه الرسالة كان في العام (٦١٧ / ١٢٢٠). وبعد هذا التاريخ وقع في (خراسان) أهوال وحروب، فقد قدم التتار، وأحدثوا الويل والدمار، في هذه المدينة وما حولها، كمرو وغيرها، ففر ياقوت هارباً بنفسه، ولحق بالموصل، وانتقل بعد ذلك إلى حلب، وأقام بظاهرها في خان من خاناتها، إلى أن توفي فيها سنة (٦٢٦ / ١٢٢٨)، مخلفاً وراءه تراثاً تأليفياً ضخماً. فقد صنف ياقوت عشرة مؤلفات، عدا كتابه الهام الذي ستتحدث عنه (معجم الأدباء)، وهذه المصنفات هي:

١ ـ معجم البلدان ٢ ـ أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء ٣ ـ معجم الشعراء ٤ ـ المشترك وضعاً والمختلف صقعاً ٥ ـ المبدأ والمآل ٦ ـ مجموع كلام أبي علي الفارسي ٧ ـ عنوان كتاب الأغاني ٨ ـ أخبار المتنبي ٩ ـ الدول ١٠ ـ المقتضب في جمهرة النسب.

ونظم ياقوت أشعاراً حسنة نثرها في ثنايا كتبه ورسائله. ولم ينشر من كتبه المذكورة هذه سوى ثلاثة كتب هي: ١ ـ معجم الأدباء. ٢ ـ معجم البلدان. ٣ ـ المشترك وضعاً والمختلف صقعاً. وسنقف نحن الآن عند كتابه الهام (معجم الأدباء).

معجم الأدباء: كتابٌ في التراجم. وهو ثمرة من ثمرات القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، ويسمى أيضاً «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» أو «إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء».

وفي هذا المعجم توسع ياقوت، فترجم للشعراء واللغويين والنحويين والمؤرخين والقراء والخطاطين والرواة، وخاصة من عرف منهم بأنَّ له تصنيفاً أو تأليفاً. وكما توسَّع ياقوت في ضروب الأعلام واختصاصاتهم، توسع في توزعهم الجغرافي، فقد جمع في (معجمه) أعلاماً من كل أرجاء المحيط العربي، من بغداديين وشاميين ومصريين وحجازيين وخراسانيين ومغاربة ... الخ. ولهذا بلغ مجموع تراجمه في طبعة (دار المأمون) حوالي (١٠٦٥) ترجمة.

ويمتاز معجم الأدباء بحسن تبويبه، ويسر الإفادة منه، فقد رتبه صاحبه حسب حروف المعجم مما سهَّل العودة إليه. وكذلك تخفف من الأسانيد على عكس عادة ابن

عساكر في كتابه (تاريخ مدينة دمشق)، مهتماً بالمادة العلمية التاريخية الموضوعية، فكان هدفه صغر الحجم مع عظم النفع. ورغم ذلك فإن ياقوت كان أميناً على ما ينقل، وكان يذكر في كثير من الأحيان مصادره، فيقول مثلاً: وذكر ابن بسام في (الذخيرة)، والمرزباني في (معجمه) يعني (معجم الشعراء)، والثعالبي في (الدرة اليتيمة) يعني (يتيمة الدهر)...الخ.

وكانت تراجم ياقوت متفاوتة، فمنها ما يمتدُّ صفحات عديدة، كترجمته للصاحب بن عباد، وأبي العلاء المعري، وأبي سعيد السيرافي، وأسامة بن منقذ، ومنها ما هو قصير جداً، لا يتجاوز أسطراً معدودات.

ويتصف ياقوت في أبحاثه بالتواضع العلمي، الذي إنْ فارق العالم أُصيبت مقاتله، فقد صدَّر كتابه هذا بقولٍ للعماد الصفهاني ـ صاحب كتاب(خريدة القصر) ـ نصُّهُ: « إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر. وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

ويضيف ياقوت في كتابه هذا (ج١ ص ٥٦ ـ ٥٧ ط الرفاعي) ما نصه: « وأنا فقد اعترفتُ بقصوري فيما اعتمدت عن الغاية، وتقصيري عن الانتهاء إلى النهاية، فأسأل الناظر فيه ألاّ يعتمد العنت، ولا يقصد قصد من إذا رأى حسناً ستره، وعيباً أظهره، وليتأمله بعين الإنصاف لا الانحراف، فمن طلب عيباً وجدَّ وَجَدَ، ومن افتقد زَلَـلَ أخيه بعين الرضا فَقَدْ فَقَدَ... » ويقول: « فالمرء غير معصوم، والنسيان في الإنسان غير معدوم، وإن عجز عن الاعتذار عنا والتصويب، فقد علم أن كل مجتهد مصيب، فإنا، وإن أخطأنا في مواضع يسيرة، فقد أصبنا في مواطن كثيرة... ».

والحق أننا إذا نظرنا بعين الإنصاف إلى هذا المعجم العظيم، وجب علينا رفع التحية لمؤلفه العالم النحرير، والمصنف الكبير (ياقوت)، لما بذله من جهدٍ، وما اتصف به من أمانة وتواضع.

طبعات معجم الأدباء: طبع هذا الكتاب أكثر من مرة. طبع في حدود علمي، خمس مرات: طبعه أولاً المستشرق (مرجليوث) في السنة ١٩٢٥، في سبعة أجزاء. وطبع ثانية

بإشراف (أحمد الرفاعي) بدار المأمون بمصر سنة ١٩٣٦. وجاءت هذه الطبعة في عشرين جزءاً، وامتازت بالفهارس والزيادات التي أضافها الرفاعي على ضبعة (مرجليوث). وبعدئذٍ صار هذا الكتاب القيم يظهر في بيروت، فنشرته دار إحياء التراث العربي بالتصوير، كما نشرته أيضاً دار الكتب العلمية، وكلها نشرات ناقصة. وكان آخر طبعاته وأفضلها وأكملها، نسبياً، طبعة الدكتور (إحسان عباس) التي ظهرت في بيروت بدار الغرب الإسلامي، في السنة ١٩٩٣ . وتقع هذه الطبعة في سبعة أجزاء.

وتنبع قيمة هذه الطبعة من أن الدكتور (عباس) قد عاد إلى مخطوطة عُمانية عنوانها: « بغية الألباء من معجم الأدباء » كان قد صنعها لنفسه (أحمد بن علي بن عبد السلام التكريتي)، وتقع في (٢٣٨) ورقة، فوجد (عباس) في هذه المخطوطة زيادات على طبعة (مرجليوث) بمقدار (١٦٠) ترجمة.

وقد أفاد إحسان عباس أيضاً مما كتبه (مصطفى جواد) من استدراكات على طبعة (مرجليوث)، وكان عدد التراجم التي استدركها (جواد) (٤٦) ترجمة، فضمَّه إلى المخطوطة العُمانيّة التي أشرنا إليها من قبل، والتي قدمها له الشيخ (حمد الجاسر)، فصار لديه حوالي (٢٠٠) ترجمة جديدة، علاوة على ما عرفه الناس من قبل من تراجم وردت في (معجم الأدباء).

وكان الدكتور عباس أيضاً قد عاد إلى ما كتبه الأديب الفلسطيني (إسعاف النشاشيبي) في مجلة الرسالة المصرية من تصويبات واستدراكات على طبعة الرفاعي لمعجم الأدباء، كما عاد (عباس) إلى مخطوطة (كوبريللي) بتركية للمعجم المذكور، وهي تقع في (٢١٩) ورقة، فصحَّح من خلالها الكثير من التحريفات والتصحيفات التي حفلت بها الطبعات السابقة، فجاءت طبعته، كما ذكرنا، أفضل طبعة لهذا المصنَّف العظيم، حتى الآن.

ورغم كل ما تقدم، فالذي يبدو أن هذا (المعجم) لم يصل إلينا على الصورة التي جَفَّ فيها عنه مداد مؤلفه، فهو لا يوجد كاملاً بين أيدي الناس الآن، ولهذا أعلن الدكتور (إحسان عباس) في مقدمته للكتاب: « هناك عشرات التراجم التي لاتزال مفقودة من معجم الأدباء» (انظر المقدمة ج ١ ص (و)).

مصادر ياقوت في معجمه:

ذكر ياقوت في مقدمة كتابه بعض من سبقه في التأليف في الباب الذي طرقه هو، وأفاد منه، فهو بعد أن يشير إلى غرامه بالأدب، ونهمه بالعلم، وشغفه بأخبار العظماء والعلماء، يقول: إن ما قدمه السابقون «لم يكن عن صبح الكفاية سافراً» لذا أراد هو أن يدلي بدلوه، وكان قد سبقه إلى ذلك:

١ـ أبو بكر محمد بن عبد الملك التاريخي، وهو في نظر ياقوت «أول من أعار الأدباء طرفه، وسود في تبييض أخبارهم صحفه». ولكن كتابه صغير الحجم، قليل التراجم، بيد أنه محشو بالنوادر.

٢ـ وأبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه.

٣ـ وأبو عبيد الله محمد بن عمر المرزباني، وكتابه حافل ويقع في (١٠٩) مجلداً، وقد نقل ياقوت أكثر فوائده إلى كتابه هذا.

٤ـ وأبو سعيد السيرافي، وله كتاب صغير في نحاة البصرة، نقل أكثر فوائده.

٥ـ وأبو بكر الإشبيلي الزبيدي، وكتابه أكثر تلك الكتب فوائد، ونقل عنه ياقوت أيضاً.

٦ـ والقاضي أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر المغربي.

٧ـ وعلي بن فضال المجاشعي، واسم كتابه: «شجرة الذهب في أخبار أهل الأدب».

٨ـ والكمال عبد الرحمن بن محمد الأنباري، واسم كتابه: «نزهة الألباء في أخبار الأدباء».

وثمة مصادر أخرى كثيرة نقل عنها (ياقوت) مثل: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ويتيمة الدهر للثعالبي، ودمية القصر للباخرزي، وأخبار الوزراء لهلال بن المحسن، والأغاني للأصفهاني، ونشوار المحاضرة للتنوخي، ومحاضرات العلماء لأبي حيان التوحيدي، وغيرها وغيرها...

ويضاف إلى ذلك كله ترجمات ياقوت لمعاصريه، ولمن لقيهم في أسفاره الكثيرة في أرجاء الإمبراطورية العربية، وها هو ذا يقول في هذا الصدد: «أما من لقيته، أو لقيت من

لقيه، فأورد لك من أخباره وحقائق أموره ما لا أترك لك بعده تشوُّفاً إلى شيء من خبره» (معجم الأدباء ج ١ ص ٤٩ ط الرفاعي).

وما أن استوى (معجم الأدباء) خلقاً سوياً، حتى صار مصدراً هاماً من مصادر كتب التراجم والرجال، نقل عنه من جاء بعد ياقوت، ممن طرقوا باب التأليف في الأعلام والتراجم. وفي وسعنا أن نذكر من الكتب التي اعتمدت على كتاب (معجم الأدباء) أو أفادت منه علماً أو خبراً أو شيئاً ما: وفيات الأعيان لابن خلكان، والمسالك والممالك لابن فضل الله العمري، والوافي بالوفيات للصفدي، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، وسير أعلام النبلاء للذهبي، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، وبغية الوعاة للسيوطي، والأعلام للزركلي، وغيرها وغيرها...

قيمة هذا الكتاب:

إن قيمة كتاب (معجم الأدباء)، لياقوت الحموي، لا تنبع من كونه حوى ما يربو على (١٢٥٠) ألف ومئتين وخمسين ترجمة لأعلام سبقوا (ياقوت) أو عاصروه، وعملوا في التأليف والتصنيف فحسب، بل تنبع أيضاً من احتواء هذا الكتاب على نصوص هامة من كتب ضائعة، ومن إشارات مختصرة لأسماء كتب كثيرة مفقودة. وقد أفاد من الميزة الأولى، أعني النصوص المقبوسة من الكتب الضائعة، باحثون كثر: فقد أفاد من (معجم الأدباء) المحامي (عبود الشالجي) الذي حقّق كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي، كما أفاد منه (ميخائيل عواد) في استدراكاته وإضافاته على كتاب (أخبار الوزراء والكتّاب) لمحمد بن عبدوس الجهشياري، وأفاد منه أيضاً الكثيرون من جامعي دواوين الشعر القديم، وناشري الكتب التي وصلت إلينا ناقصة... وفي وسعنا التأكيد أن هذا المعجم مَكْنَزٌ عظيم ومنجم ثمين للباحثين في التراث العربي ومصنّفات أعلامه، وللمجتهدين لإكمال صور ناقصة، قد تتصل بِعَلَمٍ من الأعلام، أو أثر من الآثار، وذلك لأن ما كان بين يدي ياقوت، في القرن السابع الهجري، لم يصل إلينا كاملاً، لسوء حظّ العلم والعلماء. وهذه حقيقة لا تقتصر على صاحبنا ومعجمه فقط، بل تشمل الكثير من المؤلفات العربية القديمة، التي تحفل بها مكتبتنا التراثية الضخمة العظيمة. وقد عاينّا هذه الظاهرة ودرسناها في القسم الأول من هذا الكتاب.

كتاب النجوم الزواهر في معرفة الأواخر

لابن اللبُّودي (٨٩٦ / ١٤٨٤)

صدر كتاب «النجوم الزواهر في معرفة الأواخر» لابن اللبودي (٨٩٦هـ) عن مجمع اللغة العربية بدمشق في العام ١٩٩٥، فجاء في ٢٨٨ صفحة، وحوى من الفهارس / ١٧ / فهرساً، بينها فهرس بالأواخر، وفهرس بالأوائل. حقق الكتاب الأستاذان مأمون الصاغرجي، ومحمد أديب الجادر.ومن المعروف أن عِلْمَ الأواخر، مثله مثل علم الأوائل، جزء من علم التاريخ والمعارف العامة. وقد ألّف العرب قديماً وحديثاً في هذين الفنين، ورصدتُ في مقدمتي لِكتاب «الأوائل» لأبي بكر تقي الدين بن زيد الجراعي الحنبلي، الذي حققته وطبعته سنة ١٩٨٨، عشرين كتاباً أُلِّفتْ في الأوائل، أما التأليف في الأواخر، فقد تأخر، وكان قليلاً نسبياً... وأشار محققا الكتاب إلى خمسة علماء صنفوا كتباً في الأواخر، هم: أبو جعفر القمي (٣٨١ هـ)، وعبد القادر محمد بن أبي الحسن الصعبي (القرن الثامن الهجري)، وابن الشحنة (٨١٥ هـ)، وابن طولون (٩٥٣ هـ)، وعلاء الدين دده السكتواري (١٠٠٧ هـ).

ويضاف إلى كتب هؤلاء كتاب ابن اللبودي (٨٩٦ هـ) « النجوم الزواهر في معرفة الأواخر » الذي سنقف عنده الآن، بعد أن نتعرف إلى مؤلِّفه بإيجاز.فابن اللبودي هو أحمد بن خليل بن أحمد شهاب الدين الدمشقي الصالحي الشافعي. وقد عُرِف بابن اللبودي، وابن عرعر، وابن البطائني. ولكنه بالأول أشهر. وقد ولد هذا المصنف في سفح جبل قاسيون بدمشق سنة (٨٣٤ هـ). وكانت أسرته أسرة علم، فجدُّهُ لأمه كان محدِّثاً، ووالده غرس الدين كان عالماً أيضاً، وصهره وختنه إبراهيم بن محمد كان فقيهاً ومحدثاً. أما هو فقد نشأ بصالحية دمشق، حيث كانت تقوم مدارس علم معروفة، كالمدرسة العمرية والمدرسة الضيائية، وهما مدرستان نشّطتا حركة العلم والتأليف بقوّة. وقد حفظ ابن اللبودي القرآن، وقرأ بعض المتون، وشدا قسطاً وافراً من المعارف المتنوعة في صباه، فتعلم الفقه على ابن

قاضي شهبة، والعربية على أبي العباس أحمد بن محمد الموصلي، والحديث على الشيخ الخيضري، وسمع من شيخات كثيرات مثل الشيخة فاطمة بنت خليل الخرستاني الدمشقية، وست القضاة بنت القاضي عماد الدين العمرية المقدسية، وأسماء بنت عبد الله بن الحسن المهراني، وسارة بنت محمد أم عبد الله...الخ.

وكان ابن اللبودي، إلى علومه تلك، مغرماً بالشعر يحفظه وينظمه، وكتابه هذا يشهد له بذلك... ولكن شعره كان ـ كشعر علماء عصره في الغالب ـ شعراً تعليمياً، يتخذ من بحر الرجز مطيَّةً له، ومن ذلك، على سبيل المثال، أرجوزته في كُتّاب الرسول عليه السلام، وفيها يقول (ص ١٤٢ ـ ١٤٣):

١ ـ كُتّابُ خيرِ خلقِ اللهِ خُلْهُمْ فاعلمَنْ	سعدٌ وثابتُ بن قيسٍ فافهمَنْ
٢ ـ كذا أبو بكرٍ هو الصدّيقُ	عثمان مع علي، الفاروقُ
٣ ـ بريدةٌ حذيفةٌ حويطبُ	زيدٌ وحاطبُ بن عمروٍ فاكتبوا
٤ ـ وطلحةُ مع الزبيرِ أرْقَمُ	كذا المغيرةُ بنُ شعبة اعلموا
٥ ـ ابنُ الوليدِ خالدٌ وجَهْمُ	ثم حصينُ بنُ نميرٍ، سمُّوا

ويمضي فيعدُّ منهم / ٤٢ / اثنين وأربعين كاتباً.

ولم يكن تصنيف ابن اللبودي ليقتصر على كتابٍ واحد، بل ألف اثني عشر كتاباً، نذكر منها على سبيل المثال: كتاب التاريخ، وبدأه من سنة ٨٣٤ هـ، وكتاب الروض البسام فيمن ولي قضاء الشام، وهي أرجوزة في قضاة دمشق مع شرحها، والإشعار بمحاسن الأشعار، وإخبار الأخيار بما وُجِدَ على القبور من الأشعار... الخ.

أما كتابه هذا «الأواخر» فقد أشار في مقدمته إلى سبب تأليفه له، فقال: «أما بعد، فإن العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ قلَّ أن تركوا منهجاً ما سلكوه أو باباً ما دخلوه، أو فنّاً لطيفاً ما ابتكروه، وأبرزوه بالتأليف ودونوه، ومن جملة مبتكراتهم اللطيفة أن وضعوا كتباً في معرفة الأوائل... وكنت قصدت أن أتطفل عليهم، وأجمع في هذا الفن البديع الغريب كتاباً يجمع البعيد منها والقريب، فوجدت جماعة من أبناء العصر وضعوا في ذلك كتباً عديدة

كاملة مفيدة، فرجعت عن القصد المذكور واستمررت على ذلك عـدة شهور، إلى أن حـاك في صدري أن أُضادِدَهم وأبتكر كتاباً في معرفة الأواخر، ذا فوائد كالجواهر، فاستخرت الله، وجمعت من المهيـع المشـار إليـه، ماتيسـر لي الإطـلاع عليـه، وضمَّنتـه فوائـد غريبـة، وفرائـد عجيبة...».

والحقيقة أن ابن اللبودي قد جمع في كتابه هـذا مـن الأواخـر (٢٣٠) مـادة. وكـان يلجأ أحياناً، لإتمام الفائدة، إلى ما يقابلها من الأوائل، فبلغت عدة أوائله / ١٠٠ / مادة.

وقد بدأ بالرسول (ﷺ) فأورد ترجمة مختصرةً له ذاكراً نسبه وأسمـاءه وكنـاه ونشـأته وصباه وشمائله وأواخر أفعاله... ثم ذكر الصحابة، وأواخرهم موتاً في بلاد الإسـلام، وانتقـل إلى أواخر القراء السبعة، فأواخر الكتب، وأواخر الخلفاء الأمويـين والعبيديـين والغساسـنة... فأواخر الكلمات التي حفظت عن العلماء والخلفاء، وأواخر قصائد الشعراء، وأواخر خطـب الخلفاء، وأواخر المصنفات والأحاديث، وأواخر من روى عـن فـلان، فسـاق أربعـين حديثـاً متصلة الإسناد إلى الرسول ﷺ . وحوى الكتاب / ١٦ / فائدة ومجموعة من الغرائـب، كـان يذكرها ابن اللبودي في مناسباتها...

ومن أمثلة حديثه عن آخر ما تكلم به الخلفاء قوله في أبي بكر الصديق (ص ١٠٠):
«آخر ما سُمِعَ من أبي بكر الصديق رضي الله عنه: تَوَفَّني مسـلماً وألحقـني بالصـالحين، قالـه الواقدي، وكانت وفاة أبي بكر رضي الله عنه ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان ليالٍ من جمادى الآخرة، سنة ثمان عشرة من الهجرة». وينتقل بعدها إلى أوائل أبي بكر فيقول: «وهـو أوَّلُ من توفي من الأصحاب العشرة، وأول من أسلم، وأول من جمع القرآن، وأول مـن سمَّـى مصحف القرآن مصحفاً، وأول من سُمِّي خليفة...الخ».

هذا، وقد بلغت مصادر ابن اللبودي في كتابه هذا ما يقرب من سبعين مصدراً، منها ما هو تاريخي، وما هو أدبي، وما هو (بيلوغرافي)، وما هـو ديـني فقهـي... فقـد عـاد علـى سبيل المثال إلى كتاب مروج الذهب للمسعودي، وأدب الدنيا والديـن للمـاوردي، والتـاريخ الكبير، والتجريـد في معرفـة الصحابـة، وكلاهمـا للذهـبي، والفـائق، والكشـاف، وكلاهمـا

للزمخشري، والأوائل للعسكري، وفضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام، والديباج للختلي، والمفتاح، ومرآة الزمان، وكلاهما لابن الجوزي، ونزهة الناظر إلى معرفة الأواخر لأمين الدين عبد القادر ابن محمد...الخ.

ويبقى السؤال الماثل في الأذهان : ما الجديد الذي قدمه هذا الكتاب؟ وفي الإجابة نقول: إنَّ نَشْرَ أي كتاب تراثي يُعَدُّ خدمة لفكر هذه الأمة وثقافتها ومكتبتها المعاصرة المطبوعة. واستقر في البحث العلمي أنه لا يغني كتاب عن كتاب.وعلى الرغم من أن كتاب علاء الدين دده السكتواري «محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر» قد طبع بمصر سنة ١٣١١ هـ، فإن كتاب ابن اللبودي هذا يعد إضافة طيبة إلى فرعٍ من فروع المكتبة العربية، يشكو من ندرة المصنّفات فيه .

ومن المسائل التي استوقفتني في حواشي المحققين أن ابن اللبودي ذكر في «أواخره» كتاباً جديداً لابن الجوزي عنوانه «المفتاح» (ص ١٢٥). وكتاب المفتاح لم يرد ضمن كتاب عبد الحميد الحلوجي: «مؤلفات ابن الجوزي»، وقد بلغت حوالي (٤٠٠) كتاب، وهذه ـ دون ريب ـ إضافة للمعرفة التراثية لا تنكر.

وثمة حاشية ثانية تؤكد أن كتاب «مرآة الزمان» لابن الجوزي، المطبوع في (شيكاغو) سنة ١٩٠٧، غير كامل، إذ إن ابن اللبودي ينقل عنه ترجمة لأمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي مع أبيات له في كتابه: الحديقة، ولدى عودة المحققين لكتاب (مرآة لزمان) لم يجدا ما نقله ابن اللبودي عنه، مما يدل على نقص في طبعة الكتاب المشار إليها سابقاً.

وهناك حاشية ثالثة أيضاً في (ص ٨٥) جاءت تعليقاً على قول ابن اللبّودي: « آخر آيةٍ أنزلت في الإنجيل: الملك لله الحق المبين، رواه أبو القاسم الختلي في كتابه الديباج عن جعفر بن محمد ». والمحققان لم يجدا هذا القول المسند إلى الختلي في كتابه «الديباج» الذي حققه ونشره الأستاذ ابراهيم صالح، فقالا: «ولعله من الجزء الثاني المفقود».وفي هذا فائدة أخرى، مآلها: أن الجزء المفقود من « الديباج » كان لايزال بأيدي الناس حتى زمن الختلي، أي القرن التاسع للهجرة.

وهناك ظاهرة أخرى، لا يصح للباحث المدقق أن يمر بها مرور الكرام، وهي مستمدة من قصة حياة ابن اللبودي العلمية التي وقفنا عندها في مطلع هذا المبحث، فقد مرَّ بنا أنَّ ابن اللبودي تتلمذ على شيخات كثيرات في زمانه. وهذا أمر يدلُّ على أن المرأة المسلمة في دمشق، في القرن التاسع الهجري، وربما قبله، كانت عالمة ومعلِّمة في الوقت نفسه، وأن الحواجز أو القيود الاجتماعية لم تكن تمنع اختلاط الرجال بالنساء آنئذٍ... وأن تكون المرأة معلمة للرجال، فهذا مؤشر على مكانة رفيعة كانت تتمتع بها. ومن هنا فلا يسوغ لباحث في علم الاجتماع يتناول أحوال ذاك الزمان، أن يقفز عن هذه الظاهرة العلمية الاجتماعية اللافتة للانتباه، خاصةً إذا قيست بأحوال المرأة العربية في بيئات أخرى، وفي أزمان أخرى...

وكل ما سبق يدل على أننا إزاء كتاب قيم جدير بالقراءة، قدَّم جديداً للمكتبة العربية المعاصرة، التي هي بأمس الحاجة اليوم إلى نشر كنوز تراثنا الدفين في ثنايا مخطوطات لا يعرفها إلا القليلون.



الكتاب الثالث
(دراسات وكُتُب مُتَّصِلة بالتراث)

١ ـ أقدم المخطوطات العربية في العالم، لكوركيس عواد.

٢ ـ تاريخ التراث العربي، (المجلد الثاني)، لفؤاد سزكين.

٣ ـ قصائد جاهلية نادرة من منتهى الطلب، ليحيى الجبوري.

٤ ـ أشعار العامريين الجاهليين، لعبد الكريم يعقوب.

٥ ـ شاعرية المتنبي في نقد القرن الرابع للهجرة، لمحي الدين صبحي.

٦ ـ فن الشعر لأرسطو وأثره في البلاغة والنقد العربيين، دراسة لشكري عياد.

٧ ـ ملامح يونانية في الأدب العربي، لإحسان عباس.

٨ ـ أعلام الفكر في دمشق، لإحسان خلوصي.

٩ – حلب في كتب البلدانيين العَرَب، إعداد د. شوقي شعث وفالح بكور .

أقدم المخطوطات العربية في العالم

لكوركيس عواد

تراث العرب المخطوط عظيم وباذخ وباعث للإعجاب والإكبار، وما نُشر فيه ما زال قليلاً وزهيداً، إذ يقدر العارفون عدد المخطوطات العربية المبعثرة في أصقاع الدنيا بنحو أربعة ملايين مخطوط، ربما كانت تركية والهند أهم قطرين استقرت فيهما تلك المخطوطات. وليس أدلّ على ذلك من احتواء مكتبة السليمانية فقط، في تركية، على مئة وواحد وخمسين ألف مخطوط عربي، ومن كون فهرس مكتبة باتنة بالهند قد بلغ (١١٠) مئة وعشرة مجلدات، نصيب المخطوطات العربية فيها غير قليل البتة .

ومن المسلم به أن الإهتمام بعالم المخطوطات العربية شيء محمود ومطلوب، ومحاولات التعرف على هذا الإرث العظيم وتسجيله قديمة جداً، وقد كان محمد بن إسحق النديم (٣٨٥ / ٩٩٥) من أكبر الببلوغرافيين العرب، وجسَّد في كتابه (الفهرست) أول المساعي لحصر عنوانات الكتب التي ألفت قبل وفاته، أو في زمانه... ولكن ابن النديم، على عظم محاولته، فاته الكثير الكثير، فهو لم يدون في (الفهرست) سوى (٨٣٦٠) عنواناً تقريباً (الفهرست تحقيق شعبان خليفة ووليد محمد العوزة، القاهرة، ١٩٩١ ص ٣٩). ومن المعروف أن مؤلفات أخرى، في الفترة التي حاول أن يؤرخ للتأليف فيها، قد فاته ذكرها، وخاصة حين كان صانعو هذه المؤلفات المغفلة يقطنون في أقاصي الإمبراطورية العربية آنئذ، كالمغرب والأندلس واليمن، وعلى الرغم من أن بغداد ـ حيث عاش ابن النديم ـ كانت عاصمة الخلافة، ونقطة التقاء للثقافات العربية، فإن الأمصار الأخرى كانت تنتج من المعارف كمّاً لا يستهان به البتة.

وقد ألّف هذا الكتاب الذي نعرض له ها هنا، وهو (أقدم المخطوطات العربية في العالم) أكبر ببلوغرافي عربي معاصر، وهو الأستاذ المرحوم كوركيس عواد، وطبعه في بغداد

عام ١٩٨٢. وكوركيس عواد هذا هو مؤلف (مصادر التراث العسكري عند العرب) ويقع في ثلاثة مجلدات، وطبعه في بغداد سنة ١٩٨١، وقد ذكر فيه / ٩٥٠٠ / مصدر عسكري عربي. وهو صاحب "فهرس فهارس المخطوطات العربية" الذي أخرجه معهد المخطوطات العربية بالكويت سنة ١٩٨٤ ويقع في جزأين.وكتاب "فهارس المؤلفين العراقيين" ويقع في ثلاثة مجلدات، وكتاب "رائد الدراسة عن المتنبي". بالإضافة إلى تحقيقه مجموعة من كتب التراث الهامة مثل كتاب "الديارات" للشابشتي، و"تاريخ واسط" لبحشل، و"الوزراء" للصابي... الخ.

أما كتابه هذا "أقدم المخطوطات العربية في العالم" فقد حوى إشارات إلى /٧١٧/ مخطوطة، منها ما هو كامل، ومنها ما هو ناقص. وكلها ترجع إلى القرون الخمسة الأولى للإسلام. وتقبع في مكتبات العالم المختلفة، الأمر الذي يرتب على محاولة حصرها جهداً إضافياً.

وقد ضمَّ هذا المصنَّف مباحث تمهيدية تضمنت توطئة، ثم أشهر خزائن الكتب في الأزمنة الغابرة، فشرحاً لسبيل البحث، فانتقالاً، بعدئذ، إلى تصنيف المخطوطات القديمة المختارة إلى المجموعات التالية:

أ ـ المصاحف الشريفة.

ب ـ الكتاب المقدس.

جـ ـ أوراق البردي.

د ـ كتب التراث العربي القديم.

وعرض كوركيس عواد في مباحثه التمهيدية لمجموعة من المكتبات القديمة التي تناقلت أخبارها كتب التراث والتي جمعها أصحابها قبل القرن السادس الهجري، فذكر نقلاً عن "الفهرست" خبراً عن خزانة ابن أبي بعرة، وكانت بمدينة (الحديثة)، وكانت على جلود فلجان (حمر وحشية) وقراطيس مصرية وورق صيني وتهامي وجلود أدم. وأشار (عواد) إلى خزانة أبي عمرو بن العلاء (١٥٤/٧٧٠) وكانت دفاتره ملء بيته إلى السقف، وإلى خزانة الواقدي (٢٠٧/٨٢٢) وكانت عشرين ومئة حمل، وكان له غلامان يكتبان الليل والنهار.

وإلى خزانة الأصمعي (٢١٦/٨٣١)، ومحمد بن عبد الملك الزيات (٢٣٣/٨٤٧)، وإسحق ابن ابراهيم الموصلي، والفتح بن خاقان، وهي التي وصفها ابن النديم بقوله: "جليلة القدر لم ير أعظم منها كثرة". كما ذكر خزائن كتب لكل من علي بن يحيى المنجم (٢٧٥/٨٨٨) وأبي بكر الصولي (٣٣٥/٩٤٦). وذكر دار العلم التي أنشأها أبو نصر سابور في محلة الكرخ (٣٨١/٩٩١)، وكان بها عشرة آلاف وأربعمئة مجلد، منها ١٠٠ مصحف بخط بني مقلة. وذكر خزانة الصاحب بن عباد (٣٨٥/٩٩٥)، وضمّت (٢٠٦) آلاف مجلد استغنى الصاحب عن أكثرها بكتاب الأغاني للأصبهاني. ثم وقف عند خزانة الخليفة الفاطمي العزيز با لله، وقد وصفها المقريزي فقال: إنها كانت تحوي ألف وستمئة ألف كتاب، وكان فيها نحو (٣٠) نسخة من كتاب "العين" للفراهيدي، منها واحدة بخط الفراهيدي نفسه، وفيها ٢٠ نسخة من كتاب التاريخ للطبري، منها واحدة بخط الطبري نفسه، بالإضافة إلى نسخ عديدة من جمهرة اللغة (لابن دريد)، وغيرها من الكتب التراثية الهامة المؤلفة قبل القرن الخامس للهجرة.

وحاول (كوركيس عواد) أن يستقصي فهارس المخطوطات العربية، وهو ابن بجدتها، فكان مما رجع إليه منها:

١ ـ فهارس المكتبة العربية في الخافقين ليوسف أسعد داغر، بيروت ١٩٤٧.

٢ ـ قائمة ببلوغرافية بفهارس المخطوطات العربية والشرقية المحفوظة بدار الكتب والمكتبات الملحقة بها ، القاهرة ١٩٥٩.

٣ ـ المخطوطات العربية في العالم ـ ببلوغرافية الفهارس، لهويسمان ، ليدن ١٩٦٧.

٤ ـ وعاد إلى ما نشره هو حول فهارس المخطوطات في العراق والمخطوطات العربية خارج الوطن العربي (مجلة المورد ٥ (١٩٧٦) ع ١ ص ١٧١ ـ ٢٤٦).

هذا، وكان همُّ المؤلف في كتابه هذا الإشارة إلى المخطوطات التي أُرِّخت بسنة بعينها، أو تضمنت إشارة إلى تاريخ واضح أو مضمر يثبت أنها نسخت قبل القرن السادس الهجري، كالتملك، والقراءة على عالم، والإجازة...الخ.

ولم يحفل (عواد) بالنقوش الحجرية أو المسكوكات على التحف المعدنية أو الخشب أو السلاح أو المنسوجات أو المباني الأثرية أو شواهد القبور، لأنه عدَّها، جميعاً، خارج نطاق بحثه هذا.

وقد أشرنا إلى أنه صنف المخطوطات العربية القديمة جداً إلى أربع مجموعات هي:

أ ـ المصاحف

ب ـ الكتاب المقدس

جـ ـ أوراق البردي

د ـ كتب التراث العربي القديم.

وفي باب (المصاحف) ذكر أن ما وصل إلينا منها بعضه كامل، وبعضه غير كامل، وأغلبه مكتوب بالخط الكوفي أو القريب منه، ومنها ما هو على رقِّ الغزال. وذكر من بينها نسخة في مكتبة أمانة خزينة الملحقة بطوب قبو سراي في استنبول ـ الرقم (١) ـ وهي بخط كوفي كتب عليها : « إن هذا المصحف الشريف كتبه الإمام الشهير ذو النورين ـ أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه إملاءً من أفواه الصحابة القراء في عصره الذين أخذوا القرآن الكريم عن رسول الله (ﷺ) » ، ومنه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية بمصر (فهرس المخطوطات المصورة: ١: ٢ ـ ٣ تسلسل ١٩ / الكتب السماوية).

كما ذكر نسخة أخرى مكتوبة بخط علي بن أبي طالب على الرق المبشور في متحف (طوب قبو سراي) بتركية رقمها 36 E.H.29 قوامها ١٤٧ ورقة. في آخرها: "كتبه علي بن أبي طالب".

وأشار (كوركيس عواد) إلى نسخة في مكتبة أمانة خزينة ملحقة بطوب قبو سراي ـ الرقم ٤٤، وذكر فيها أنهـا بخط خديج بن معاوية بن مسلمة الأنصاري، كتبها للأمير عقبة بن نافع، وهو باني مدينة القيراون، وكتبها خديج سنة ٤٩ هـ، وتقع في ٢٢٦ ورقة، ومنها نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية (فهرس المخطوطات المصورة ١: ١ ـ ٢، تسلسل ٩ / ١ الكتب السماوية.).

وأشار أيضاً إلى نسخة في مكتبة أمانة خزينة ملحقة بطوب قبو سراي الرقم ٣٩ نسخها جعفر بن محمد بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب قوامها ١٦٢ ورقة، ومنها نسخة في معهد المخطوطات العربية (فهرس المخطوطات المصورة ١:٢ تسلسل ١١/ الكتب السماوية)، "وانظر الأعلام (٢ : ١٣٧) حيث صورة عن الصفحة الأولى".

ويتابع المؤلف إشارته إلى وجود مصاحف مخطوطة في مكتبات العالم الأخرى، فيذكر نسخة في غاية النفاسة، تُنسَب كتابتها إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، توجد في مكتبة (رضا رامبور) في (الهند) قوامها ٣٤٣ ورقة، ومكتوبة بالخط الكوفي. ويشير إلى نسخة أخرى في القاهرة قوامها ١٠٠٠ ورقة كتبت على رق الغزال بين سنتي ٢٥ و ٣١ هـ، اكتشفت في رواق المغاربة بالجامع الأزهر بالقاهرة. ويذكر نسخة من القطع الكامل بخط كوفي على رق الغزال من غير نقط ولا شكل ولا كتابة لأسماء السور وعدد الآيات، على عادة الرسم في صدر الإسلام، جيء بها من الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) إلى دار الكتب المصرية... كتبها أبو سعيد الحسن البصري سنة ٧٧ هـ. (انظر فهرس الدار ١: ٥ الرقم ١٣٩).

أما الكتاب المقدس، فيشير كوركيس عواد إلى نسخة منه بالعربية في مكتبة دير طورسينا، قوامها ٧٥ ورقة كتبت بخط متوسط بين الكوفي والنسخي، في القرن الرابع الهجري، وإلى نسخة ثانية في مكتبة طورسينا قوامها ١٣٩ ورقة كتبها موسى الراهب على رق بخط كوفي عتيق بين أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث للهجرة (انظر ص ٦١ و ٦٢ من أقدم المخطوطات العربية في العالم).

ويذكر (عواد) نسخة من الإنجيل في مكتبة الفاتيكان يرقى زمانها إلى القرن الثاني للهجرة، وصفها لويس شيخو في مجلة المشرق (٤: ٩٩)، وقال: هي مترجمة عن الأصل اليوناني. كما يذكر أن من رسائل بولس والأعمال نسخة في مكتبة طورسينا، قوامها ٢٦٩ ورقة مكتوبة على الرق في دمشق سنة (٨٦٧/٢٥٣) (ص ٦٥).

ومما يشير إليه أيضاً أنه قد عُثر على قسم من مزامير داود في ساحة الجامع الأموي بدمشق مكتوبة باللغة العربية، لكن بالحرف اليوناني، ويرقى إلى العصر الأموي، ويُحيل هنا

إلى (حبيب زيات) وكتابه (خزائن الكتب في دمشق وضواحيها) المطبوع في القاهرة ١٩٠٢م، وإلى مجلة المشرق (٥: ٤٧).

وفي الباب الثالث، وهو حول أوراق البردي العربية، يذكر (كوركيس عواد) أن ما عثر عليه من البرديات يُعدُّ بآلاف القطع، فيها السليم وفيها المهشم، والكتابات التي عليها تتعلق بموضوعات شتّى، وتبدأ من صدر الإسلام حتى نهاية القرن الخامس الهجري. ويوجد في دار الكتب المصرية ٤٤٤ ورقة بردي، أقدمها مؤرخ بسنة ٨٦ / ٧٠٥ م، وهي في موضوعات اقتصادية واجتماعية وإدارية، درسها وقرأها المستشرق (جروهمان) وشاركه د. حسن ابراهيم وعبد الحميد حسن ومحمد مهدي علام وعبد العزيز الدالي ... ويشير المؤلف إلى أوراق بردي أخرى في (جامعة شيكاغو) درستها نبيهة عبود... وإلى قطعة من ورق البردي ترجع إلى أواخر القرن الأول للهجرة في معهد آسيا للاستشراق في (لينغراد). وثمة برديات عربية أخرى في (ليدن) ومكتبة دار الكتب المصرية (انظر فهرس الدار ٥ : ٣٢٥).

أما الباب الرابع والأخير، فهو أكبر أبواب الكتاب، وفيه أشار الببلوغرافي (كوركيس عواد) إلى مخطوطات من كتب التراث القديم تعود إلى القرون الخمسة الأولى للإسلام، تأليفاً ونسخاً. وكان ترتيبه لها حسب الترتيب الألفبائي للعنوانات.

ومما ذكره في هذا الباب نسخة تعد أقدم مخطوطات مكتبة الظاهرية (سابقاً)، حسبما أخبرني (صلاح الخيمي) أمين المخطوطات قبل نقلها إلى (مكتبة الأسد الوطنية)، وهذه النسخة هي (مسائل الإمام أحمد بن حنبل) وهي نسخة مكتوبة سنة (٢٦٦ / ٨٧٩) ورقمها /٣٣٤/ حديث في ٨٦ ورقة.

ومن المخطوطات القديمة في الظاهرية يشير إلى نسخة من: أمالي أبي جعفر البحتري، وأبي بكر النجاد، وجعفر بن محمد بن نصير، وهي نسخة عتيقة عليها سماع بتاريخ (١٠٢٦/٤١٧). ويُحيل هنا إلى (الألباني ص ١٠٨ الرقم ٣٩٨).

ومن مخطوطات المتحف البريطاني: الإيناس في علم الأنساب، للوزير المغربي (١٠٢٧/٤١٨)، وهي نسخة برقم ٣٦٢٠ نقلت عن هذا المؤلف، وعليها علامة التصفح والمقابلة بخطه، في ١٠٨ ورقات. ومن مخطوطات المكتبة المركزية بجامعة طهران، مسائل

حنين بن إسحق (٢٦٠ / ٨٧٣) وهي نسخة برقم ٢١٦٥ كتبت في حياة المؤلف سنة (٢٤٩ / ٨٦٣) (راجع مجلة المكتبة ١، بغداد، تموز ١٩٦٠ ع ٣ ص ٢٣).

ومن مخطوطات المشهد الرضوي بطهران: فحول الشعراء، لأبي تمام (٨٤٦/٢٣١)، وهي نسخة فريدة برقم ٨٣ / أدبيات في ١٩٣ ورقة، كتبت في القرن الخامس للهجرة، ووصفها محمد أسعد طلس في بحثه: نفائس المخطوطات العربية في المشهد الرضوي المطهر (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ـ مجلد ٢٤ (١٩٤٩) ص ٢٧٤).

ومن مخطوطات المغرب العربي: كتاب النحو، لأبي علي الحسن بن عبد الله المعروف بلُغْدة الأصفهاني (٢١٠ / ٨٢٥)، ومنه نسخة في مكتبة الخزانة العامة بالرباط في ١٦ صفحة ضمن مجموع برقم ١٠٠ / ٥ ق تاريخها (٩٦٢/٣٥٢) وعنها نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية (انظر مجلة المعهد ٢٢ (١٩٧٦) ص ٢٠ مسلسل ١٦١).

ومن مخطوطات مكتبة الشيخ عارف حكمت بالمدينة المنورة: التشبيهات، لابن أبي عون (٩٣٤/٣٢٢). ونسخة هذه المكتبة كتبت سنة (٤٦٦ / ١٠٧٣). ويراجع بشأنها مجلة المعارف ج ١٨ ص ٣٢٩ وتصدر في بلدة (أعظم كره)، وجرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ٤:١٣٣، وطرّازي ١: ١٥١.

ومن مخطوطات جامعة ليدن بهولنده: كتاب إصلاح المنطق، لابن السكّيت وتاريخ نسخة هذا الكتاب (١١٠١/٤٩٥) ورقمها ٤٦، وعليها خط أبي بكر يحيى بن علي التبريزي تاريخه (١١٠٣/٤٩٦). ومن مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس: أخبار ملوك العرب الأولين من بني جرهم وهود، للأصمعي والنسخة المرادة هنا هي برقم ٦٧٢٦ عربيات، كتبها ابن السكيت على الرق بالخط الكوفي في (٥٢) صفحة، سنة (٢٤٣ / ٨٥٧). وعنها نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي (راجع ميخائيل عواد: مخطوطات المجمع العلمي العراقي ـ دراسة وفهرسة (١ بغداد ١٩٧٩ ص ٢٣٣ الرقم ٦ / تاريخ).

ومن مخطوطات الأسكوريال في إسبانية : الإبل، للأصمعي. وهذه النسخة برقم ١٧٠٠ بخط أبي منصور بن أحمد الجواليقي سنة (٤٥٠ / ١٠٥٨ م) ويراجع بشأنها فهرس الغزيري (Casiri vol 11.P167)، ومقدمة رمضان عبد التواب لكتاب الأمثال، لأبي

عكرمة الضبي ـ ط دمشق ١٩٧٤ ص ١٥.). ومن مخطوطات جامع الزيتونة بتونس: الغريب المصنف، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي البغدادي (٢٢٤ / ٨٣٨). وقد كتبت نسخة هذه المخطوطة سنة (٤٠٠ / ١٠٠٩) بخط نسخي نفيس مشكول، وهي برقم ٣٩٣٩ في ٣٠٨ ورقات. وعنها نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية (فهرس المخطوطات المصورة بالمعهد (١٩٥٤) ص ٣٦١ الرقم ١٨١/علم اللغة) وراجع (الزركلي: الأعلام ٣ ط ٤ بيروت ١٩٧٩ ص ٣٢٦).

وبعد، فهذه نماذج عشرة من المخطوطات الـ (٧١٧) التي ذكرها (كوركيس عواد) أتيت بها من أماكن مختلفة، لأدلل على مدى الجهد المبذول في هذا المؤلف القيّم، وعلى مدى المساحة الجغرافية التي تبعثرت فيها المخطوطات العربية القديمة جداً.

وعلى الرغم مما تقدم، فإنني لا أدع عرض هذا الكتاب قبل أن أسجل حوله النقاط التالية:

أ ـ إننا إزاء سفر نفيس أطلعنا على مخطوطات نادرة وقيمة، سيقدر للباحثين وطلبة الدراسات العليا في مختلف الجامعات العربية الإفادة من بعضها دون ريب... ولكن لا يمكن للمصنف (عواد) أن يزعم أنه استكمل ذكر جميع المخطوطات العربية التي وصلت إلينا، ويرجع تاريخها إلى القرون الخمسة الأولى للإسلام، والدليل أنه أغفل ذكر مخطوطة للغريب المصنف، لأبي عبيد القاسم بن سلام توجد في مكتبة الأمبروزيانا بميلانو، كتبت في جمادى الأولى سنة ٣٨٤ هـ، وعدد أوراقها ٢٠٤ ورقة. وذلك حسبما يذكر (جريفني) (انظر مناهج تحقيق التراث، لرمضان عبد التواب، القاهرة ١٩٨٦ ص ٦٨).

وأغفل مخطوطة ديوان عبيد بن الأبرص التي أخرج عنها المستشرق (لايل) الديوان، وهي مخطوطة قديمة جداً ومؤرخة بسنة ٤٣٠ هـ، (انظر مناهج تحقيق التراث، لعبد التواب ص ١٢٧). وكذا تناهى إلينا خبر إذاعي يفيد أنه يوجد في (موريتانيا) نسخة مخطوطة لكتاب مروج الذهب، للمسعودي (٣٤٦ / ٩٥٧)، بخط مؤلفها، ولم يشر إليها (عواد) في كتابه هذا.

وهناك دون ريب الكثير من المخطوطات العربية التي تقبع على رفوف مكتبات خاصة وعامة وتحقق شرط هذا الكتاب، ولم ترد الإشارة إليها فيه.

ب ـ إن المقارنة بين عنوانات المخطوطات المذكورة، وما طبع منها، تكشف عن أن بعضها قد طبع دون علم ناشريها بالنسخ القديمة المشار إليها في هذا السفر القيم، ومن تلك مثلاً كتاب إصلاح المنطق، لابن السكيت، فقد أخرج المرحومان أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون هذا الكتاب، دون أن يعلما بمخطوطة له نفيسة، توجد في جامعة ليدن برقم ٤٦ تاريخها ٤٩٥ هـ وعليها خط التبريزي، وقد مر ذكرها من قبل. نقول هذا ونحن نعلم أن أصول نشرة (إصلاح المنطق) التي أشرنا إليها هي أربع مخطوطات يعود أقدمها إلى القرن الرابع الهجري وعليها سماع لأحمد بن فارس سنة ٣٧٢ هـ وهذه المخطوطة من مخطوطات مكتبة المنصورة بمصر. ومن تلك الكتب المطبوعة أيضاً: كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، فقد حققه علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، ونشراه في سنة (١٣٧١ / ١٩٥٢) عن ثلاث نسخ، الأولى في (الأستانة) وتاريخ نسخها ١٣٢٠ والثانية بدار الكتب المصرية ونسخت سنة ١٠٩١ هـ، والثالثة نسخة من الجزء الأول ونسخت سنة ١١٦٢. ولم يعلم المحققان بأن لهذا الكتاب الهام نسخة توجد في المكتبة الرضوية بمشهد (انظر مجلة معهد المخطوطات ٦ (١٩٦٠) ص ٣٢٩) وبخط مؤلفها أبي هلال، ومؤرّخة بسنة ٣٩٤ / ١٠٠٣ م ـ انظر ص ١٦٦).

جـ ـ أشار (كوركيس عواد) في كتابه هذا إلى مخطوطات بمنتهى النفاسة، قلما يعرفها المختصون، منها مثلاً نسخة كتاب الصناعتين التي كتبت بخط مؤلفها ـ كما ذكرنا سابقاً، ومنها نسخة من كتاب الفصاحة للخفاجي (١٠٧٣/٤٦٦)، وقد كتبت بخط المؤلف سنة ٤٥٤ هـ، وتوجد في مكتبة برلين برقم ٧١٧٣، وعنها نسخة مصورة في دار الكتب المصرية بالقاهرة (فهرس الدار ٢: ٢٠٢).

ومن المخطوطات النفيسة جداً أيضاً مخطوطة الإيناس في علم الأنساب، للوزير المغربي، وهي في المتحف البريطاني في ١٠٨ورقات، وعن هذه المخطوطة، ومخطوطة أخرى، أخرج الشيخ حمد الجاسر هذا الكتاب بالرياض عام (١٩٨٠/١٤٠٠). ومخطوطة

المقابسات، لأبي حيان التوحيدي، وتوجد في الظاهرية، وهي برقم ٤٨٠٣ / عام في ٣٢ ورقة (راجع فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية/ الفلسفة والمنطق وآداب البحث لعبد الحميد حسن / دمشق ١٩٧٠ ص ٧٢ ـ ٧٣). ومنها مخطوطة: البيان في ما يستعمله الإنسان، للطبيب أبي علي يحيى بن عيسى بن جزلة ـ الطبيب البغدادي (٤٩٣ / ١١٠٠)، وهي في المتحف البريطاني، وكتبت في حياة المؤلف سنة (٤٨٩هـ) في ٢٣٩ ورقة. ومن المخطوطات النفيسة نسخة من كتاب: الموشح للمرزباني (٣٨٤ /٩٩٤) توجد في مكتبة أحمد الثالث باستنبول، كتبت في حياة المؤلف سنة ٣٦٦ هـ، في ٣٠٠ ورقة (راجع بشأنها: تذكرة النوادر ص ١٢٥ ـ ١٢٦).

وثمة نسختان من ديوان الشريف الرضي، الأولى كتبت في عهد المؤلف المتوفى سنة (٤٠٦ / ١٠١٥)، وتوجد في خزانة السيد محمد بحر العلوم في النجف، والثانية عليها إجازة بخط صاحب الديوان للبيهقي تاريخها (٤٠٣ / ١٠١٢)، وتوجد في خزانة داعي السلام السيد محمد علي في حيدر آباد بالهند.

د ـ إن المؤلف كان يشير أحياناً إلى أن بعض المخطوطات التي يذكرها قد طبع، ويذكر اسم المحقق ومكان الطبع وتاريخه. وبدهي ألا يشير إلى ما طبع من عنوانات وردت في كتابه، وطُبعت بعد تاريخ صدوره، وهو سنة ١٩٨٢. لذا وجدنا من المناسب أن نغطي هذه الثغرة في حدود علمنا المتواضع بما نشر من المخطوطات، التي ورد ذكر عنواناتها في هذا الكتاب. فمن تلك المخطوطات التي طبعت على سبيل المثال، لا على سبيل الاستقصاء:

١ ـ أخبار ملوك العرب الأولين من بني جرهم، أو تاريخ العرب قبل الإسلام، للأصمعي. ونشره الشيخ محمد حسن آل ياسين في بغداد، معتمداً على نسخة باريس المشار إليها ها هنا، وذلك في السنة ١٩٥٩ م.

٢ ـ إصلاح ما غلط فيه أبو عبد الله النمري فيما فسره من أبيات الحماسة، للأسود الغندجاني. وقد حققه ونشره الدكتور محمد علي سلطاني في الكويت (معهد المخطوطات العربية) سنة ١٩٨٥.

٣ ـ الخيل، للأصمعي. وقد نشره د. نوري حمودي القيسي في بغداد، بالاعتماد على مخطوطة الظاهرية المشار إليها في هذا الكتاب، والتي يرجع تاريخها إلى سنة ٤١٠ هـ.

٤ ـ العروض، لابن جني. وقد حققه ونشره الدكتور أحمد فوزي الهيب في الكويت سنة ١٩٨٧. وأشار الدكتور الهيب إلى ثلاث مخطوطات أخرى لهذا الكتاب، عدا التي ذكرها (كوركيس عواد). وثمة مخطوطات كثيرة ذكرت في كتاب (أقدم المخطوطات العربية في العالم) نشرت قبل صدور هذا الكتاب، مثل كتاب ضرائر الشعر للقزاز القيرواني، وكتاب الإيناس في علم الأنساب للوزير المغربي، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، والفهرست للنديم، وشعر سلامة بن جندل، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس، والورقة لابن الجراح، وديوان ابن الدمينة، وديوان البحتري، وديوان الحادرة، وديوان حسان بن ثابت، وغريب الحديث للقاسم بن سلام، وغريب الحديث لابن قتيبة.

وأخيراً يمكننا أن نقول بثقة: إننا إزاء مصنف قيم جداً، استغرق من صاحبه جهداً ببلوغرافيا كبيراً، فاستحق منا هذه العناية التي لا نزعم أنها تغني عن العودة إليه من قبل المختصين بعالم المخطوطات العربية المبثوثة في أرجاء الوطن العربي والعالم، ومن قبل الباحثين في تاريخ حركة نشر التراث العربي في زماننا المعاصر.



تاريخ التراث العربي

لفؤاد سزكين (المجلد الثاني)

صدرت الترجمة العربية لموسوعة البحَّاثة (فؤاد سزكين) « تاريخ التراث العربي ». وهي موسوعة مؤلفة من عشرة مجلدات نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض، في ثمانينيات هذا القرن، بعد أن قام بترجمتها د. محمود فهمي حجازي، وراجع الترجمة د. عرفة مصطفى و د. سعيد عبد الرحيم.

وقد تناولت هذه الموسوعة التراثَ العربي، بكل أصنافه، وكل جوانب التأليف فيه، سواء كانت دينية، أو لغوية، أو أدبية، أو تاريخية، أو علمية أساسية، أو علمية تطبيقية، حتى السنة (٤٣٠ / ١٠٣٨).

ويهمُّنا هنا أن نعرِّف بالمجلد الثاني، من تلك الموسوعة، الموقوف على الشعر الجاهلي والإسلامي فحسب، فهو قسمان، يتكون القسم الأول منه من مقدمة يتطرق فيها المؤلف إلى جهود المستشرقين وبحوثهم في الشعر الجاهلي والمخضرم، ويشير فيها إشارات سريعة وموجزة إلى أعمال (يعقوب جوليوس) المتوفى سنة ١٦٦٧، ويمر بجهود (فريتاخ) و (دي برسفال) و (دي سلان) و (فون هامر بورجشتال). وهذا الأخير ألف كتاباً عن تاريخ التراث العربي في القرن التاسع عشر يحتوي على (٩٩١٥) ترجمة، وكان آخر مجلد له قد ظهر سنة ١٨٥٦. ثم يذكر (سزكين) ما صنَّفه (آلوارد) من تحقيق لشعر الشعراء الستة الجاهليين (لندن ١٨٧١)، ليصل إلى كتاب (كارل بروكلمان) الذي ظهر أصله بين سنتيْ ١٨٩٨ و ١٩٠٢. وقد ذكر (سزكين) أن (بروكلمان) اعتمد اعتماداً شديداً على فهرس (آلوارد) للمخطوطات العربية بالمكتبة الملكية في برلين، الذي صنعه بين سنتي ١٨٨٧ و١٨٩٩. وكان القسم الأساسي منه مخصصاً للشعر. وهو يتألف من عشرة مجلدات.

ونمر سريعاً من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين ليطالعنا فيه، فيما يطالعنا، كتاب (ريشر): موجز تاريخ التراث العربي، وذلك بين سنتي ١٩٢٥ و ١٩٣٣. ثم نرى (بروكلمان) وقد استدرك على أصل كتابه ذيلاً ظهر بالألمانية بين سنتي ١٩٣٧ و ١٩٤٢. وكذلك يشار في هذا الصدد إلى كتاب تاريخ الأدب العربي الذي ألفه (ريجيس بلاشير) بالفرنسية، وترجمه ابراهيم الكيلاني إلى العربية، وهو في ثلاثة مجلدات.

ثم يجيء أخيراً هذا الكتاب الذي نقف عنده « تاريخ التراث العربي » وهو مطبوع، أولاً، بليدن، بالألمانية، في سبعينيات هذا القرن. وسنقصر حديثنا - كما ذكرنا - على المجلد الثاني منه، وهو المجلد الخاص بالشعر القديم.

ففي القسم الأول من هذا المجلد يتكلم (سزكين) على نشأة الشعر العربي وأشكاله، فيذهب إلى أن أقدم شاعرين جاهليين، وهما مهلهل وعمرو بن قميئة، لا تتجاوز سنة ميلادهما، على الأرجح، سنة (٤٥٠ م). (وسزكين) بهذا ينسجم مع مقولة (الجاحظ) في كتابه (الحيوان) عن عمر الشعر الجاهلي التي تفيد: أن عمر الشعر العربي الذي نتدارسه اليوم لا يتجاوز مئة وخمسين سنة قبل الإسلام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتا سنة على الأكثر... وقد أثبتنا في أطروحتنا للدكتوراه، وهي بعنوان « الشعراء الجاهليون الأوائل »، أن هذا الحكم غير صحيح، ولدينا شعر عربي قابل للثقة به ظهر في القرن الثالث الميلادي، أي قبل الإسلام بنحو أربع مئة عام. ومن شعراء القرن الثالث الميلادي، مثلاً، جذيمة الأبرش، وابن أخته عمرو بن عدي، وخصم هذا الأخير عمرو بن عبد الجن التنوخي.

وينتقل (سزكين) إلى الحديث عن رواية شعر الجاهلية وصدر الإسلام، وأصالته، ويستعرض هنا آراء المستشرقين في توثيق الشعر العربي وفي تزييفه.

ويشير إلى جهود (مرجليوث) و (طه حسين) و (تشارلز لايل) و (كرنكو) و(برونليش) و (بلاشير)... وتبدو آراء (سزكين) في هذا الصدد أقربَ إلى الثقة بجمهرة ما ورثناه من شعر جاهلي وأبعد عن الشك، فهو يقول: «والأمل معقود في أن يظل البحث في المستقبل بعيداً عن هذا الشك المتحيز والعقيم عند النظر في مصادر الشعر الجاهلي» (مجلد ٢ قسم ١ ص ٤٨).

وعندما يصل المصنّف إلى البحث في مصادر شعر الجاهلية وصدر الإسلام بشكل مفصل، يتناول طريق وصول الشعر إلينا، ويتحدث عن دواوين الشعراء، ودواوين القبائل، ويشير إلى خبر يفيد بتدوين شعر الأنصار في هجاء قريش، منذ القرن الأول وفي عهد عمر بن الخطاب، الذي أمر بهذا التدوين، ثم يمضي فيتكلم على مجموعات القصائد المختارة بدءاً بالمعلقات، فالمفضليات، فالأصمعيات، فجمهرة أشعار العرب. ويتابع كلامه عن كتب الاختيارات، وكتب الحماسات، وكتب الأدب وقيمتها في دراسة الشعر، مثل البيان والتبيين للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وكتب الأمالي والنوادر، وينتقل إلى كتب الأبيات والقطع المتفرقة وكتب الطبقات... الخ. وينهي الجزء الأول من مجلده هذا الخاص بالشعر، بالكلام على نظرية الشعر، ويُعنى هنا بذكر كتب النقد الأدبي، وخاصة التي أخرجها أولاً اللغويون العرب القدامى، كقواعد الشعر، لثعلب... فهذا الكتاب ونظائره بعيدة عن التأثر بالمفاهيم الأرسطية في نقد الشعر، ويمكن أن نضيف أنّ العرب عوّضوا عن نظرية أرسطو في الفن الشعري بمفاهيم عمود الشعر العربي، التي لخص مبادئها السبعة المرزوقي في مقدمة كتابه: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام.

ومن المعروف أن مسألة تأثر النقد العربي بالنقد اليوناني قضية إشكالية كثر الأخذ والرد فيها، وهي بين مؤيد للقول بالتأثر، ومُنْكِر له. وفي كتابنا هذا مقاربة لهذا الموضوع تتمثل بدراستنا لكتاب: فن الشعر لأرسطو وأثره في البلاغة والنقد العربيين لشكري عياد، فلتراجع في مكانها.

ومع الجزء الثاني من موسوعة سزكين نصل إلى تراجم الشعراء ومصادرهم وآثارهم، إذ يبدأ المؤلف كتابه بالحديث عن الشعراء الستة الجاهليين، وشعراء المعلقات السبع، أو التسع، وهم: النابغة الذبياني، وعنترة بن شداد، وطرفة بن العبد، وعلقمة بن عبدة، وامرؤ القيس الكندي، ولبيد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، والأعشى. والمعروف أن بعض شراح المعلقات قد أبدلوا علقمة بن عَبَدَة بعبيد بن الأبرص، وهذا ما فعله التبريزي في كتابه «شرح القصائد العشر».

ويبدو أن سزكين أدرج علقمة بين هؤلاء الشعراء حين وجد قصيدة له مشروحة مع شعر أصحاب المعلقات عند الأعلم الشنتمري (٤٧٦ هـ) وأبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي (٤٩٤ هـ) (انظر مجلد٢ ق ١ ص ٣ و ٤).

وينتقل الباحث بعدئذٍ إلى الشعراء الصعاليك الذين يذكر منهم الشنفرى، وتأبط شراً، والحارث بن ظالم، والسليك بن السلكة، وقيس بن الحدادية، وحاجز الأزدي، وعروة بن الورد.

ونجده يقسم الشعراء الجاهليين الأُخَر حسب المناطق التي ظهروا أو عاشوا فيها، فهناك شعراء الشام، وجنوبي العراق، وشمالي نجد (كلب وقضاعة وتغلب وبكر). ومن هؤلاء زهير بن جناب الكلبي، ووعلة الجرمي، وعبد الله بن عجلان النهدي، ومهلهل، والأخنس بن شهاب وغيرهم. وهناك شعراء الحيرة وما حولها، ومنهم أبو دؤاد الإيادي، وعبد المسيح بن عسلة، وعبيد بن الأبرص، وأوس بن حجر، والمتلمس الضبعي وغيرهم وشعراء منطقة الفرات الأدنى والخليج العربي وشرقي الجزيرة واليمامة كشعراء عبد القيس وغيرهم، وشعراء نجد وتخومه من الحجاز واليمن: الرباب، طيِّىء، أسد... وشعراء الحجاز، وشعراء هذليون، وشعراء مكة وما حولها، وشعراء المدينة وما حولها، واليمن، موطناً وأصلاً، وأخيراً النساء الشاعرات.

والحقيقة أن الدقة لم تُحالفْ (سزكين) في توزيع هؤلاء الشعراء حسب مواطنهم، فهو مثلاً يعد المتلمِّس الضبعي وعبيد بن الأبرص من شعراء الحيرة، والمعروف أن المتلمس من شعراء بكر، من بني ضبيعة، ومنازلهم كما يذكر هو (ص ١١٥) بين اليمامة والبحرين، وقد عُدَّ من شعراء البحرين في بعض الدراسات المعاصرة. ولا يكفي لقاءُ المتلمسِ عمرَو بن هند، وغضب هذا الأخير منه ومن ابن أخته طرفة، وإرسال صحيفة لعامله على البحرين لقتلهما، لعدّ المتلمس من شعراء الحيرة. ومن المعروف أن المتلمس قد ترك الحيرة وسكن بصرى في حوران، بعد أن اكتشف حقد ابن هند عليه وألقى صحيفته بنهر الحيرة، وقد عاش بقيّة عمره في بصرى الشام ومات فيها (انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ج١ ص ١٨٢). أما عبيد بن الأبرص فهو من قبيلة أسد بلا خلاف، وكان الأوْلَى بالبحّاثة سزكين أن يدرجه مع شعراء

نجد وتخومه من الحجاز واليمن، (الرباب وطيء، وأسد)، وقد فعل هذا مع شاعر آخر من أسد هو بشر بن أبي خازم، و لم يَفْعَلْه مع عبيد! والشيء ذاته يمكن أن نقوله عن أوس بن حجر الذي كان فَحْل مضر غير المنازع، إلى أن نشأ النابغة وزهير فأخملاه كما يقول أبو عمرو بن العلاء (الشعر والشعراء ١ / ٢٠٢).

ويحتوي هذا الجزء على (٢٨٠) ترجمة لشعراء جاهليين أو مخضرمين، انتهت حيواتهم في أغلب الظن قبل سنة (٥٠ هـ). ولا يعبر هذا العدد عن شعراء الجاهلية والإسلام بدقة، ففي الجاهلية وحدها، ما يقرب من ثلاثة آلاف شاعر... ولكننا لا نستطيع أن نبخس هذا الرقم دلالته على مجموع الشعراء،إذا كان الغرض هنا هو التمثيل إذ تكفي عينة ١٠ ٪، أو ما يقاربها، من مجموع ضخم، لتحقيق غرض التمثيل.

وقد كانت خطة (سزكين) في ترجمة كل شاعر من هؤلاء الشعراء أن يتحدث عنه بصفحة أو أكثر أو أقل، أو بأسطر قليلة معدودة، يذكر بعدها المصادر التي ذكرته، أو حَوَتْ أخباراً عنه، أو دراسة لشعره، ثم تأتي النقطة الثالثة وهي أهم ما في الكتاب، في نظري، وتتناول الكلام على ديوان الشاعر، وطبعات هذا الديوان، ومخطوطاته التي لم تنشر بعدُ. ويكشف ذكر المخطوطات في مختلف أنحاء العالم، الذي أورده المؤلف، عن رحلة في طلب العلم محمودة، وعن رغبة كبيرة في جمع العلم واستيعابه. وإزاء هذه الترجمات والإحالات الواسعة لايملك المرء إلا أن يثني على جهود المؤلف العظيمة، وأن يكبر فيه الهمة العالية، والنشاط الجم، والإرادة الفذة، فمثل هذا الأثر العظيم لا ينتجه إلا رجل عظيم.

بيد أن أمر العلم عجيب، فليس يمكن أن تقال فيه كلمة أخيرة جامعة مانعة، وذلك بسبب الجهود المتكاثرة التي تطلع علينا بجديدها يوماً إثر يوم، حتى إن الاستقصاء يبدو دائماً عزيز المنال، فهناك الكثير الذي يمكن تداركه مما يتصل بترجمات الأعلام ومصادرهم، ومخطوطات آثارهم، ولا غرو في ذلك، فالمؤلف وقف في محاولته هذه عند السنة ١٩٧٥. وهي السنة التي طبع فيها كتابه هذا في مدينة (ليدن) بهولنده.

ولكن ما يستدرك، يبقى دون أن ينال من هذا المؤلَّف الشامخ الذي لا يكاد باحث في الأدب القديم أن يستغني عنه أو يضرب عنه صفاً.

قصائد جاهلية نادرة من مخطوط منتهى الطلب

لمحمد بن المبارك بن ميمون

نشرها الدكتور يحيى الجبوري

من بين المجموعات الشعرية القديمة التي يؤول إليها الباحثون في الشعر القديم تبرز قصائد هامة جمعها حماد الرواية، تسمى المعلقات، وعددها سبع قصائد، وفي روايات أخرى عشر. وقصائد جمعها المفضل الضبي في القرن الثاني الهجري فسميت باسمه: (المفضليات) وعددها (١٣٠) قصيدة. وقصائد أخرى جمعها الأصمعي تسمى (الأصمعيات)، وعددها (٩٢) قصيدة، ويليها حماسة أبي تمام، وحماسة البحتري، وجمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، ومختارات شعراء العرب، لابن الشجري، وحماسة الظرفاء، للزوزني، والحماسة المغربية، للجراوي التادلي، والدر الفريد، لابن أيدمر، وقد بلغ هذا المجموع الأخير عشرين ألف بيت شرود فذّ محكم مضبوط منقح محكك...الخ .

ولكن أيّاً من هذه المصادر الهامة، عدا « الدرّ الفريد »، ربما لم يبلغ في استيعابه وشموله ما بلغه مخطوط « منتهى الطلب من أشعار العرب »، لصاحبه محمد بن المبارك بن ميمون، ذلك العالم الفذ والراوية الأديب الذي عاش في القرن السادس الهجري، وجمع ما جمعه في شهور سنتي (٥٨٨ و ٥٨٩ هـ) في بغداد، حسبما يذكر هو نفسه، وقد كان عمره إذ ذاك جاوز الستين، فما الذي صنعه، وكيف صنع؟

يقول ابن المبارك في كتابه: « هذا كتاب جمعتُ فيه ألف قصيدة اخترتها من أشعار العرب، وجعلته عشرة أجزاء، وضمنت كل جزء فيها مئة قصيدة، وكتبت شرح بعض غريبها في جانب الأوراق، وأدخلت فيه قصائد المفضليات، وقصائد الأصمعي التي اختارها، ونقائض جرير والفرزدق، والقصائد التي ذكرها ابن سلام الجمحي في كتاب الطبقات، ولم

أخلَّ بذكر أحد من شعراء الجاهلية والإسلاميين الذين يستشهد بشعرهم، إلا من لم أقف على مجموع شعره، ولم أره في خزانة وَقْفٍ ولا غيرها، وإنما كتبت لكل أحد ممن ذكرت أفصحَ ما قال وأجوده حتى لو سير ذلك على منتقد بعلمٍ، عرف صدق ما قلت».

والحق أن عوادي الأيام قد عَدَتْ على هذا المجموع الفذّ العظيم. فضاع مع أسفار المكتبة العربية التي ضاعت، ولم يبق إلا بعضه، وهذا الباقي هو الجزء الأول والجزء الثاني، وهما معروفان لكثيرين من المهتمين بالأدب القديم، ولا يزالان مخطوطين. ولكن الأقدار أتاحت للدكتور (يحيى الجبوري) أن يعثر بجزأين آخرين هما: الثالث والخامس، بين مخطوطات مكتبة جامعة (ييل) بالولايات المتحدة الأمريكية. وهذان الجزآن هما اللذان أخرج منهما كتابه هذا الذي نتحدث عنه «قصائد جاهلية نادرة». وكان الدكتور الجبوري قد نشر، من خلال هذين الجزأين، شعر عمر بن لجأ التيمي، وأبي حيّة النميري، وعمرو بن شأس الأسدي، وهدبة بن خشرم العذري، وخداش بن زهير العامري، والحارث بن خالد المخزومي. وقد ظهر من هذه الأشعار المنشورة ثلاثة في دمشق، هي شعر أبي حية النميري، وشعر هدبة بن خشرم العذري، وطبعا في وزارة الثقافة في سنتي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ على التوالي. وشعر خداش بن زهير وظهر ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية عام ١٩٨٦ .

أما هذا الكتاب «قصائد جاهلية نادرة» فقد حوى شعر ستة عشر شاعراً مغموراً هم: عدي بن وداع، وحاجز بن عوف، وزهير بن مسعود الضبي، وعمرو بن براقة الهمداني، ومعقر بن حمار البارقي، وعبيد بن عبد العزى السلامي، وامرؤ القيس بن جبلة السكوني، وامرؤ القيس بن عمرو الحارث السكوني، وعبد الله بن ثور العامري، ومالك بن زرعة الباهلي، وأبو قردودة الطائي، وعامر بن جوين الطائي، وبشر بن عليق الطائي، ومحرز بن المكعبر الضبي، وعبد الله بن سليم الأزدي، وأبو الطمحان القيني.

وهؤلاء الشعراء ليسوا جميع الشعراء الذين حواهم الجزآن الثالث والخامس، ففي الجزء الثالث وحده روى ابن ميمون لأربعة عشر شاعراً، ما مجموعه (١٥٠) قصيدة ومقطعتان وبيتان مفردان، عددها جميعاً (٦٨٢٨) بيتاً. أما الجزء الخامس ففيه قصائد لواحد وثمانين شاعراً عددها (١٧٨) قصيدة، أبياتها (٦٦٤٨) بيتاً.

والكتاب الذي نتدارسه هنا هو (قصائد جاهلية « أو مخضرمة» نادرة)عددها (٢٣) قصيدة منسوبة إلى شعراء جاهليين (أو مخضرمين) قلما نعرف عنهم شيئاً.

ولكن النصوص التي تخيَّرها الدكتور الجبوري في كتابه هذا تؤكد أن لكل من هؤلاء الشعراء شخصية متميزة، فمنهم البطل المحارب، ومنهم الشاعر العاشق، ومنهم الصعلوك واللص، والشاعر القبلي الحريص على انتصار القبيلة والفخر بالأمجاد والمآثر.

وقد شرح صاحب هذا الكتاب الصادر في بيروت عام ١٤٠٢ / ١٩٨٢ منهجه في إخراجه فقال:

«حاولت أن أستشير مصادرنا عن هؤلاء الشعراء، فما جاء فيها غير إشارات يسيرة لا تغني شيئاً، لذلك كان الجهد منصبّاً على خدمة القصيدة نفسها، بأن قدمت إضاءة عن جو القصيدة ومحتواها، وشيئاً عن الشاعر إن وجد، وأكثر ما وجد من خلال القصيدة، وجعلت ذلك مدخلاً للقصيدة نفسها، ثم حققت النص وضبطته وصححته، ثم شرحت مفرداته اللغوية، وعينت المواضع التي يشير إليها الشاعر على قدر ما تسعف كتب البلدان، وأوضحت بعض المعاني الغامضة والإشارات إلى الوقائع والأيام، ثم ألحقت بقية شعر الشاعر إن وجدت له بقية في الكتب، ولم تنل هذه البقية أو التتمة مني عناية كبيرة، من حيث استقصاء الشعر وتخريجه، لأن هذا عمل ثانوي آخر، وإنما دونت ما وجدته أمامي في الطريق أثناء العناية بالقصيدة النادرة نفسها» (ص ٥).

ملاحظات واستدراكات:

ومن خلال شرط الباحث في كتابه هذا سنعالج، على عجل، عناية الناشر بخدمة القصيدة نفسها، كما ذكر في مقدمته، فمن المؤسف أن أخطاء كثيرة في الضبط، وأن أغلاطاً عروضيّة، قد شابت القصائد التي اختارها الدكتور الجبوري، وَوَصَفَها بـ « الجاهلية النادرة»، ونمثل على ذلك بما يلي:

١ - (ص ٨٧) جاء في قصيدة زهير بن مسعود الضبي هذا البيت بهذا الشكل:

(فانهلّ) دمعكَ في الرداءِ وهلْ ... يبكي الكبيرُ الأشمَطُ الراسِ

وقد جعل الباحث همزة (أنهل) همزة قطع، وهي همزة وصل، لأن الفعل خُماسي ماضٍ.

وتكرر ما يشبه هذا في مواضع أخرى من الكتاب (انظر مثلاً البيت ١٠ ص ١١٠، والبيت ٧ ص ١١٣، والبيت ٢٤ ص ١١٥، والبيت ٣٣ ص ١٢٣..الخ) وفيها جميعاً أغلاط في همزتي الوصل والقطع. وربما كان ذلك من أخطاء الطباعة. وعندئذ لا مؤاخذة .

- وفي الصفحة ذاتها (٨٧) ضبط المؤلف كلمة (ذَعْلَبِيَّة) في البيت الخامس بفتح الذال واللام . والصواب كسرهما، (ذِعْلِبِيَّة) (انظر القاموس المحيط « ذعلب »).

٢ - (ص ٩٤) ورد في صدر البيت (٢٥) «قولهم بـرٌ» والصواب تشديد الراء ثم تنوينها.

٣ - (ص ١٠٠) جاء في صدر البيت الأول: « تقول سليمى لا تُعرِّضْ لتلفة».

والصواب تَعَرَّضْ، واصلها (تَتعرَّضْ) وقد خُفّفت. وهي كذلك في رواية البيت في (الأغاني ٢١ / ١٧٥ والوحشيات ٣١) .

٤ - (ص ١١٢) جاء في قصيدة معقر بن حمار البارقي هذا البيت هكذا:

تـراءتْ يـومَ نَخْـلَ بِمُسْـتَكِرٍّ تَرَبَّـبَهُ الذّرِيْـرةُ والنصيـفُ

وقد شرح المحقّق كلمة (تَرَبَّبَهُ) بـ (تربيه) . ولا ينسجم هذا الشرح مع معنى البيت. ولعل (تَرَبَّبَهُ) محرّفة عن (تُزَيِّنُهُ) .

٥ - (ص ١١٣) جاء هذا البيت بهذا الضبط:

علـى فيهـا إذا دَنَـتْ الثريـا دُنُـوُّ الدلـوِ أسـلمها الضعيـفُ

وفيه التقى ساكنان في (دَنَتْ الثُّرَيَّا) وهذا غير جائز في العربية.

٦ - (ص ١٢١) البيت (١٥) جاء صدره كما يلي :

«فجن هُدوًّا والثياب كأنها»

والصواب: «فجئن هدوًّا...». ولعل هذا خطأ مطبعي.

٧ ـ ص ١٢٢ البيت (٢٦) جاء كما يلي:

مخافة أن أَقْلَى إذا شِـئْتُ سـائلاً ... وترجعـني لحـوَ الرجـالِ المطـامعُ

ولا معنى للبيت بهذه الصورة وهذا الضبط، وخاصة إذا ضبطت كلمة (أقلى) بفتح الهمزة، والصواب في اعتقادي: «مخافة أن أُقْلَى إذا جِئْتُ سائلاً» فالمرء قد يكره أو يقلى إذا جاء سائلاً. وكلمة (جئت) تتناسب، من حيث المعنى، مع كلمة (ترجعني). والذي يبدو لي أنّ ثمة تحريفاً في (شئت) حُرِّفتْ فيها الجيم إلى شين.

٨ ـ ص ١٤٩ البيت الأول ورد كالتالي:

طَرِبْتَ وعنَّاكَ الهوى والتَّطـرُّبُ ... وعـادَتْكَ أحزانٌ تَشوْقُ وتَنصِـبُ

وفتح تاء (تَنْصِب) وكسر الصاد فيها غير سليم. والصواب أن تضبط بضم التاء وكسر الصاد (تُنْصِبُ). وإن كان لا بدّ من فتح التاء، وجعل الفعل من الثلاثي (نصِب)، فالواجب فتح الصاد لتصبح (تَنْصَبُ)، فعين (نصِب) مفتوحة في المضارع، وهي من باب (فرِح ـ يفرَح) . انظر القاموس المحيط (نصب).

هذا، وقد أحال الضبط الناقص والمغلوط إلى أخطاء في العروض، وإلى أبيات اختلت أوزانها، ومن أمثلة ذلك ما جاء في الصفحات التالية:

٩ ـ ص ١٠٩ جاء البيت الثالث، من شعر معقر بن حمار البارقي، كما يلي:

تُهيِّبُكَ الأسفارُ مِنْ خشيةِ الرَّدى ... وكـمْ قـدْ رَأَيْنـا مِـنْ رَدٍ لا يُسـافِرُ

وفي صدر هذا البيت غلطان، وخلل عروضي. والصواب:

« تُهيِّبُكَ الأسفارَ مِنْ خشيةِ الرَّدى» ـ وانظر (معجم الشعراء ص ٩».

١٠ ـ ص ١٨٧ البيت (٨) جاء مختلاً عروضياً، بسبب توزيع شطرَيْه كما يلي:

ليـالِيَ نَلْهُــوْ بالشَّــبابِ وَنتَّقــي   العُيونَ ولا نُفْشي الحديثَ المُكَتَّمـا

والصواب أن يوزع شطراه كما يلي ليستقيم وزنه:

ليـالِيَ نَلْهُـوْ بالشَّـبابِ ونتَّقـي الـ   ـعُيونَ ولا نُفْشِي الحديثَ المُكَتَّما

١١ ـ ص ١٨٩ البيت (٢٥) ضُبِط ضبطاً أخلَّ بوزنِهِ فقد جاء كما يلي:

وإنّـا صَبَحْنـا اليزنيَّـةَ منكُـمْ   دَماً ثُمَّ رَوَّينا الصَّفيحَ المُصَمَّمـا

وبتسكين الميم في (منكمْ). ينكسر البيت. والصواب أن نضمَّهـا (مِنْكُـمُ)، لتصبح عروض البحر الطويل (مفاعلن)، لا (مفاعِلْ).

ومن الواضح أن الباحث يحيى الجبوري لم يستنفدْ جهده في جمع شعر أي شاعر، من هؤلاء أصحاب (القصائد النادرة)، وهي نادرة لقلة تداولها، وليس لقيمتهـا الفنِّـيَّةَ. ولكنه، والحق يقال، وضع للباحثين عتبة يعبرونها إلى بحوث أخرى في استقصاء أشد، وشمول أوفـى. وتمثيلاً على ما سبق نجده يقول عن الشاعر امـرئ القيـس بـن عمـرو بـن الحـارث السُّكوني الكنـدي (ص ١٤٧): «المصـدر الوحيـد الـذي ذكـر هـذا الشـاعر هـو المؤتلـف والمختلـف للآمدي (ص ٦)، وساق له الآمدي خمسة أبيات أخرى من قصيدته البائية التي مطلعها:

طَرِبـتَ وعنّـاكَ الهـوى والتَّطـرُّبُ   وعـادَتْكَ احـزانٌ تَشـوقُ وتُنْصِـبُ

في حين جاءت هذه القصيدة في (منتهى الطلب) في أربعة وثلاثين بيتـاً، ولئـن خـدم (الجبوري) الباحثين في إثبات هذه القصيدة من المخطوطة التي بـين يديـه، إنـه قَصَّـر في ذكـر ترجمة هذا الشاعر، وفي حَصْرِ مصادره في كتاب واحد هو (المؤتلف والمختلف)، ولـو فتحنـا كتـــاب (معجـم الشعـراء من العصر الجاهلي حتى نهاية العصـر الأمـوي)، للدكتـور عفيـف عبد الرحمن) لوجدنـاه يسوق مـن مصـادر هـذا الشاعر ومراجعه عـدا (منتهـى الطلـب):

١ـ المزهر للسيوطي ٢ / ٤٥٦، وأخبار المراقسة ٣٥٣ ـ ٣٥٤، وجمهرة النسب ٢ / ٣٥٥ (انظر معجم الشعراء، لعبد الرحمن، بيروت، دار المناهل ١٩٩٦ ص ٢٨ ـ ٢٩).

وثمّة ملاحظات أخرى تتصل بجمع شعر الشاعر، وبشرح بعض المفردات الغريبة، الذي لم يستوفه الباحث، نترك التفصيل فيها لاعتقادنا بأنه (يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق) .

بيد أن ما تقدم لا يجعلنا نبخس هذا الكتاب حقّه، فهو يطلعنا على كنوز قيّمة من تراثنا الشعري القديم، ويكشف لنا عن بنى جديدة للقصيدة الجاهلية، ويوسع أُفُقَ نظرتنا إلى الشعر الجاهلي، ويفيدنا في ترسيخ بعض أحكامنا حول هذا الشعر، أو بالعكس، في نقض بعض الأحكام المتّصلة به، أو في تعديلها، حين يعوزها شرط الشمول المتوخّى في الدراسات الجامعية الجادة.

ويبقى الشعر الوارد في كتاب « قصائد جاهلية نادرة » وثيقة علمية وأدبية هامة. في مقدور المرء أن ينفذ من خلالها إلى جوانب شتى من حياة العرب قبل الإسلام، سواء كانت جوانب أدبية أو تاريخية أو اجتماعية أو حضارية، وفي إمكان الباحث أيضاً أن يفيد منها في الاستدراك على بعض ما نشر من أشعار تتصل بها، أو تتقاطع معها، وهذا ما فعلناه في دراستنا لأشعار العامريين الجاهليين فيما يلي هذا البحث.



أشعار العامريين الجاهليين

للدكتور عبد الكريم يعقوب

في القرنين الثاني والثالث للهجرة برز اتجاه قوي لجمع شعر القبائل، وتمثل هذا الاتجاه في جهود علماء كبار، أمثال أبي عمرو الشيباني (٢٣١ هـ)، ومحمد بن حبيب (٢٤٥ هـ)، وأبي سعيد السكري (٢٧٥ هـ). وقد ذكر الآمدي (٣٧٠ هـ) في (المؤتلف والمختلف) أسماء ستين قبيلة صُنِعَ لها أشعار، أو أُلِّفَ فيها كتب حوت أخبارها وأشعارها. وكذلك ذكر ابن النديم في كتابه (الفهرست) أسماء (٢٨) قبيلة صُنعت لها أشعار على يد السكري، ويزيد هذا العدد إلى نيف وثمانين قبيلة قام أبو عمرو الشيباني بجمع أشعارها. ولكن هذه الأشعار — مع الأسف ـ ضاعت و لم يصل إلينا منها سوى ديوان هُذَيْل، الذي صنفه أبو سعيد السكري، وقد نشر مراراً كان آخرها في القاهرة في ثلاثة أجزاء ظهرت بين عامي ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠.

وفي عصرنا هذا بُعِث هذا الاتجاه من جديد، فقد قام السيد (صلاح كزارة) بجمع أشعار تميم في العصر الجاهلي، ونشره في (ايرلانجن) بألمانيا عام ١٩٨٢. والكتاب رسالة علمية قدمت لإحدى الجامعات الألمانية. وقد جمع الباحث صلاح كزارة / ١٠٧٨ / بيتاً لـ /٨٨ / شاعراً تميمياً جاهلياً، ممن ليس له ديوان. وكذلك قام السيد (عبد الحميد محمود المعيني) بجمع شعر بني معين في العصر الجاهلي وتحقيقه، وقد نشره في بريدة بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٨٢ (انظر نشرة أخبار التراث العربي الصادرة في الكويت عام ١٩٨٣ — العدد التاسع ص ٢٨). وحدثني الدكتور هاشم ياغي من الجامعة الأردنية بأنه تم تكليف عدد من طلاب الدراسات العليا في الأردن بجمع أشعار بعض القبائل ودراستها، لينالوا بهما درجات علمية عليا، وفعل نظير هذا طلبة سوريون كثر، فقاموا بجمع أشعار قبائل قديمة، وصنعوا منها أطروحات لنيل شهادة الدكتوراه، أمثال علي أبو زيد الذي جمع شعر تغلب،

وأحمد حالو الذي جمع شعر طيّىء، ومحمد علي دقة الذي جمع شعر قبيلة أسد بن خزيمة، وشفيق بيطار الذي جمع شعر كَلْب.

والكتاب الذي نتناوله هنا (أشعار العامريين الجاهليين)، وقد نشره الدكتور عبدالكريم يعقوب، كُلّف بما يماثله أحد طلبة الدراسات العليا في جامعة عين شمس بالقاهرة، وقد أنجز عمله ونال به درجة الماجستير، والطالب هو عز الدين أحمد البدوي النجار. وكان عنوان بحثه بالضبط « تحقيق ديوان عامر بن الطفيل العامري ودراسة شعره مع جمع لشعر العامريين » - (انظر نشرة أخبار التراث العربي في الكويت - آب ١٩٨٣ العدد ٨ ص ٢٥).

وعمل الدكتور يعقوب هذا يُعَدُّ شاهداً على الجهود المكررة التي كان بالإمكان ادخارها وتوفيرها لأعمال علمية أخرى، لو أن التواصل العربي الثقافي، والتبادل العلمي بين الأقطار العربية، والباحثين العرب، كان أوسع وأوثق وأعمق.

ونحن هنا نودُّ أن نعرض لهذا الكتاب الذي بين أيدينا لِنُعرِّفَ به أولاً، وندلي برأينا فيه ثانياً. وفي كل ذلك يحدونا أمران: الأول أمل بأن يتسع صدر المؤلّف لما نأتي به من ملاحظات، والثاني رغبة في أن يكون أيُّ عمل علمي في صورة قريبة من الكمال، هذا الكمال الذي يطمح إليه البشر ولا يبلغونه.

صدر هذا الكتاب عن دار الحوار باللاذقية عام ١٩٨٢. وهو يحوي مجموعة من الأشعار لبني عامر. وعامر هذه قبيلة عظيمة عدَّها بعض القدماء من جماجم العرب، أي من رؤوسهم وأسيادهم. والحق أن هذه القبيلة أنجبت كثيراً من الأشراف والسراة أمثال خالد بن جعفر الكلابي، ومعاوية بن مالك بن جعفر الكلابي، وعوف بن الأحوص، وعامر بن مالك، وكان من شعرائها الكبار في الجاهلية: لبيد بن ربيعة، وعامر بن الطفيل، والنابغة الجعدي، وتميم بن أبي بن مقبل، وحميد بن ثور الهلالي. ولكل من هؤلاء الشعراء ديوان مطبوع، أو شعر مجموع.

ولكن هذه المجموعة لم تحوِ أيَّ بيتٍ من أبيات أولئك الذين ظهر شعرهم في ديوان مجموع، سواء كان صانعهُ قديماً أو مُعاصراً، بل حوت أشعار الشعراء الذين ليس لهم ديوان. وقد جمع الباحث الدكتور (يعقوب) في هذا الكتاب، الذي بلغت صفحاته (١٤٤) صفحة،

(٤٥٠) بيتاً من الشعر والرجز، وكانت هذه الأشعار والأرجاز معزوّة إلى (٣٠) شاعراً عامرياً.

وإذا ما قارنّا عدد أبيات هذه المجموعة، وعدد شعرائها، بأشعار تميم وشعرائها في الجاهلية التي جمعها د. صلاح كزارة، نجدهما قليلين جداً، وسنرى مصداق ذلك بعد قليل.

وبالإجمال فإن ملاحظاتنا على (أشعار العامريين الجاهليين) تتركز في النقاط التالية:

أولاً ـ حوت هذه المجموعة شعراً لشعراء عامريين مخضرمين أمثال خداش بن زهير، وعامر بن مالك، وجبار بن سلمى، وهذا أمر يجعل من عنوانها عنواناً تعوزه الدقة، فالحق أنه يجب أن يضاف إلى كلمة (الجاهليين) الواردة في العنوان (والمخضرمين).

ثانياً ـ إن الدكتور يعقوب لم يراع في تصنيف شعراء المجموعة، الذين عرف بهم في صدر كتابه، أي أساس من أسس التصنيف أو التبويب، فقد عزف عن الترتيب الهجائي، فاعتقدنا أنه صنفهم حسب كثرة الشعر المجموع لكل شاعر من الشعراء المعنيين، ولكن الكثرة، أو القلة، لم تكن المبدأ المرعي أيضاً. وقد قمت بإحصاء شعر كل شاعر من شعراء المجموعة فوجدت أن خداش بن زهير هو أكثرهم شعراً، وقد جاء في الترتيب أولهم وهذا حسن. ولكني فوجئت بأنّ الباحث يذكر شريح بن الأحوص، قبل بحير بن عبد الله القشيري، وللأول (١٤) بيتاً، وللثاني (١٦) بيتاً، ثم ينقلنا مباشرة إلى عبد الله بن جعدة وله (١٢) بيتاً، ليسوق بعده أشعار عروة الرحال، وله خمسة أبيات، ويعقبه بقحافة بن عوف بن الأحوص، وله (١٦) بيتاً من الشعر والرجز، وهكذا...

ثالثاً ـ ثمة نقص خطير في هذه المجموعة يجعلها بعيدة عن تمثيل شاعرية قبيلة عامر، ففي شعر خداش بن زهير مثلاً، وتحت رقم (٦)، نجد الدكتور يعقوب يسوق (١٦) بيتاً، ثم يأتي بالقطعة رقم (٧)، وهي لخداش أيضاً، وأبياتها خمسة أبيات، والقطعتان المقطّعتان هما قصيدة واحدة مثبتة في الجزء الخامس من (منتهى الطلب) لمحمد بن المبارك بن ميمون البغدادي، وقد أشار إلى ذلك الدكتور يحيى الجبوري في كتابه «قصائد جاهلية نادرة» (بيروت ١٩٨٢ ص ٣٢). وإذا كان د. يعقوب قد جمع من هذه القصيدة (٢١) بيتاً في

قطعتين، فإن صاحب (منتهى الطلب) جعلهـا في (٤٧) بيتـاً، وبـذا تنقـص هـذه القصيـدة ـ (٢٦) بيتاً عن الأصل المثبت في منتهى الطلب.

ولا شك أن د. يعقوب معذور لهذا، فهو لم يطلع ـ كما يبدو ـ على الجـزء الخـامس من (منتهى الطلب)، ولا عَجَبَ من أنه لم يطلع على كتاب د. يحيى الجبوري المذكور آنفـاً، فقد صدرت مجموعته وكتاب الجبوري في سنة واحدة.

ولكن الباحث يعقـوب وقـع علـى مـا يفيـده بـأن القطعتين (٦ و ٧) همـا قصيـدة واحدة، في مصدر مـن مصـادره، هـو المقـاصد النحويـة للعيـني (٢ / ٣٧١)، فهـو يقـول في حاشيته رقم ٢ ص ٢٧: « جعل العيني الأبيات الأربعة الأولى مطلعاً للقصيدة السـابقة، رقـم (٦)، والأصح أن هذه الأبيات الخمسة قطعة أخرى غير السابقة، لأنها نقيض تام معهـا، وإن اتفقتا في الوزن والقافية ». وحبذا لو لم يخطِّىء الباحثُ العينيّ، لأن ما قاله العينيُّ هو الصواب بعينه.

وكذلك في شعر خداش بن زهير نقص آخر في القطعة رقم (١٣)، فهي في المجموعة التي نحن بصـددها (٦) أبيات، في حين يسوقها محمد بن المبارك بن ميمـون علـى أنهـا (٣٤) بيتاً (انظر قصائد جاهلية نادرة ص ٣٢)، وبذا يفوتنا (٢٨) بيتاً من هذه القصيدة، وكان قد فاتنا في ما سبق ـ (في القطعتين ٦ و ٧) (٢٦) بيتـاً، فيصـير المجمـوع (٥٤) بيتـاً، خـلا عنهـا مجموع شعـــر خداش بـن زهير وحده في هذه المجموعة.

وكُتبنا هذا قبل أن يظهر شعر خداش بن زهير في كتاب مسـتقل . أمّـا وقـد أصـدر مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٦ (شعر خداش) بتحقيـق الدكتـور (يحيـى الجبـوري) . فإننا رأينا أن نقـارن بـين صنيـع الدكتـور (يعقـوب) وصنيـع الدكتـور (الجبـوري)، ففعلنـا ، فوجدنـا أن شـعر هـذا الشـاعر يزيـد عنـد الأخـير عنـه عنـد الأول (٧٦) بيتـاً ، فهـو عنـــد (الجبوري) (٢٧٥) بيتاً ، وعند (يعقوب) (١٩٩) بيتاً.

وفي وسعنا الآن أن نستدرك على ذينك العملين ، فنضيف أربعـة أبيـات لخـداش بـن زهير ، خـلا عنهـا العمـلان ، وهـي في (قصيـدة الدامغـة) للهمذانـي (ص٢٠٦) وأول هـذه الأبيات المكتظة بالتحريف والتصحيف :

دعوتُ إليه عصبةً عامريّةً　　حِسانَ الوجوه يلبسون السّنورا

ولا ندري إذا كانت الأبيات الأربعة في (قصيدة الدامغة) بين أشعار خداش بن زهير التي جمعها الدكتور (رضوان محمد حسين النجار) ونشرها في مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية (بالرياض - ع١٣-١٤ لعام ١٤٠٣/١٤٠٤هـ) لأننا لم نتمكن من الاطلاع عليها .

وإذا ما تركنا شعر خداش وانتقلنا إلى شعر عوف بن الأحوص، فإننا نستطيع أن نضيف إليه من (لسان العرب) بيتاً لم يرد في المجموعة، فقد قال عوف في مادة (عمرد):

وثارتْ بهم قتلى حنيفةَ إذْ أبَتْ　　بنسوتهم إلا التّجاءَ العَمَرّدا

وقد أخلّت (أشعار العامريين الجاهليين) بأبيات أخرى لشعراء آخرين، ففي وسعنا أن نضيف، ونحن على غير مهل من أمرنا، ستة أبيات إلى الأبيات الـ (٢٢) المعزوة إلى أبي براء عامر بن مالك، خمسة منها وردت في كتاب الشمشاطي (الأنوار ومحاسن الأشعار) (تحقيق د. السيد محمد يوسف، الكويت ١٩٧٧ ج١ ص ١٨٩) قالها أبو براء إثر هزيمته أمام قُرْط بن السفيح بن السفاح في يوم الأثلب، وهي:

لعمركَ ما طَعْنُ الرئيس بِبدعةٍ　　خلال الوغى ذا لجدةٍ من هوازنِ
سموتُ إلى الخيل المغيرة صبحةً　　فعارضني قُرْطٌ بأسمرَ مارنِ
فجاشت به نفسي وللمرء نبوةٌ　　فكنتُ كضرغامٍ خضيبِ البراثنِ
نبا عطفُهُ عن قرنِهِ حيث لم يجدْ　　مصيداً بجأشٍ في العجاجَةِ ساكنِ
فإن ألقَ قرطاً أجزهِ حَذْوَ نعلِهِ　　بواءً، وما قرطٌ لتلك بآمنِ

ولعامر بن مالك أيضاً بيت في (المستقصى من أمثال العرب) للزمخشري (بيروت ١٩٧٧ ط ٢ ج ١ ص٢٥٨) ليس في المجموعة، وفيه يخاطب قيس بن زهير، والبيت:

ومـا أمُّ أدراصٍ بـأرضٍ مَضَلَّـةٍ   بأغدرَ مـن قيـسٍ إذا الليـلُ أظْلما

ولشريح بن الأحوص سبعة أبيات في مخطوطة (الأنس والعرس)، للآبي، المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس (ورقة ١٤٩ ب) لم ترد في مجموع أشعار العامريين، والأبيـات السبعة هي:

تَبَغَّ ابنَ عَمِّ الصِّدْقِ حيثُ وجدْتَـهُ   فإنَّ ابـنَ عَـمِّ السُّوْءِ أوْعَرَ جانبُـهْ
تَبَغَّيْتُـهُ حتّـى إذا مـا وجدْتُـهُ   أراني نهـارَ القيـظِ تجري كواكِبُـهْ
فـإنْ أنـا عِتـهُ لا تَدَعْـني أذاتُـهُ   وتدبُـبُ إليّ حيثُ كـانتْ عَقارِبُـهْ
شجيَ ثابتـاً في الحَلْقِ ليسَ ببارحٍ   وليسَ بمنزوعٍ، وإنْ مـاتَ صاحِبُـهْ
ألمَّـا إذا اسـتغنيتُمْ، فعدوُّكُـمْ   وأدْعَى إذا ما الدهـرُ نـابتْ نوائِبُـهْ
مِنَ الناسِ، مَنْ يَغْشَى الأباعدَ نفعُهُ   ويَشْقَى بـهِ حتّى المـماتِ أقارِبُـهْ
فـإنْ يَـكُ خـيراً فـالبعيدُ ينالُـهُ   وإنْ يَكُ شرّاً، فابنُ عمِّكَ صاحِبُـهْ.

٤ ـ إن عدد الشعراء، وهو (٣٠) شاعراً، يثير شكاً عريضـاً في أن يكـون هـذا هـو العدد الكامل لشعراء عامر في الجاهلية وصدر الإسـلام، وأستظهر علـى مـا أقـول بـأنني قـد جمعت من أسماء شعراء قبيلة واحدة، تضارع قبيلة (عـامر) في الجاهليـة، مـا يربـو علـى هـذا العدد، من خلال ثلاثة مصادر أساسية فقط، وأن شعراء قبيلة أسد بن خزيمة، وكذلك شعراء قبيلة تغلب، وقبيلة طيّىء يربو كل منهم على خمسين شاعراً. ومما يؤكـد أن شـعراء جـاهليين عامريين سقطوا من مكانهم اللائق في هذه المجموعة ـ غياب اسم الشاعر الشجاع (عمرو بن حذار) هذا الذي ذكره المرزباني في (معجم الشعراء) (تحقيق فرّاج، القـاهرة ١٩٦٠ ص ٣٧ ـ ٣٨) فقال:

«عمرو بن حذار من بني واثلة بن صعصعة ويُكنّى أبا أُبيّ، ويدعى ذا العنـق، وكـان شجاعاً، وهو الذي قتل بشر بن أبي خازم الأسدي، وكان عمرو مع عامر بن الطفيل في يوم الرقم، وأغارت بنو عامر على بلاد غطفان فقال عمرو لفرسه، وأبلى يومئذٍ بلاءً حسناً:

أقـــــدمْ قُدَيْـــــدُ لاتكـــــنْ خَلُوْســـا

لأطعَنَـــنّ طعنـــةً قَلُوسـا

ذاتَ رشـــاشٍ تَـــزَعُ الخميســـا

مَـــنْ لا يقـــاتلْ لايكـــنْ رئيســـا

فقال عامر بن الطفيل:

وأبـــو أبـــيّ مـــا مُنيـــتُ بمثلِـــهِ	يـا حبّـذا هـو مُمْسـياً ونهـارا
لقـــيَ الخميـــسَ أبـو أبـيّ بـارزاً	الوائلـــيُّ وحـــرّمَ الإدْبـــارا
عمرو الذي جعلتْ سَلولُ وعامرٌ	يـوم الصبـاحِ يُجنّبـون فِـرارا»

ولا ريب في أن شعراء آخرين كثيرين ينتمون إلى بني عامر، كان يمكن أن يزيدوا العدد المذكور آنفاً، إن لم يضاعفوه، لو أن الاستقصاء كان أشد وأشمل.

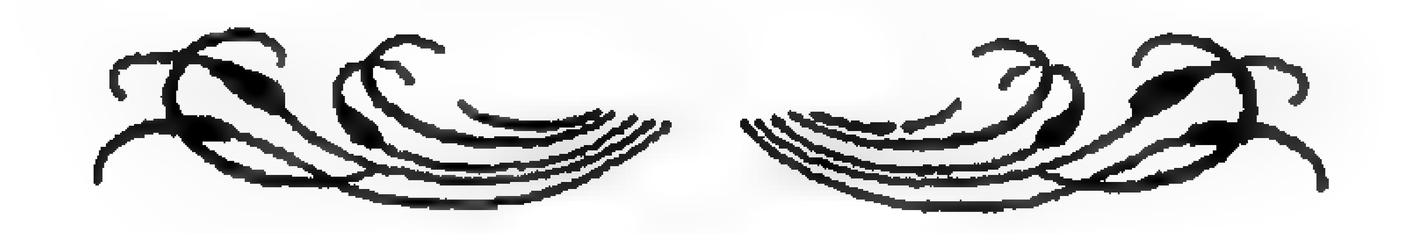
وعلى الرغم من أن الإحاطة بشعراء قبيلة واحدة أمر شبه محال - كما يقول ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) فهو «أكثر من أن يحيط به محيط، أو يقف وراء عددهم واقف، ولو أنفذ عمره في التنقير، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال» - (الشعر والشعراء، تحقيق أحمد شاكر - ط ٢، ١ / ٦٠)، فإننا نثق بأن عدد شعراء بني عامر، وعدد أبياتهم، سيتضاعفان، إذا أتيح للدكتور يعقوب أن يطبع كتابه ثانية في قابل الأيام.

خامساً - إن عمل أي مجموعة شعرية لقبيلة من القبائل ربما يكون أكمل وأفضل، إذا ما شفع بجريدة نسب تبين عشائرها وبطونها، وتوضح معالم القربى بين أعلامها وشعرائها، ففي هذه الجريدة جدوى لا جدال فيها، وهذا أمر افتقدناه في مجموعة الشعراء العامريين.

سادساً - بلغت مصادر الدكتور يعقوب في مجموعته هذه (٩٩) مصدراً، وهو عدد قليل نسبياً، وربما كانت قلته وراء بعض الملاحظات السابقة، هذا أمر. والأمر الآخر الذي يمكن أن يقال في المصادر هو العودة إلى بعض الطبعات التي لم تعد نافعة، فالباحث مثلاً يرجع إلى الطبعة الأولى لكتاب «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي (٢٣١ هـ)، تحقيق

محمود شاكر، وهذه الطبعة وقع التنصُّل منها من قبل المحقق في مقدمة الطبعة الثانية، حيث يقول شاكر: «فأنا لا أحلُّ لأحد من أهل العلم أن يعتمد بعد اليوم على الطبعة الأولى من طبقات فحول الشعراء مخافة أن يقع بي في زلل لا أرضاه له، وأضرع إلى كل من نقل عن هذه الطبعة شيئاً في كتاب، سواء كان قد نسبه إلي أم لم ينسبه، أن يراجعه على هذه الطبعة الجديدة من الطبقات، لينفي عن نفسه وعمله العيب الذي احتملت أنا وحدي وزره» ـ (انظر مقدمة الطبعة الثانية لطبقات فحول الشعراء، القاهرة ١٩٧٤، ص ٧٠)، ولما كان الدكتور يعقوب من أهل العلم، وجب أن تكون إحالاته إلى الطبعة الثانية من الكتاب المذكور.

أخيراً إن هذه الملاحظات تبقى أقلَّ وأضألَ من الجهد المشكور الذي بذله الدكتور يعقوب في جمعه وتخريجه لهذه الأشعار، التي لولاه لما صارت في حوزتنا، بعد أن كانت مشتتة ومبعثرة هنا وهناك.



شاعرية المتنبي في نقد القرن الرابع للهجرة

لمحي الدين صبحي

يأتي كتاب «شاعرية المتنبي في نقد القرن الرابع للهجرة» للناقد المعروف محي الدين صبحي، الصادر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق عام ١٩٨٣، بعد مجموعة من الكتب النقدية للمؤلف نفسه، أسهمت إسهاماً طيباً في حركة التأليف في النقد الأدبي المعاصر، بدءاً من كتاب «نزار قباني شاعراً وإنساناً»، ومروراً بـ «الأدب والموقف القومي» و«مطارحات في فن القول» و «الكون الشعري عند نزار قباني» و «البطل في مأزق» و«دراسات كلاسيكية في الأدب العربي» و «دراستان». بالإضافة إلى ترجمات مفيدة للنقد الإنكليزي كان أبرزها: نظرية الأدب، لرينيه ويليك واوستن وارين، ومقالة في النقد، لغراهام هو، والنقد الأدبي ـ تاريخ موجز، لويمزات وبروكس...الخ.

أما كتاب (صبحي) هذا، فهو من طراز آخر، إنّه ـ كما يفهم من المقدمة ـ دراسة أكاديمية أعدت لنيل درجة الماجستير، بإشراف الدكتور محمد يوسف نجم.

وفي هذه الدراسة نجد الكاتب يجول في بحر قرن زمني، من إنتاج الفكر النقدي العربي التراثي، المنصب على شاعر بعينه، ليستكشف، من خلاله، نظرية شعرية، فارسها علي بن عبد العزيز الجرجاني ـ صاحب كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه».

بيد أن الكاتب، وإن تخيَّر كتاب « الوساطة » ليشكل محور البحث في رسالته، فقد رجع إلى مجموعة من الكتب النقدية التي تمثل ممهدات لانبعاث كتاب « الوساطة »، لذا فهو يقسم دراسته إلى تمهيد، وكتب ثلاثة (أو أبواب ثلاثة)، وخاتمة.

وفي الباب الأول يعالج محي الدين صبحي ما قيل في المتنبي في ثلاثة مصادر نقدية، هي: « الرسالة الموضحة في سرقات أبي الطيب وساقط شعره » للحاتمي (٣٨٨ هـ)، و« الكشف عن مساوئ شعر المتنبي » للصاحب بن عباد (٣٨٥ هـ)، و« المنصف للسارق

والمسروق منه في إظهار سرقات المتنبي » لابن وكيع التنيسي (٣٩٣ هـ). ثم يقارن في الفصل الرابع من هذا الباب بين الموضحة، والمنصف.

أما الكتاب الثاني، فمحوره القيم النقدية في كتاب الوساطة، ويتحدث فصله الأول عن مقاييس الشعر الرديء عند الجرجاني، وفصله الثاني عن السَّرَق عند الجرجاني، والثالث عن مقاييس الشعر الجيد.

وكان الكتاب الثالث والأخير موقوفاً على شاعرية المتنبي في الوساطة، وفصوله الثلاثة هي:

١ - المتنبي في شعره الرديء، ٢ - والمتنبي في شعره الجيد، ٣ - والموازنة بين المتنبي وفحول المحدثين. وينهي الباحث دراسته بخاتمة عنوانها: مقارنات في الممارسة النقدية. وتنطوي هذه الخاتمة على المقارنة بين « الوساطة» وكل من «الموضحة» و «الكشف» و«المنصف».

وقد كان أبرز ما توصل إليه الباحث في حديثه عن رسالة الحاتمي أن صاحبها الذي حاور المتنبي في أربعة مجالس وجهاً لوجه، كان مدفوعاً بنيَّةٍ مُبيَّتة للغضِّ من شاعرية أبي الطيب، والانتقاص منها، كما أنه وقع في تناقض صارخ وتحامل واضح، فحيثما يكشف المتنبي لخصمه الحاتمي عن إساءة أبي تمّام يرد الحاتمي بأن الحسنات تشفع للسيئات، وهذا مبدأ كان ينكره هذا الخصم على أبي الطيب...!

أما في رسالة الصاحب بن عباد، وهي موجهة إلى أحد مشايعي المتنبي، فيظهر النقد الانطباعي الذوقي الذي كان (الصاحب) يعوِّل عليه، كما يبدو أن الحافز لتأليف هذه الرسالة كان الحقد الشخصي.

ومن هنا فالدارس (صبحي) يوافق الناقد محمد مندور، الذي قال عن هذه الرسالة: « جزئية في البحث والنظر، لأن هم الأديب كان التقاط السيئات»، ويعارض بدوي طبانة في إشادته برسالة الصاحب، لأن هذه الإشادة كانت ناجمة عن موقف مسبق، آل إلى الالتزام بتبنيِّ الشخص الذي يترجم له طبانة، والتجاوز عن أخطائه، وهذا ما فعله بدوي طبانة الذي ألف كتاباً عن سيرة الصاحب.

وكان عيب (المنصف) لابن وكيع يكمن في استهتاره بمبادئ المنهجية العلمية، وفي أن كتابه الآنف الذكر أُلِّفَ بإيعاز من خصوم المتنبي في مصر، لذا سوَّغ ابن وكيع لنفسه أن ينتقل من الشعر إلى صاحبه، فيشدد النكير على المتنبي، فيجيء نقده له مكافئاً لهجاء المتنبي لكافور الأخشيدي في شعره.

ويسلم الحديث عن عيوب تلك الكتب إلى الكلام على القيم النقدية في كتاب الوساطة، وهو عنوان الكتاب الثاني من هذه الدراسة. وقد كان من أبرز تلك القيم الحديث عن الناقد الرديء الذي يتصف بالتعصب أو التحامل، أو بالمعالجة القاصرة للشعر، بوصفه بنية من الألفاظ والمعاني، بينها نسب ينبغي تحرِّيه... ومن المبادئ النقدية في الوساطة التسامح في التفاوت في شعر الشاعر، والدعوة إلى فهم التعقيد والتكلف على أساس نسبي.

وفي الفصل الثاني من هذا الباب، وهو السَرَق عند الجرجاني يستنبط الدراس (صبحي) أنّ الجرجاني تصور السَّرَق على أساس أن الإبداع الفني اتِّباعي في أساسه، والابتكار الخالص أمر شبه مستحيل...

ومن هنا كان الجرجاني يحاصر الشعراء باتهامهم « بالنقل والقلب والزيادة والتأكيد والتعويض والتصريح والاحتجاج والتعليل » وذلك لأن القدماء استغرقوا المعاني...

أما مقاييس الشعر الجيد في الوساطة فتنتظمها فكرتان، الفكرة الاولى تقسم إلى قسمين هما:

١ - تكوين الشاعر. ٢ - وصناعة الشعر.

وتكوين الشاعر عند الجرجاني قوامه الموهبة أولاً، والثقافة ثانياً. والموهبة عنصران: الطبع والذكاء. فالطبع هو الذي يلهم الشاعر سلامة اللفظ وسلاسة الأسلوب، وهو مجسَّد في إبداع البحتري، ومعياره هزة الطرب التي يحدثها عند المتلقي. وأثر عفوية الشعر، في النهاية، أعمق في نفس القارئ من أثر الشعر المصنوع المتكلف، في نظر صاحب الوساطة، ومن ثم يأتي دور الرواية والدربة والبيئة الثقافية والتطور الحضاري. ومن جماع الطبع والصنعة يأتي « النمط الأوسط » الذي يلاحظه الجرجاني في شعر عصره.

والفكرة الثانية في مقاييس الشعر الجيد هي صناعة الشعر، وقد عبر عنها العرب بعبارة « عمود الشعر »، وهو ما خلص إليه التراث العربي في النقد حتى زمن الجرجاني. والحق أن « عمود الشعر » هو أساس التفاضل بين الشعراء. يقول الجرجاني:

« كانت العرب تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبَّه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته... ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة، إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض ».

وفي هذه العبارات تكمن النظرية الشعرية التي ربما كان أبرز ما يميزها بُعْدها التام عن كتاب أرسطو في الشعريات.

ويمضي الدارس في شرح عناصر هذه النظرية الشعرية فيقسمها إلى:

أ ـ عناصر تكوينية: وتشمل شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته.

ب ـ عناصر جمالية: وتشمل الإصابة في الوصف، والمقاربة في التشبيه.

جـ ـ عناصر إنتاجية: وتشمل البديهة الغزيرة وكثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة، والفرادة.

كما يلاحظ أن الشعر العربي آنئذ قد تأثر بالبديع والاستعارة اللذين كان ابن المعتز (٢٩٦ هـ) ـ فيما يُظَنّ ـ أول من أشار إليهما في كتابه البديع الذي ألفه عام (٢٧٤ هـ). وهذا ما لم يُوْلِهِ الدارس الاهتمام اللازم، بل وجدناه بعد أن يقول: « الجرجاني ينبه على أن هذه العناصر ليست من صميم الشعر، بل هي حيلة خارجية تفيد الأبيات شيئاً من « الغرابة والحسن » على أنّه ألحقها بعمود الشعر لشيوع استعمالها »، يقول: « وفي وسعنا نحن بعد ألف عام أنْ نقدّر واقعية الجرجاني وصحة حدسه، إذْ قُدِّر لهذه العناصر أن تسيطر على الشعر بعده ».

والحق أن الجرجاني مسبوق بمحاولات أخرى أسهمت في فتح الأبواب أمام «البديع» وترويض النفوس لإساغته وقبوله، بدليل وجوده قبل القرن الثالث في الشعر الجاهلي

والإسلامي، وفي القرآن. بيد أن هذا الوجود لم يكن بمثل الكثافة والغزارة اللتين أتى بهما شعر القرن الثالث، وخاصة شعر أبي تمام وأضرابه.

والمهمُّ أنَّ غاية هذا الباب كانت استنباط العناصر الأساسية في نظرية الجرجاني النقدية، لتكون هذه العناصر مقدمة لازمة لما يليها من حديث عن شاعرية المتنبي، التي كانت عنواناً للباب الثالث من الدراسة، وعنوانا للكتاب بأسره في الوقت نفسه.

والمبادئ الأساسية التي طبَّقها الجرجاني على المتنبي خمسٌ، هي:

أولاً: مقايسة المتنبي بشعراء عصره المحدثين « فهو مثلا كان يجمع بين الطبع والصنعة، وفي صدر شعره الأول احتذى أبا تمام، وفي صدر شعره الثاني أَشْبَهَ مُسْلمَ بنَ الوليد».

وثانياً: الإقرار بالعيب الذي يمحوه الحسن « لك بكل سيِّئةٍ عشر حسنات، وبكل نقيصة عشر فضائل ».

وثالثاً: الدفاع حتَّى عما يعتبر عيباً، لأنه قد لا يكون ساقطاً كله.

ورابعاً: الاحتكام إلى كثرة الحسنات التي ترفع شعر الشاعر.

وخامساً: ربط الأحكام بالأمثلة.

وفي الفصل الأول، من الباب الثالث هذا، يتحدث الباحث صبحي عن المتنبي في شعره الرديء، وكيفية دفاعه عن هذا الشعر. وينتقل في الفصل الثاني إلى المتنبي في شعره الجيد. وعناصر هذا الشعر - كما مرت سابقاً - هي الطبع والرواية والدربة... وقد حوى هذا الفصل كلاماً آخر عن المتنبي وشكل القصيدة، والمتنبي وعمود الشعر، وسرقات المتنبي. وفيه أيضاً عالج الباحث العناصر التكوينية والعناصر الجمالية والعناصر الإنتاجية في شعر أبي الطيب، وهي العناصر التي جعلها الجرجاني أسس التقييم والحكم على الشاعر، وكان صبحي قد استخلصها في الكتاب الثاني ليطبقها على شعر المتنبي. وقد خلص في النهاية إلى أن طريقة أبي الطيب جارية على مناهج الشعراء العرب في التعبير والتخيل والتفكير، وأن الإضافات التي أضافها بشعره إلى التراث تجعل منه شاعراً مبتكراً لا يعتمد على غيره، بل إن أصالته

تظهر، على السواء، في تطوير معاني الأسبقين، وفي إبداع معانٍ وأخيلة جديدة. وفي هـذا ردّ على ابن وكيع التنيسي والحاتمي (انظر ص ١٨٩).

وكان الفصل الثـالث مـن البـاب الثـالث موقوفاً علـى المقارنـة بـين المتنبي وفحـول المحدثين. وفيه وقعت مقارنة بين المتنبي وأبي تمام، لأن اعتماد المتنبي على أبـي تمـام كـان أشـد التهم شيوعاً وأكثرها تتبعاً من النقـاد، فـأورد الجرجـاني (٢٥٠) بيتـاً للمقارنـة، وقـد حكـم الجرجاني بأن المتنبي قصَّر عن أبي تمام في أربعة مواضع، وفضلـه في عشرين بيتـاً. وأمـا مـا لم يعلـق عليـه فيحمـل علـى بـاب التناسـب والمسـاواة. وقـد وقعـت المقارنـة أيضـاً بـين المتنبي والبحتري، فأورد الجرجاني حوالي سبعين بيتـاً يسلّـم للبحـتري بـالتفوق في موضعـين منهـا، وللمتنبي بأربعة عشر موضعاً. وما بقي فيحمل على التناسب والمساواة. ويقارن الجرجاني بين المتنبي وأبي نواس، والمتنبي وابن الرومي، والمتنبي وابن المعتز... الخ.

وختمت الرسالة، كالعادة، بالخاتمة التي وازن فيها محي الديـن صبحـي بـين الوسـاطة وكل من « الموضحة » و « الكشف » و« المصنف »، فوجد أن النية السوداء، في كـل مـن هذه الكتب، لإسقاط الشاعر، والغض من قدره، واضحة جداً. وآيــة ذلـك تجـاهل النواحـي الإيجابية في شعر أبي الطيب، واستخدام مقياسين للحالة الواحـدة، بحيـث أن مـا جُـوِّزَ لأبـي نواس وأبي تمام من سقطات مثلاً لم يُجوَّزْ للمتنبي، كما أن هذه الكتب الثلاثة، علـى عكـس (الوساطة)، حُـبِّرتْ بفعل دافع غير أدبي وغير نزيه، وهي أبعد ما تكون، في أحكامها، عـن التجرد والموضوعية والمنهجية السليمة. وهذا كله كشف عنـه النـاقد الرصين والنزيـه قـاضي القضاة زعيم المعتزلة في عصره: علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة (٣٩٢ هـ).

ويجـدر أن نسـجل أخيراً أن الجرجـاني في ردوده علـى خصومــه الثلاثــة، الحـاتمي والصاحب وابن وكيع، دافع عن شاعره أبي الطيب دفاعاً حميداً، «فأظهر سلامة لغـة المتنـبي، وصحة مذهبه في القول الشـعري، وجريـه علـى عـادة العـرب في الضـرورات. ووجـد شـعر صاحبه يفوق شعر أبي تمام، لأنه أقل تكلفاً منه، ويجاري البحتري في جودة اللفظ، ويبـذه في تركيز المعنى، ويوازي كل ما هو جيد فيما قالته العرب ويطوره، ويعلو بما يمتاز به مـن فـرادة

تشهد لصاحبها بالغزارة في البديهة والقدرة على التصرف في فنون الشعر جميعها، بما يتماشى مع مبادئ عمود الشعر وإضافات المحدثين إليه » (شاعرية المتنبي ص ٢٣٢).

أما بعد، فقد كان من شأن هذه الدراسة حول المتنبي أمران اثنان، أولهما: تأكيد ثراء شاعرية أبي الطيب الذي أثار ضجة نقدية كبيرة أقامت الدنيا في عصره، و لم تقعدها من بعده. وثانيهما: قدرة البحث الحديث على استنتاج الأسس والمبادئ التي تحكم الممارسة النقدية القديمة، من خلال منهج علمي سليم استمر يتصاعد دونما انكسار من أول صفحة في الرسالة حتى آخر صفحة فيها. ولا جرم، فكاتب الرسالة ذو باع طويل في الكتابة والبحث والممارسة النقدية، والمشرف عليها أستاذ جامعي مشهود له بسعة الاطلاع ودقة المنهج والخبرة في التراث والمعاصرة، على حد سواء.

ولكن « الحسناء لا تعدم ذاما »، وليس ما يلي من نقاش إلا جزءاً من نظرات تسلط على كل البحوث عادة، وهو ليس ملزماً بالضرورة. وسنلخّص آراءنا في هذه الدراسة في النقاط التالية:

أولاً: كانت مصادر هذا البحث (٣٤) مصدراً ومرجعاً، وهي من حيث الكيف ذات صلة بالبحث لا تناقش. ولكنها، من حيث الكم، تشكو من القلّة. فمن المعروف أن كثرة المصادر تغني البحث وتثريه بالنظرات المختلفة وتدعم حجج الدراس وتؤيد براهينه، ومن هنا فنحن نرى أن ثمة نقصاً فيها ؛ وندلل على هذا النقص بغياب مرجع هام جداً، كانت العودة إليه ضرورة، وهو « رائد الدراسة عن المتنبي » الذي صنفه كوركيس عواد وميخائيل عواد، وهو مطبوع في بغداد عام ١٩٧٩.

وفيما يتعلق بالمصادر أيضاً وجدنا الباحث لم يعتمد أفضل الطبعات للكتب التراثية التي كان يؤول إليها، فهو يشير إلى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة بتحقيق (دي غويجي) المطبوع في ليدن عام ١٩٠٤، في حين أنّ طبعة أحمد محمد شاكر الثانية للكتاب في القاهرة عام ١٩٦٦ أكثر دقة وإتقانا وكمالاً. لذا كان من المستحسن العودة إليها، وصرف النظر عن طبعة دي غويجي، لأن طبعة (شاكر) هي المصدر الأوثق للباحثين في التراث.

ثانياً: إن تقسيم الكتاب إلى كثير من الأبواب والفصول والعناوين والفقرات كشف عن ولع شديد في التبويب والتقسيم والتفريع، حتى إن الباحث جعل من ثلاث صفحات هي الصفحات (٥٣، ٥٤، ٥٥) فصلاً مستقلاً تحدث فيه عن مؤلف كتاب المنصف ـ ابن وكيع التنيسي وكتابه. وكان الأَجْدَر بهذه الصفحات الثلاث أن تكون تمهيداً، أو مقدمة للحديث عن الكتاب، وليست فصلاً مستقلاً.

والحق أن الباحث محي الدين صبحي رجع عن هذا في الباب الثاني من رسالته، فجعل من الحديث عن الجرجاني والوساطة، الذي امتد ثماني صفحات، مقدمة للحديث عن كتاب الوساطة بعمق واتساع.

هذا أمر، والأمر الآخر هو أن ترقيم الكاتب للأفكار الرئيسية والفرعية اعتوره بعض الاضطراب، بحيث صار من الصعوبة بمكان أن تتبين بدقة عودة أرقام الفقرات الصغيرة إلى الأفكار الكبرى التي تفرعت عنها (انظر مثلاً الصفحات ١٢١، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨... الخ).

وإنصافاً للكاتب نقول: إن تبعة هذه الامور قد لا تقع عليه، بل على مصحح الكتاب ومدققه، إن لم يكن المؤلِّف هو المصحِّح والمدقِّق نفسه.

ثالثاً: والحق أن التصحيح ـ وهذا أمر ثالث ـ كان من السوء بحيث أنك لا تكاد تقرأ صفحة من هذا الكتاب، إلا وتقع فيها على خطأ أو خطأين مطبعيين ! وقد أخلت بعض الأخطاء، أو لنقل السقط، الذي ربما لم يلاحظه المصحح، بالمعنى ؛ فهل يمكن أن تفهم مثلاً مثل هذه العبارات من الصفحة (٣٨) « وصورة البحتري في « الموضحة » مع شبيهة بصورته في « الوساطة »، فالحاتمي يشهد له بحسن الأخذ، وحسن التخلص وجودة الوصف» ؟ لا شك أن كلمة أو كلمات سقطت من هذا المقبوس، فأفسدت معناه وجَعَلَتْهُ ملتبساً بل مستغلقاً.

رابعاً: ومن المسائل الفنية في إخراج الكتاب جمع حواشي الفصل الواحد في صفحة أو صفحات متتالية، وترك المتن وحيداً في الصفحة دون حواشيه، وهذا، في الحقيقة، أمر وارد في الطباعة، ولكنه يُتعب القارئ ويزعجه.

ورغم كل ما تقدم فان هذه الدراسة تمثل إضافة طيبة للمكتبة العربية بعامة، وللمكتبة النقدية بخاصة، ولمكتبة المتنبي على نحو أخص، والجهد فيها، رغم كل شيء، خليق بالثناء العطر، والإشادة المعتبرة.

فن الشعر لأرسطو وأثره في البلاغة والنقد العربيين

دراسة للدكتور شكري عيّاد

بين أيدينا اليوم ترجمتان من كتاب (الشعر) لأرسطو ، الأولى ترجمة تراثية، والأخرى معاصرة. أمَّا الترجمة التراثية، فقد قام بها (أبو بشر متّى بن يونس) المتوفى سنة (٣٢٨ هـ)، نقلاً عن لغة وسيطة هي اللغة السريانية. وقد عُرف السريان بحرفيتهم في نقولهم عن اليونانية. وهذا ما يكشف عنه نص الترجمة الذي حققه الدكتور (شكري عيّاد)، ونشره، مع دراسة لتأثيره في البلاغة العربية، في القاهرة عام ١٩٦٧، حائزاً به درجة الدكتوراه.

والنشرة الحديثة لكتاب الشعر لأرسطو قام بها الدكتور (عبد الرحمن بدوي) عن اليونانية مباشرة، وقد طبعت الترجمة في بيروت عام ١٩٧٣. وترجمة (د. بدوي) تشير إلى أن ثمة نقصاً، أو غموضاً، أو تصرفاً، اعترى ترجمة (الشعر) قديماً.

وحديثنا الآن يتركز حول البحث الذي أنشأه الدكتور (شكري عياد) عن أثر هذا الكتاب في نقدنا وبلاغتنا العربيين، وذلك بعد أن بذل جهداً طيباً في تحقيق ترجمة متّى بن يونس، ليقيم على أساسها دراسته.

وقد أسلمه بحثه التاريخي، ذو الصلة بالأدب المقارن، إلى أن البيئة العربية تمثلت كتاب الشعر على درجات ثلاث، أولاها: الترجمة. ويليها: التلخيص والتفسير. ويليهما: التأثر والاقتباس لبعض الآراء. تمَّ العمل الأول في بيئة المترجمين السريان، والعمل الثاني في بيئة الفلاسفة. والعمل الثالث كان في بيئة البلاغيين والبلغاء.

وقد انتهى الباحث إلى أن (متّى بن يونس) ترجم كتاب الشعر في حوالي السنة ٣٢٠هـ. ومن المعلوم أن أربعة من الفلاسفة العرب المسلمين لخصوا كتاب الشعر لأرسطو، دون تقيد حرفي منهم بنص الكتاب. وهؤلاء الفلاسفة هم، حسب تعاقبهم الزمني: (الكندي) و (الفارابي) و(ابن سينا) و(ابن رشد). وقد بقي من هذه الملخصات شذرات من تلخيص

الفارابي، ومن التلخيصين الأخيرين، وفُقِد تلخيص الكندي. والشذرات التي أثرت عن الفارابي (٣٣٩ هـ) ليست بذات بال، ولا تشكّل قواماً لدراسة كيفية فهم هذا الفيلسوف لكتاب أرسطو في الشعر.

أما ابن سينا (٤٢٨ هـ) فقد أجمل الدكتور (شكري عياد) تصوره للعمل الشعري، بعد أن درس الأفكار الواردة في تلخيصه بالتفصيل، فقال: «إن ابن سينا قد تصور العمل الشعري على أنه شيء يكون في صورة المعاني لا في مادتها، وتصور غرضه في أنه إثارة انفعال، وتصور القطعة منه على أنها كُلٌّ متكامل، ولكنه مركب متشابك الأجزاء» (كتاب أرسطو فن الشعر وأثره في البلاغة العربيّة ص ٢١٤).

وكان تلخيص ابن رشد في نظر (شكري عياد) لا يقدم أصولاً جديدة لما يمكن أن نسميه «نظرية الفن»، فالأصول التي نجدها مفصلة مشروحة عند ابن سينا، نجدها مجملة أو مجزأة عند ابن رشد، والجديد هو تطبيقه لبعض الأفكار التي فهمها من أرسطو على نماذج من الأدب العربي، وها هو ذا يبين أن إخراج الألفاظ والعبارات غير مخرجها المألوف يُوْجِد للكلام صفة الشعر، ويمثل لذلك بقول القائل:

ولَمّا قَضَيْنا من مِنَىً كُلَّ حاجةٍ ومسَّحَ بالأركانِ مَنْ هُوَ ماسِحُ
أخَذْنا بأطْرافِ الأحاديثِ بَيْنَنا وسالَتْ بأعناقِ المطيِّ الأباطِحُ

فيرى أن هذا الكلام صار شعراً لأن صاحبه استعمل: «أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا»، و «سالت بأعناق المطي الأباطح» بدل قوله: تحدثنا ومشينا.

ومن المعروف أن هذين البيتين، وبيتاً ثالثاً بينهما، قد قُيِّمتْ تقييماً سلبياً في مقدمة كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة، إذ عدَّها ابن قتيبة مثالاً على الشعر الذي حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته، لم تجد فيه فائدة في المعنى ـ (الشعر والشعراء ١ / ٦٦). في حين أطرى هذه الأبيات كل من ابن جني في الخصائص (١ / ٢١٨ ـ ٢٢٠)، وعبد القاهر الجرجاني في (أسرار البلاغة) (ط محمد رشيد رضا ص ١٦ ـ ١٨).

وقبل أن ندع الحديث عن تلخيص ابن رشد يحسن أن نشير إلى أن ابن أبي أصيبعة قد نسب، في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » (٤ / ٩٤)، إلى ابن الهيثم العالم الرياضي المشهور رسالةً في صناعة الشعر ممتزجة من اليوناني والعربي، وإذا صح هذا، يكون ابن الهيثم قد قدم النموذج الذي احتذاه ابن رشد، ولكن رسالة ابن الهيثم لا زالت في ذمة التاريخ.

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الفلاسفة العرب قد استخلصوا الأفكار العامة من كتاب الشعر، وكانوا يشرحونها في ضوء فلسفة أرسطو العامة وفلسفته النفسية، والإطار المنطقي الذي وضعوا فيه كتاب الشعر. وأهم هذه الأفكار «التخييل».« فالتخييل » هو المصطلح الذي مال إليه فلاسفة العربية ونقادها بدلاً من «المحاكاة».

وعندما يصل الباحث شكري عياد إلى تأثير أرسطو في البلاغيين العرب، يرى أن الجاحظ ربما أخذ أصول بعض الأفكار من كتاب الشعر لأرسطو في حديثه عن البيان، في حين يظن أن ابن المعتز تأثر بكتاب الخطابة لأرسطو، وليس بكتاب الشعر الذي تتحدث عنه، فقد كان كتاب الخطابة ترجم قبل زمان ابن المعتز، كما يشير إلى ذلك ابن النديم في (الفهرست).

أما تأثير كتاب الشعر في النقد العربي، فيبدو بوضوح في بعض الكتب النقدية التي ظهرت في القرن الرابع، وبشكل أكثر تحديداً في نقد (قدامة بن جعفر)، وقد كان قدامة يعد واحداً من رجال المنطق الذين شرحوا كتب الفلسفة. وهو عندما تقدم من نقد الشعر، حاول أن ينظر إليه نظرة منهجية شاملة تحاول أن ترتقي بالجزئيَّات المتناثرة والأحكام الذوقية المتسرعة، إلى مرتبة القوانين الكلية. ومن أصداء التأثر بفلسفة اليونان في نقد الشعر قول قدامة في «الغلو»: «بلغني عن بعضهم أنه قال: أحسن الشعر أكذبه، وكذا نرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم». وكانت «فكرة التناسب» التي أشار إليها أرسطو في كتابه، والتي ترجمها متى بن يونس بقوله: «وليس ينبغي أن يطلب من صناعة المديح كل لذّة، لكن لذّة التناسب »، هذه الفكرة كانت تحتل حيزاً كبيراً في ذهن قدامة، حتى أن مصطلحاته لم تخرج عن نطاق هذا المفهوم.

وقد تابع الدكتور جابر عصفور، صاحب كتاب « مفهوم الشعر في التراث النقدي»، شكري عياد فيما ذهب إليه، جاعلاً من عمل قدامة في « نقد الشعر » محاولة لإقامة نظرية منهجية متكاملة في نقد الشعر وفهمه، ومنتهياً إلى أن قدامة كان يصدر في أحكامه عن أسس فلسفية، بدلاً من اعتماده على التقاليد الشعرية، التي دعا إليها غيره من النقاد في القرن الرابع الهجري.

وكان من شأن جريان دم جديد في جسد النقد العربي أن أعِيْدَ النظر في كثير من أحكام النقاد العرب التقليديين، الذين هاجموا محاولات التجديد عند الشعراء العربية، أمثال أبي تمام. لذا وجدنا قدامة نفسه يؤلّف كتاباً يسميه « الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام »، منتصراً لأبي تمام، كما يبدو من العنوان، في حين يقابله الآمدي بكتاب (الموازنة) منتصراً للبحتري، وممثلاً لذوق المدرسة العربية في نقد الشعر وتقييمه، ولم يكتفِ الآمدي بذلك، بل ألف كتاباً دعاه: « تبيين غلط قدامة » (انظر معجم الأدباء ٣ / ٥٨).

وتبدو لنا قيمة محاولة قدامة بن جعفر، ومحاولة ابن طباطبا العلوي قبله في « عيار الشعر »، إذا عرفنا أن النقد العربي، أو أكثره، في القرن الرابع، كان يجري وراء الإبداع، ولم يقوَ على أن يستشرف له آفاقاً جديدة، أو يوحي له بأشكال للتعبير مستحدثة، مستنفداً جهوده في مسألة السرقات الشعرية، وفي ما يحق للشاعر أن يأخذه من غيره، وما لا يحق.

على أن أعمق تأثير لكتاب أرسطو اتضح في آثار اثنين من بلاغيي العرب، هما: عبدالقاهر الجرجاني في القرن الخامس، وحازم القرطاجي في القرن السابع. ويرى الدكتور عياد أن عبد القاهر لا يصرح بانتفاعه بتلخيص ابن سينا لكتاب الشعر، ولكن مقارنة النصوص تثبت ذاك الانتفاع، ففكرة النظم في آثار عبد القاهر تشبه فكرة الوحدة الواردة في « فن الشعر » لأرسطو.

أما حازم فينقل في كتابه القيِّم « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » نصوصاً طويلة من تلخيص ابن سينا، ويعلق عليها، ويتكلم بصراحة عن «قوانين الصناعة الشعرية» التي بحثها أرسطو في كتاب الشعر، ويقول: إنه سيحاول أن يتممها بقوانين مناسبة للشعر العربي. وحازم يرى أن الشعر العربي أرحب ميداناً، وأعظم تصرفاً في فنون القول من الشعر اليوناني

(انظر شكري عياد - ص ٢٨٨). ومما يضاف هنا أن الدكتور جابر عصفور قد تمكن من ترجيع صدى أقوال ابن سينا والفارابي وغيرهما في نقد حازم، في كثير من صفحات كتابه «مفهوم الشعر في التراث النقدي».

وكانت آخر النتائج التي توصل إليها الدكتور عياد في دراسته الجادة هذه، هي أن الشعر العربي نفسه قد تأثر بالصور التي عرفها العرب من كتاب الشعر، وكانت هذه النتيجة فرضاً يتعذر تقدير درجته من الرجحان.

ويبدو أن تأثر الشعر العربي بالثقافات أمر قابل للنقاش، فتعقيد التصنيع والتخييل في شعر أبي تمام، والتفلسف والحكمة في إبداع المتنبي، لا ينهضان دليلاً وافياً على القول بالتأثر، ولعل هذا ما دفع بشوقي ضيف إلى القول: « ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا، إن مياه التفكير اليوناني دخلت النهر العربي، ولكنها استمرت، في كثير من جوانبه، تجري مع مياهه جنباً إلى جنب، وقلما اختلطت بها، قد تختلط في بعض المناطق، ولكنها سرعان ما تعود إلى الانفصال» (الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص ٣٣٤).

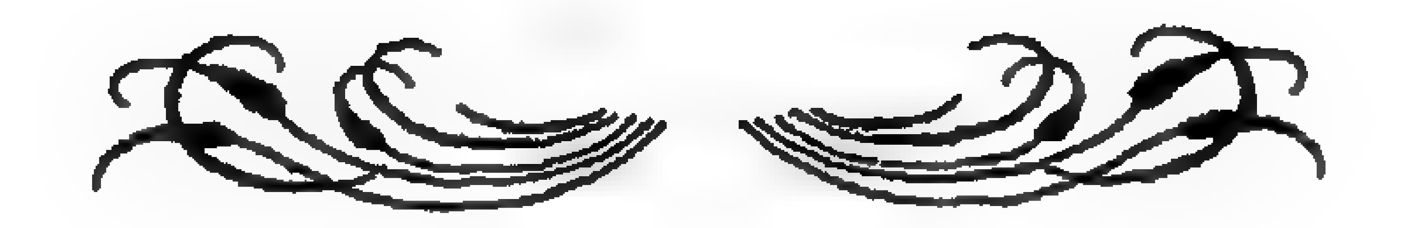
ولكن الدكتور إحسان عباس يرصد في كتاب (ملامح يونانية في الأدب العربي) مجموعة من الظواهر الأدبية والأنواع القصصية تأثر فيها الأدب العربي بالأدب اليوناني. وهذا ما سنلاحظه في دراستنا لهذا الكتاب، التي أثبتناها هنا بعد مراجعتنا هذه لكتاب « فن الشعر» لأرسطو.

ومما يجدر التنبيه عليه في هذا البحث هو أن نتائجه العامة جاءت تخالف ما كاد يجمع عليه كل من درس تأثير كتاب أرسطو في النقد والبلاغة العربيين، أمثال تكاتش، وجبريلي، وكراتشكوفسكي، وطه حسين، وذلك لعدم فهمه واستيعابه من قبل النُّقّاد والشعراء العرب، وها هو ذا عبد الرحمن بدوي يقول:

«ويخيل إلينا أنه لو قدر لهذا الكتاب، كتاب (فن الشعر) لأرسطو، أن يُفْهَم على حقيقته، وأن يستثمر ما فيه من موضوعات وآراء ومبادئ، لعني الأدب العربي بإدخال الفنون الشعرية العليا فيه، وهي المأساة والملهاة، منذ عهد ازدهاره في القرن الثالث الهجري، ولتغير

وجه الأدب العربي كله، ومن يدري لعل وجـه الحضـارة العربيـة كلـه أن يتغـير طابعـه كمـا تغيرت أوربا في عصر النهضة» (فن الشعر لأرسطو، ترجمة د. بدوي ص ٥٦).

ومع ذلك فإذا كنا لا نسلم بكل نتائج الدكتور عياد في رسالته هذه، نظراً لاختلاف موضوع كتاب الشعر لأرسطو، وهو التراجيديا والكوميديا، عن موضوعات الشـعر العربـي، فإن هذا، كما يقول زكي نجيب محمود، في مقدمته لهـذه الرسـالة، لا يمنعنـا مـن تقديـر هـذا البحث وإعلاء منزلته في المكتبة العربية الحديثة المعنيَّة بالتراث .



ملامح يونانية في الأدب العربي

للدكتور إحسان عباس

يشكو الباحث في الأدب المقارن من قلة عدد المصادر العربية في هذا الميدان من ميادين المعرفة. ويأتي كتاب الدكتور إحسان عباس هذا ليكون لبنة في عمارة هذا الأدب، الذي لايزال تدريسه في جامعاتنا العربية حديثاً نسبياً. ولعله من المفيد أن نذكر بعض الكتب التي تناولت هذا الموضوع، وأهمها كتاب الأدب المقارن لمحمد غنيمي هلال، ورحلة الأدب العربي إلى أوروبا لمحمد مفيد الشوباشي، ونموذج البخيل في الأدب العربي لمحمد عفيفي مطر. وثمة كتب أخرى ليس هنا مكان استقصاء أسمائها.

وكتاب إحسان عباس هذا يجيب عن سؤالين اثنين هما: ما الذي ترجمه العرب من تراث اليونان علماً وأدباً وفلسفة ؟ وما هي الطرق التي استغل فيها العرب هذا التراث ؟ ولا شك في أن اتساع صدر الأدب العربي للمؤثرات الأجنبية لا يُعَدُّ انتقاصاً من قَدْرِهِ أو طعناً في أصالته، بل هو شهادة إثبات لثقته بنفسه، وقدرته على استيعاب تجارب الآخرين وأساليب إبداعهم.

ويميِّز الدارس في هذا الكتاب أربعة خطوط متوازية من التلاقي بين الأدبين العربي واليوناني هي : الشعر المترجم عن اليونانية، وتحوير الحكم النثرية اليونانية في صور شعرية، وتشكيل الأدب السياسي في قوالب أدبية، واللقاء على مستوى الأمثال والخرافات والأساطير بين الأدبين.

لقد عرف العرب الترجمة العربية للشعر اليوناني، وكان من أبرز من عرف الشعر اليوناني حنين بن إسحق، حتى إذا جاء عهد الفارابي وجدناه يقف على بَيِّنة من أنواع الشعر اليوناني ويعرف كثيراً عنه، وذلك في رسالته عن قوانين صناعة الشعر. ولا شك في أن العرب ترجموا كتاب الشعر لأرسطو وتأثروا به على مستوى النقد الأدبي (انظر دراستنا

السابقة لكتاب فنّ الشعر وأثره في النقد والبلاغة العربيين لشكري عيّاد). على أن البيروني كان أقوى من عرف جذور الأدب اليوناني، وذلك في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة»، وكتابه «الآثار الباقية من القرون الخالية». ويبرز أيضاً أثر اليونان في أدب العرب عند ابن سينا في كتابه « الشفاء » ، الذي اعتمده حازم القرطاجي، في غير موطن، من كتابه النقدي العظيم « منهاج البلغاء وسراج الأدباء ».

وقد اهتمت هذه الدراسة الجديدة بأثر (إيسوب) ـــ مبدع الحكايات الخرافية ـــ بالشخصيات والأمثال العربية، فعلى سبيل المثال تُعَدُّ قصة الثعلب والضب، من قصص الجاهليين، إيسوبية المنزع.

ويخلص الدارس إلى فرضية فحواها: أن أدب (إيسوب) كان معروفاً لدى عرب الجاهلية، عن طريق اللغة الآرامية ونصارى الحيرة. ولكن الدراسات المعاصرة أرجعت بعض العناصر عند (إيسوب) إلى أصول مشرقية، وبخاصة إلى أصول سومرية. ويبدو أن قصة الرجل والحية التي وردت كثيراً في كتب الأمثال، وفي شعر النابغة الذبياني، كانت ذات صلة بمؤثرات خارجية، وإنْ لم تكن تعود في الأصل إلى البيئة اليونانية.

وقد أصبحت هذه الخرافات جزءاً هاماً من الأدب الإسلامي، والمثال هنا قصة الثور الأبيض، التي جاءت على لسان علي بن أبي طالب...وذلك يصدق على العصر العباسي، الذي امتاز بتلاقح الثقافات الأجنبية مع الثقافة العربية.

وتُرْجِم الشعر الخمري إلى العربية، وخاصة في بيئة الأندلس والقيروان. ويبرز في هذا الميدان علي بن أبي الرجال، الذي يرجح أنه كان يعرف اليونانية، وتفرّد إبراهيم الرقيق في نقل أشعار خمرية مترجمة عن اليونانية.

وظهر التأثير اليوناني أيضاً في استغلال الفكر السياسي اليوناني مادة ملائمة للرسائل الأدبية. ويُعدُّ عبد الحميد الكاتب نموذجاً في هذا المجال. وقد أشار إلى ذلك طه حسين. ويصدق هذا القول كذلك على سالم مولى سعيد بن عبد الملك. ويُظهر إحسان عباس كيف كانت أقوال الفلاسفة المسلمين في (عضد الدولة) محاكاةً لما قاله الحكماء عند تابوت الاسكندر.

ويقال الشيء ذاته عن إعادة صوغ الفكر السياسي اليوناني في أسلوب أدبي، ومثاله الرسالة المنسوبة إلى (أرسطوطاليس)، وهي بعنوان (السياسة في تدبير الرياسة) أو (سر الأسرار فيما كتبه للاسكندر). ونجد صدى لها في كتاب « الإمتاع والمؤانسة » لأبي حيان التوحيدي، فهو يقول مثلاً: « تجرَّعْ من عدوك الغصَّة إن لم تنل الفرصة، فإذا وجدتها فانتهزها قبل أن يفوتك الدرك، أو يصيبك الفلك، فإن الدول تبنيها الأقدار، ويهدمها الليل والنهار ». وهذه العبارة تبدو انعكاساً لما قال (أرسطوطاليس): « اقتنص من عدوك الفرصة واعلم ان الدنيا دول ». ونجد الأمثلة واضحة على هذه الصياغة في كتاب (الآداب) لأسامة بن منقذ.

ومن ملامح اللقاء بين الأدبين، تحوير الحكم والأمثال اليونانية في صورة نظم. وقد تم ذلك على يد أبي العتاهية في قصيدته (ذات الأمثال) وكذلك في بعض مقتطفات أبي نواس، فمما كان يقوله أبو نواس:

عَدوُّكَ ذو العقْلِ خيرٌ مِنَ الصَّـ	ـديقِ لكَ الوامقِ الأحْمقِ
وما ساس امرأً كذي شيبةٍ	بصيرٍ بما ساسَ مُسْتوثقِ

والبيت الأول صياغة للحكمة القائلة: «عدوٌّ عاقل خيرٌ من صديقٍ جاهل».

وقد تجسَّد هذا الاتجاه على شكل كتابين يُنْسبان لابن المقفع، هما: الأدب الكبير والأدب الصغير، وفيهما تمثلت الحكم الفارسية، التي تشبه الحكم التي أخذها العرب عن اليونان.

ومن مظاهر اللقاء بين الأدبين انصهار معاني الحكم اليونانية في الشعر العربي، ومثال ذلك شعر أبي العتاهية الذي بكى فيه صديقه علي بن ثابت، وهو يجود بنفسه فقال:

يا شريكي في الخيرِ قرَّبكَ اللـ	ـهُ فَنِعْمَ الشَّريكُ في الخير كُنْتا
قدْ لعمري حَكَيْتَ لي غُصَصَ المو	تِ فحرَّكتَني لها وسَكَنْتا

فقوله: «حركتني وسكنت» مأخوذ من قول أحد الحكماء «حرّكتنا الإسكندر في سكونه» .

وبما وقف عنده ابن هنْدو صاحب كتاب « الكلـم الروحانيـة في الحكـم اليونانيـة » بيت أبي الطيب:

ووضْعُ النَّدى في مَوْضِعِ السَّيْفِ بالعُلا

مُضِرٌ، كَوَضْعِ السَّيْفِ في موضعِ النّدَى

وقد قرنه إلى قول أفلاطون «العفو يفسد من الخسيس بمقدار ما يصلح من الرفيع».

وقد كان أوفى عمل منظم في هذا الصدد الرسالة الحاتمية التي يشـك إحسـان عبـاس في نسبتها إلى الحاتمي (٣٦٨ هـ) (ص ١٥٤ فما بعدها)، والتي تقارن بين كلام أرسـطو في الحكمة، وأبيات أبي الطيب المتنبي المشابهة لها. وقـد تـابع الرسـالة الحاتميـة في نهجهـا ابـن حمدون صاحب كتاب « التذكرة » (٥٦٢ هـ)، وأسامة بن منقذ في كتابه « البديـع في نقـد الشعر ».

واتخذ العرب المقامة وعاءً للفكر الحكمي والسياسي اليونـاني، ومـع الإقـرار المبدئي بأن المقامة لون محلي، لا علاقة له بالدراما اليونانية، إلا أننا نجد في تراثنـا العربي مقامـة لابـن بطلان ألفها سنة ٤٥٠ هـ، وعَنْوَنَها باسم « دعوة الأطباء »، تشبه في عنوانهـا كتابـا أنشـأه (أثنايوس النقراطيسي) بعنوان « مأدبة الحكماء ». وقد جمع أثنايوس في مأدبته المتخيلـة عـدداً مـن ذوي الاختصاصـات المتنوعـة في مدينـة (رومـا)، في حـين جمـع ابـن بطـلان في مدينـة (ميافارقين) عدداً من المشتغلين بصناعة الطب.

وبعد ثلاثة قرون عاد الفكر السياســي اليونـاني إلى النـاظر في شـكل المقامة. فـألف (لسان الدين بن الخطيب) الذي عاش في دولة بني نصر بغرناطة، مقامة سياسية مسـتفيداً مـن كتاب العهود اليونانية المستخرجة من كتاب السياسة لأفلاطون، الذي ترجمـه أو صاغـه ابـن الداية.

ويختم د. عباس كتابه القيم هذا بملاحظات على طريق الدراسة المقارنـة، يشـير فيهـا إلى أوجه التلاقي بين الأدبَيْن العربي واليوناني، في ثلاث عشرة نقطة، منها مثلاً:

● – العرب واليونان كانوا يجلّون الشعر، وهو عند العرب ديوانهم ومخلد سـجاياهم وذكرهم. وقد عدّه الفريقان أداةً للتسلية والمنفعة.

● – مسألة النظم والنثر تمثّلت، عند الشعبين، دون تفضيل حادّ بينهما. وقد كان ابن طباطبا مثلاً يرى في القصيدة شبهاً بالرسالة.

● – قضية الطبع والصنعة في الشعر مشتركة عند الأمتين.

● – الصراع بين القدامى والمحدثين ظاهرة مشتركة في الأدبين.

● – إجلال الكتاب في العالم الهلنستي والعالم العربي، وخاصة عند الجاحظ في مقدمة كتابه الحيوان.

● – قضايا التناظر الطبيعي والمجتلب.

● – الحب كالبطولة من موضوعات الشعر عند الشعبين.

● – كثير من طرق التعبير عن المواقف المختلفة ينهج نهجاً واحداً.

● – إنَّ الإيجاز في الأدبين كان معياراً للجودة.

ـ اللقاء على مستوى الأساطير. وقد أشار إليه الأستاذ (غوستاف فون غرونباوم). عندما درس مواطن التشابه بين الحكاية اليونانية وقصص ألف ليلة وليلة. ولخص مؤلف (الملامح اليونانية) نتائج غرونباوم في هذا الصدد معلقاً عليها بقوله: «إن التشابه حاصل ولكن التأثير يصعب القطع به» .

وهكذا نرى أن الدكتور إحسان عباس قد مسح مسحاً شاملاً أوجه التلاقي والتشابه والتأثير بين الأدبين، عبر تطور الأدب العربي، الذي امتد قروناً قبل عهد الانحدار. وقد كان بحقٍّ فارس الميدان في هذا الموضوع، فآثاره ومؤلفاته الكثيرة تشهد له بطول الباع، وسعة الاطلاع. ولكن هذا المسح الشامل، على جمال عرضه ووضوح أفكاره ومراميه، كان يتجاوز عن تفصيلات كثيرة جديرة بالتوقّف عندها، شأنه في ذلك شأن أي بحث ينطلق من النظرة الكلية الجامعة، ولعل هذا الأمر هو الذي جعل المؤلف نفسه يقول في مقدمة كتابه:

«وحسبي أن أضع أمام الدارسين ما يمكن أن يكون تمهيداً متواضعاً لبحوث أخرى، قد تجد من يحققها بوسائل أكثر واستعداد أشد، فإذا استطاعت هذه المحاولة أن تثير بعض الجهود إلى ذلك، فإنها لن تكون غير ذات نفع» (ملامح يونانية ص ٩) . والحقيقة أنها محاولة نافعة بأي مقياس أُخِذت.

أعلام الفكر في دمشق
بين القرنين: الأول والثاني عشر للهجرة

للسيدة إحسان خلوصي

حظيت دمشق ـ قلب العروبة النابض ـ بعناية الكثير من المُصنّفين والمؤلّفين. ولو عدنا إلى الوراء، لوجدنا في كل قرنٍ تقريباً مؤلّفاً أو أكثر تحدّث عن دمشق الشام، وعن فضائلها وشؤونها وخططها وأعلامها. ويمكن أن نشير إلى بعض المؤلّفات في هذا الباب قديماً وحديثاً.

ففي القديم: ألّف أبو الحسن الرازي (٣٤٧هـ) كتاباً سمّاه: « ولاة دمشق في عهد العباسيين ». وإذا كان هذا الكتاب، من ثمرات القرن الرابع، فإنّ القرن الخامس يطالعنا بكتاب الربعي (٤٤٤هـ) : « فضائل الشام » . أما في القرن السادس فقد صنّف ابن عساكر (٥٧١هـ) كتابه العظيم والفذّ «تاريخ مدينة دمشق»، وهو كتاب لانظير له، في بابه، من حيث الحجم والإحاطة والاستيعاب، إذ بلغ في إحدى تجزئاته ثمانين مجلّدة، طبع منها حتى الآن مالا يقلّ عن عشرين مجلدة، كان مجمع اللغة العربية بدمشق قد طبع أكثرها.

وفي القرن السادس الهجري أيضاً ألّف ابن يعلى القلانسي (٥٥٥ هـ)، واسمه حمزة بن أسد، كتاباً سمّاه: «ذيل تاريخ دمشق» أخرج فيه ما يخصّ مدينة دمشق من كتاب (هلال الصابي) عن الدولة الإسلامية. وقد نشر هذا الكتاب المستشرق (أمدروز) في بيروت عام ١٩٠٨.

وفي القرن السابع ألّف الحافظ ضياء الدين محمد بن الواحد، وهو من أهل دمشق مولداً ووفاةً (توفي سنة ٦٤٣ هـ) كتاباً سمّاه: « فضائل الشام ». وفي هذا القرن ذاته صنّف

أبو شامة (٦٦٥) ذيلاً على كتاب « الروضتين » وأعطاه عنوان: «تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين» وخصّ فيه أعلام دمشق بنصيب وافر.

وفي القرن الثامن أخرج (القزازي) (٧٢٩ هـ) كتاباً سمّاه «الإعلام بفضائل الشام».

وفي القرن نفسه صنّف الصفدي ـ خليل بن أيبك (٧٦٤ هـ) كتاباً سمّاه: «تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنوّاب». وقد طبع هذا الكتاب بدمشق، بتحقيق السيدة إحسان خلوصي والسيد زهير حميدان الصمصام، عام ١٩٩٢، في جزأين.

وفي المكتبة العربية ذُكر لابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) كتاب تراجم قيّم، باسم «الدُّرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة». ولا شك أنه حوى الكثيرين من أعيان دمشق.

وفي القرن العاشر أخرج ابن طولون (٩٥٣ هـ) أكثر من كتاب عن دمشق، فقد صنّف أولاً ذيلاً على كتاب الصفدي المذكور سابقاً. وصنّف ثانياً كتاب: « قُضاة دمشق ». وقد طبع هذا الكتاب بتحقيق صلاح الدين المنجد عام ١٩٥٦. أمّا كتاب ابن طولون الثالث فهو: «القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية» وهو مطبوع أيضاً بدمشق منذ عام ١٩٤٩، بتحقيق السيد محمد أحمد دهمان.

كما ألف في القرن الثاني عشر الهجري محمد بن كنان الصالحي كتاباً سمّاه «يوميات شامية». وفيه تاريخ لأحوال دمشق في العهد العثماني ما بين (١١١١و١١٥٣ هـ) وقد حقّق هذا الكتاب السيد أكرم العلبي وطبعه بدمشق عام ١٩٨٢. وكذلك صنّف، في القرن ذاته، البُدَيري الحلاّق « حوادث دمشق اليومية »، وهو مشهور مطبوع أكثر من مرة .

وفي الحديث: يمكن للمرء أن يشير، وباختصار، إلى جهود بعض المحدثين والمعاصرين في التأليف عن دمشق وشؤونها. فهذا صلاح الدين المنجد، وهو من هو، يصدر الكتب التالية :

- ـ أمراء دمشق في الإسلام.
- ـ ولاة دمشق في العهد السلجوقي.
- ـ ولاة دمشق في العهد العثماني.

● ـ المؤرخون الدمشقيون.

كما يؤلّف محمد كرد علي، مؤسس مجمع اللغة العربية، ورئيسه لسنين عديدة، كتاب «خطط الشام» وكتاب «دمشق مدينة السحر والشعر». ويُصنّف نعمان قساطلي «الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء». ومما نعرفه أيضاً أنَّ لجان سوفاجيه كتاب: «دمشق الشام». وللأب الدكتور (لويس بوزيه) كتاب «دمشق في القرن السابع الهجري» بالفرنسية. ولأحمد حلمي العلاّف «دمشق في مطلع القرن العشرين». ولإسكندر لوقا أطروحة دكتوراه بعنوان: « الحركة الأدبية في دمشق ما بين ١٨٠٠ و ١٩١٦ م ». وكذلك أصدرت الأديبة سهام ترجمان كتاب «يا مال الشام». وألّف منير كيّال كتاب «يا شام». ولنجاة قصّاب حسن «حديث دمشقي». وللأستاذ نصر الدين البحرة كتاب حديث جداً بعنوان «دمشق الأسرار»....الخ.

ويأتي كتاب السيدة إحسان خلوصي «أعلام الفكر في دمشق بين القرنين الأول والثاني عشر للهجرة» ليكون حلقة من حلقات التأليف في هذه المدينة العريقة التي تعدّ أقدم مدينة مأهولة في العالم حتى اليوم، وليشكّلَ إسهاماً مشكوراً في بابه.

ويضمّ هذا الكتاب الذي نراجعه (٢٣٠) مئتين وثلاثين ترجمة، توزّعت على أعلام، ومؤرّخين، وشعراء، وأطباء، وفقهاء، وفلكيين، وأدباء، ونحويين، ولغويين... الخ.

وقد رُتِّبت الأعلام فيه حسب الترتيب الألفبائي أو المعجمي، فالكتاب يبدأ بإبراهيم بن عبد الرحمن الدمشقي، وهو فقيه، وينتهي بيوسف بن محمد الطرابلسي الدمشقي، وهو طبيب.

ومن المؤرخين الذين عرفت بهم الكاتبة على سبيل المثال لا الحصر:

١- ابن عساكر (٥٧١هـ). ٢- أبو شامة (٦٦٥هـ). ٣- ابن أبي أُصَيْبِعة (٦٦٨هـ). ٤- الذهبي (٧٤٨هـ). ٥- ابن شاكر الكتبي (٧٦٤ هـ). ٦- ابن طولون (٩٥٣ هـ). ٧- البوريني (١٠٢٤ هـ). ٨- البديري الحلاق (١١٧٥ هـ).

ومن الشعراء مثلاً: ١- عدي بن الرقاع العاملي (٩٥ هـ). ٢- حميدة الخزرجي (٨٥هـ). ٣- الوأواء الدمشقي (٣٨٥هـ). ٤- ابن حيوس (٤٧٣هـ). ٥- ابن الخياط

(٥١٧ هـ). ٦- عرقلة الكلبي (٦٠٤ هـ). ٧- ابن الساعاتي (٦٠٤ هـ). ٨- فتيان الشاغوري (٦١٥ هـ). ٩- ابن عنين (٦٣٠ هـ).

ومن **الأطباء** مثلاً: ١- الحكم الدمشقي (٢١٠ هـ). ٢- اليبرودي (٤٠٠ هـ). ٣- ابن المطران (٥٨٧ هـ). ٤- رشيد الدين الصوري (٦٣٩هـ). ٥- ابن أبي أصيبعة (٦٦٨هـ). ٦- ابن النفيس (٦٨٧ هـ).

ومن **الفقهاء والمتصوفة** مثلاً: ١- أرسلان الدمشقي (٦٠٩هـ). ٢- محي الدين عربي (٦٣٨هـ). ٣ - ابن ذود (٨٥٦هـ). ٤ - شهاب الدين العمادي (١٠٧٨هـ).

ومن **الفلكيين** مثلاً: ١- المزي (٧٥٠هـ) ٢- ابن الشاطر (٧٧٧هـ). ٣- المناشيري (١٠٣٩هـ).

ومن **النحويين**: ١- ابن الناظم (٦٨٦هـ). ٢- ابن العيني (٨٩٣هـ). ٣- الميداني الدمشقي (٩٢٣هـ). ٤- البهنسي الدمشقي (١٠٩٠هـ).

ومن **الموسيقيين**: الكنجي (١١٥٠هـ). ومن المهندسين: الحارثي المهندس (٥٩٩هـ) ومن اللغويين: ابن النحوية (٧١٨هـ).

أما النساء فلم يُذكرْ منهن سوى ثلاث نسوة هُنَّ : ١- حميدة الخزرجي (٨٥هـ) شاعرة ٢- تقية الصورية (٥٧٩هـ) شاعرة ٣- زينب الغزية (٩٨٠هـ) شاعرة.

وكان شرط المؤلفة في كتابها أن تذكر فيه، من أعلام دمشق، كل من وُلِد بدمشق أو مات فيها، أو كانت له صفة (دمشقي)، أو ورد اسمه في المصادر على أنه من أهالي دمشق أو نشأ فيها.

الملاحظات والاستدراكات:

هذا عرض موجز للكتاب. ويمكن للباحث، دون ريث طويل، أنْ يسجل عليه بعض الملاحظات التي لو بذلت المؤلفة جهداً إضافياً ، لاستغنت عن كثير منها. وها هي ذي ملاحظاتنا واستدراكاتنا عليه :

أولاً- إنَّ الفترة الزمنية، التي حاولت المؤلّفة أن تغطيها بكتابها هذا، فسيحة جداً، وممتدة جداً. الأمر الذي أدى الى فوات الكثير من أعلام دمشق الكبار، في القرون الخوالي المدروسة. ولو أنَّ الكاتبة اقتصرت على قرن واحد، لكان حال كتابها أفضل بكثير... وحبذا لو اقتدت الكاتبة بالمرحوم (جميل الشطي) الذي ألف كتاباً بعنوان ((أعيان دمشق في القرن الثالث عشر الهجري ومنتصف القرن الرابع عشر)) وقد حوى كتابه هذا أكثر من ألف ترجمة. أو لو اقتدت بالسيدين مطيع الحافظ ونزار أباظة، اللذين أخرجا ((تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري)) في ثلاثة مجلدات.

ثانياً ـ من اللافت للانتباه أن المؤلّفة لم تذكر أيّ علمٍ في كتابها يبدأ اسمه بحرف (الغين)، ولا أي علمٍ يبدأ بحرف (اللام)، ولا أي علم يبدأ بحرف (النون)، وهذ مما لا يجوزالبتّة، ولا سيّما أن كتاب «الأعلام» للزركلي، وهو مبوّب حسب الحروف الهجائية، بين أيدينا، وهو من مراجعها!

أما حرف (الباء) فلم يرد تحته سوى اسم علمٍ واحد هو بركات بن أحمد (٩٢٩هـ). وكذلك حرف (الجيم) ورد تحته ترجمة واحدة لجرجيس بن يوحنا اليبرودي (٤٠٠ هـ). ولحرف (الهاء) ترجمة واحدة فقط أيضاً.

ثالثاً ـ إن النساء، في هذا المؤلف، غُمِطْنَ حقّهن، وكان الأولى بالكاتبة، وهي من بنات جنسهن، أن تنصفهن أكثر. فلم يذكر في «أعلام الفكر في دمشق» من النسوة سوى ثلاث، ذكرنا أسماءهنّ من قبل. ولو عادت الكاتبة إلى بعض الكتب التي ترجمت للنساء، لأمكنها أن تضرب رقم تراجم النسوة، وهو (ثلاث)، بمئة على الأقل... علماً بأن بين يديها كتاب «تراجم النساء» من تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، الذي أخرجته الآنسة (سكينة الشهابي). وبين يديها كتاب «أعلام النساء»، لعمر رضا كحالة، وهو في خمسة مجلدات، وكتاب (بلاغات النساء)، لابن طيفور، وكتاب «الإماء الشواعر»، لأبي الفرج الأصفهاني...الخ.

رابعاً ـ أهملت المؤلّفة العودة إلى كثير من المصادر والمراجع التي من شأنها أن تغني عملها وتضاعف كتابها، وعلى الرغم من عودتها إلى (١٦٠) كتاباً، فقد أغفلت كتباً هاماً،

ولم ترجع إليها، وهي مكانز تزوّدها بكثير من الأعلام والتراجم، ومن تلك الكتب على سبيل المثال لا الحصر: ١ ـ كتاب طبقات ابن سعد. ٢ ـ كتاب الوفيات، لمحمد بن رافع السلامي الدمشقي تحقيق عبد الجبار زكار، دمشق ١٩٨٥. ٣ ــ ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي (٧٩٥). ٤ ـ كتاب تاريخ التراث العربي، لفؤاد سزكين، وهو في عشرة مجلدات ومترجم إلى اللغة العربية... الخ.

خامساً ـ وللأسباب السابقة سقطت ترجمات هامّة من كتابها، كان من بينها مؤرخون وأطباء وفقهاء، وأعلام متفرقون أخر. فمن بين المؤرخين الذين كان من حقّهم أن يكونوا بين دفتي كتاب «أعلام الفكر في دمشق» وحسب شرط المؤلّفة:

١ ـ أبو الحسين الرازي (٣٤٧ هـ) ٢ ـ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي (٦٤٣ هـ) صاحب كتاب « فضائل الشام » ٣ ـ محمد بن رافع السلامي الدمشقي (٧٧٤ هـ) صاحب كتاب «الوفيات» ٤ ـ ابن رجب الحنبلي (٧٩٥ هـ) ٥ ـ أبو بكر تقي الدين ابن زيد الجراعي الحنبلي (٨٨٣ هـ)، وقد حقّق له كاتب هذه السطور كتاب (الأوائل) ونشره في بيروت عام ١٩٨٨. وأبو بكر تقي الدين هذا دمشقي وفاةً، وهو محقّق لشرط كتابها.

ومن الأطباء على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ ابن أثال ـ طبيب معاوية بن أبي سفيان وسميره، وهو (من رجال القرن الأول الهجري).

٢ ـ أبو عثمان الدمشقي (من رجال القرن الرابع الهجري).

٣ ـ أسعد بن أبي الفتح إلياس بن جرجس المطران (وتوفي سنة ٥٨٥ هـ).

٤ ـ ابن طُليب الدمشقي (القرن السابع الهجري).

٥ ــ ابن القف (٦٨٥ هـ) وهو أبو الفرج بن القف، وله من الكتب « الشافي في الطب»، و « كتاب شرح الكليات من كتاب القانون»، وهو في ستة مجلدات.

ومن الأعلام الأخر المتفرقين الذين وقع إغفالهم:

١ - يوحنا الدمشقي، وهو لاهوتي وفيلسوف أثّرت فلسفته حتى في فلاسفة غربيين، مثل توما الأكويني. وقد عاش يوحنا الدمشقي في القرن الأول للهجرة.

٢ - أخفش باب الجابية (٢٩٢ هـ) وهو شيخ القراء بدمشق، وله كتب في القراءات، واسمه هارون بن موسى التغلبي، وهو آخر الأخفشين.

٣ - إسماعيل بن سلطان (٥٦١ هـ) وهو شاعر فاضل دمشقي.

٤ - ابن عبد الولي (٧٦٤ هـ) وهو فقيه شافعي.

٥ - عبد القادر الصمادي (١١١٤ هـ)، وهو أصلاً من قرية (صماد) بحوران، وكانت له زاوية في منطقة الشاغور بدمشق.

وخلاصة القول: أنّ جهداً أوفر واستقصاءً أشمل، لو بُذِلا، لكانا كفيلين بمضاعفة عدد التراجم التي حواها كتاب «أعلام الفكر في دمشق بين القرن الأول والثاني عشر للهجرة»، ولجعلا من هذا الكتاب لاجزءاً واحداً فقط، بل أجزاء كثيرة، ولمكّنا من أن يكون ناتج ضرب الـ (٢٣٠) ترجمة التي احتواها، بخمسين أو ستين، قليلاً، إذا قيس بعدد أعلام دمشق الحقيقيين، خلال اثني عشر قرناً، مرت على مدينة لم تكفَّ عن أنْ تكون عاصمة للعلم والثقافة على مرّ العصور.



حلب في كتب البلدانيّين العرب

إعداد د. شوقي شعث وأ. فالح بكور

يدور هذا الكتاب، كما يفهم من عنوانه، حول ثاني مدينة من مدن القطر العربي السوري، وما ذكرته عنها بعض كتب التراث. ويحسن بنا، قبل الشروع في دراسته ونقده، أن نلمّ بمعلومات عامة حول محور هذا الكتاب، وحول التأليف فيه، معتمدين بذلك على مراجع سيمُر ذكرها بعد قليل . فمدينة حلب مدينة قديمة يرجع تاريخها الى ما قبل الميلاد بألفين وثلاثمئة سنة، إذْ ذكرت في رقم (ايبلا) على أنّ اسمها (أرومان) أو (أرمي). وأشارت الوثائق الفرعونية الى مملكة حلب والى عاصمتها منذ العام ٢٠٠٠ ق.م. وكانت حلب عاصمة أكبر دولة أمورية دولة (يمحاض)، في القرن الثامن عشر ق.م . ووصل الينا نص باللغة البابلية يشير الى معاهدة وقعت بين ملك حلب والملك الحثّي (مورسيل الثاني).

ومن المعروف أنّها سقطت بيد الأخمينيّين في العام ١٥٦٠ ق.م . ثم خضعت للآراميين، فالآشوريين، فالفرس الأخمينيين، حتى اذا جاء العام ٦٤ ق.م كانت تحت الحكم الروماني... ولما انقسمت الامبراطورية الرومانية ونشبت الحرب بينها وبين الفرس، دخل الفرس حلب في السنة ٥٤٠م، وأحرقوها، ثم عاد اليها الروم فأصلحوها.

وفي العام ٦٣٦م فتح العرب حلب على يد أبي عبيدة بن الجراح سلماً، وبنى فيها سليمان بن عبد الملك الجامع الكبير المعروف بجامع زكريا، وهو نسخة ثانية عن الجامع الأموي بدمشق.

وتعد حلب ثاني أكبر مدينة عربية تحتوي آثاراً وعمراناً وملامح إسلامية بعد القاهرة. ومن المعروف أنها كانت عاصمة للدولة الحمدانية، وأن (سيف الدولة الحمداني) أقام فيها، ومنها كان يقود الجيوش لحرب الروم. هؤلاء الذين تمكنوا في العام (٣٥١/٩٦٢) بقيادة الامبراطور (نقفور) من احتلالها ونهبها وحرقها... حتى اذا جاء الفاطميون الى بلاد

الشام، سيطروا عليها في العام ١٠١٥م، ثم نشأت فيها الدولة المرداسية لأكثر من ٥٠ عاماً، بعد الفاطميين. وتعرضت حلب الى نكبات وكوارث كثيرة في تاريخها. إذ بعد أنْ توالى على حكمها الزنكيون والأيوبيون، هاجمها المغول سنة ١٢٦٠م، وأحرقوها، وتلاهم التتر على يد (تيمورلنك) في السنة ١٤٠٠، فاستباحوها. وجاء بعدهم المماليك، فالعثمانيون سنة ١٥١٦، وقد دخلوها بعد معركة (مرج دابق) شمالي حلب، فصارت المدينة مقراً للحاكم التركي الملقب بـ (الباشا). وبعد ان خرج الاتراك في مطلع هذا القرن آلت الى سورية، فجعل منها الفرنسيون دولة ضمن حدود الانتداب، سموها (دولة حلب). ثم نعمت، كباقي محافظات القطر العربي السوري، بالجلاء والاستقلال والحرية، منذ العام ١٩٤٦.

ومن المعروف أنَّ حلب تقع في شمالي سورية، وتبعد عن دمشق نحو ٣٦٠كم، ويخترقها نهر (قويق) المشهور، وهي تعرف بقلعتها الخالدة، وبأسواقها، وجوامعها، وأسوارها... ولقد قامت مديرية المتاحف والآثار بتسجيل حلب، وكثير من مناطقها، في سجل الآثار لديها، وهذا يعني ضرورة حمايتها وصيانتها. كما سجلتها في السجل العالمي التابع لليونسكو، ضمن سجل الممتلكات الثقافية العالمية، الذي يتحمل العالم بأسره ضرورة حماية كل ما دُوِّن فيه والمحافظة عليه.

ونظراً لأهمية هذه المدينة، فإنَّ التأليف فيها، وفي تاريخها، لم ينقطع أبداً. وفي وسعنا ان نشير، دون استقصاء، الى كتب أُلِّفتْ فيها قديماً، وكتب أُلِّفَتْ فيها حديثاً. فمن الكتب القديمة في حلب وتاريخها:

١- كتاب تاريخ حلب، للعظيمي المتوفى بعد (٥٥٦/١١٦٠).

٢- كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب، لابن العديم (٦٦٠/١٢٦١).

٣- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، لابن شداد (٦٨٤/١٢٨٥).

٤- درّ الحبب في تاريخ حلب، لمحمد بن ابراهيم المعروف بابن الحنبلي (٩٧١/١٥٦٣). ولهذا المؤلِّف ذاته كتاب آخر، اسمه: الزبد والضرب في تاريخ حلب، نشره الدكتور محمد التونجي بالكويت، عام ١٤٠٩ هـ.

٥- معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب، لأبي الوفاء العرضي (١٠٧٦/١٦٦٥). وحققه أيضاً محمد التونجي، ونشره بدمشق عام ١٤٠٧ هـ.

ومن الكتب الحديثة المؤلفة في حلب وتاريخها وأعلامها:

١- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، لمحمد راغب طباخ. ويقع في سبعة أجزاء. وفيه ترجمة لأكثر من /١٠٠٠/ علم حلبي. وطبع مرتين في حلب أولاً عام (١٩٢٦) وثانياً سنة (١٤٠٩/١٩٨٩). باشراف محمد كمال.

٢- أدباء حلب ذوي الأثر في القرن التاسع عشر، لقسطاكي الحمصي (١٩٤١). وفيه تراجم لأكثر من (٥٠) عَلَماً حلبياً كان هو آخرهم.

٣- محافظة حلب، لعبد الرحمن حميدة، ضمن سلسلة بلادنا. وصدر عن وزارة الثقافة بدمشق.

٤- حلب القديمة ، منشورات المديرية العامة للمتاحف والآثار بدمشق ١٩٨٣.

٥- أحياء حلب وأسواقها، لخير الدين الأسدي (١٩٧١). وحققه عبد الفتاح رواس قلعجي، وطبعته وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٨٤. ومن المعروف ان للاسدي هذا معجماً يقع في /٨٠٠٠/ صفحة، اسمه (موسوعة حلب المقارنة). وقد ظهر منه عدة أجزاء.

٦- معالم حلب الأثرية، لعبد الله حجار. وهو من منشورات جامعة حلب وجمعية العاديات فيها، لعام ١٩٩٠.

٧- الحلبيُّون في المهجر، لعبد الله يوركي حلاق. وهو من منشورات مجلة (الضاد) الحلبية، لعام ١٩٩٤.

وأخيراً يأتي هذا الكتاب الذي نقف عنده وعنوانه: « حلب في كتب البلدانيين العرب ». وهو من مطبوعات دمشق لعام ١٩٩٥.

يقع هذا الكتاب في (٢٦٣) صفحة. وقد عاد فيه المؤلفان الى حوالي (٥٠) كتاباً. فبدآ منذ القرن الثالث الهجري مع كتاب (صورة الأرض) لمحمد بن موسى الخوارزمي (٢٣٣/٨٤٧)، وانتهيا برحلة محمد ثابت (١٣٧٧هـ)، وكتابه (جولة في ربوع الشرق الأدنى).وقد مرّا بكتب تاريخية عديدة، مثل (فتوح البلدان) للبلاذري، و(المسالك والممالك)

لابن خرداذبه، و(صفة جزيرة العرب) للهمداني، و(معجم البلدان) لياقوت الحموي، و(الروض المعطار) للحميري، و(بغية الطلب) لابن العديم، (ونهر الذهب في تاريخ حلب) للغزي... الخ.

وكثرت عودة المؤلفين الى كتب الرحلات. ومن الرحالين الذين عادوا اليهم:

ناصر خسرو (٤٥٣/١٠٦١)، وكتابه (سفر نامه)، وهو بالفارسية، وقد ترجمه يحيى خشاب الى العربية، ورحلات بنيامين (٥٦٩/١١٧٣)، والشريف الادريسي (٥٦٠/١١٦٤) صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، وابن بطوطة (٧٧٩/١٣٦٩)، واسم رحلته (تحفة النُّظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، ولويس شيخو الذي دَوَّن خلاصة رحلتين قام بهما الى حلب في مطلع هذا القرن، ومحمد ثابت المصري المعاصر، الذي سجل ملاحظاته ومشاهداته في كتاب بعنوان (جولة في ربوع الشرق الأدنى) وفؤاد أفرام البُسْتَاني الذي قام برحلته الى حلب في أوائل خمسينيات هذا القرن، ودَوَّن ملاحظاته تحت عنوان (خمسة أيام في ربوع الشام)... وأنهى الكتاب بنصوص قصيرة مما قاله الرحالون الأجانب في حلب، أمثال (بوكوك) الانكليزي ١٧٣٧م و(نيبهور) الدانمركي ١٧٦٦، و(فولني) الفرنسي ١٧٨٣م، و(لويس اسكندرادي كوارنسز) قنصل فرنسا في حلب ١٨٠٨م. ولو نظرنا في تواريخ النصوص المختارة عن حلب، من زاوية وفيات أصحابها، لوجدنا سبعة نصوص تعود الى القرن الثالث الهجري، ومثلها إلى الرابع، وأربعة إلى الخامس، ونصاً إلى السادس، وثمانية نصوص الى القرون السابع والثامن والتاسع، ونصا الى العاشر والثالث عشر، ونصين للحادي عشر، وثلاثة للثاني عشر، وتسعة نصوص للقرن الرابع عشر الهجري.

وقد كان وراء النصوص المختارة من المراجع السابقة رغبة في رسم خط لتطور مدينة حلب عبر القرون، ورصد كل ما جدَّ عليها من توسُّع عمراني واقتصادي وتجاري وثقافي وبشري، كما حفلت تلك النصوص بأخبار تاريخية، ومعلومات جغرافية، وأشعار، وأسماء أعلام، وأوصاف لأحوال المعاش في حلب، وأحوال السياسة فيها، خلال ما يقرب من ألف عام.

وعلى سبيل المثال، فان أبواب حلب كانت عند ناصر خسرو (٤٥٣/١٠٦١). أربعة أبواب هي ١- باب الله ٢ - باب اليهود ٣- باب الجنان ٤- باب انطاكية. ثم ذكر ياقوت، بعد نحو ٢٠٠عام، أنَّ لحلب في زمانه سبعة أبواب هي: ١- باب الأربعين ٢- وباب اليهود وقد سمي أيضا بباب النصر ٣- باب الجنان ٤- باب أنطاكية ٥- باب قنسرين ٦- باب العراق ٧- باب السرّ.

واذا كانت أبوابها قد كثرت، واختلف فيها، فان قلعتها الخالدة كانت، بلا اختلاف، تمثل محوراً لكثيرين ممن تحدثوا عن آثار حلب ومعالم عمرانها. وقد قيل إن (سلوقس) هو الذي عمرها، وقيل: بل الآشوريوّن، وقيل بل: العماليق... ولكن من المؤكد أن فيها معبداً حثياً تعود بقاياه الى القرن التاسع ق.م، إضافة الى نواويس رومانية وبيزنطية من أيام (جوستنيان). كما أن في القلعة اليوم ملامح عمارة عربية كان لسيف الدولة الحمداني، ولسلاطين أخر بعده، دور هام فيها. ومن المعروف ان السلطان (قايتباي) جدد في بنائها.

ورغم الزلزال الذي ألـمَّ بها في السنة ١٨٢٢، فان ابراهيم باشا رممها في ثلاثينيات القرن الماضي، كما أجريت عليها ترميمات وتصليحات في زمن الحكم الوطني، وبعد جلاء الفرنسيين عن سورية.

ومن آثار حلب ومعالمها أسواقها المشهورة. ومن تلك الأسواق (سوق الزجاج) هذا الذي قال فيه (القزويني) (٦٨٢هـ/١٢٨٣) : « ومن عجائبها سوق الزجاج، فإن الإنسان اذا اجتاز بها، لا يريد ان يفارقها لكثرة ما يرى فيها من الطرائف العجيبة والآلات اللطيفة » (ص١١٠ من الكتاب).

وكذلك تعرفنا من خلال النصوص المختارة بجموعة كبيرة من أعلام حلب في القديم، ممن كان لهم إسهام ثقافي وفكري وتأليفي، ومن هؤلاء شعراء وفقهاء ومؤرخون، ورجال كبار. فمن شعراء حلب القدامى مثلاً: أبو الفتح بن أبي حصينة، وأبو محمد بن سنان، وأبو العباس المعروف بأبي مشكور، وابن خالويه، والصنوبري، والخالديان، وشاعر العربية الأكبر أبو الطيب المتنبي، وأبو فراس الحمداني، والبحتري... الخ

ومن الفقهاء : أبو داود، وأحمد بن حنبل، وسعد الدين بن الشيخ، ومحي الدين بن عربي، والسهروردي... الخ. ومن مؤرخيها: العظيمي، وابن العديم، والقفطي، وياقوت الحموي، وابن شداد.. الخ. ومن رجالاتها الكبار: سيف الدولة الحمداني، والغازي بن صلاح الدين الأيوبي، والوزير القفطي أيضاً صاحب كتاب (طبقات الأطباء) وكتاب (المحمدون من الشعراء)... الخ.

أما في العصر الحديث فيمكن للمرء ان يذكر أعلاماً حلبيين كثيرين، مثل راغب الطباخ صاحب كتاب (إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء)، وقسطاكي الحمصي، وخير الدين الأسدي، وعبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة الضاد، وعمر أبو ريشة شاعر سورية الكبير، وعبد الرحمن حميدة أستاذ الجغرافية الجامعي، وعبد الله حجار صاحب كتاب (معالم حلب الأثرية)، وعمر الدقاق، وسامي كيالي، وهو مؤلف كتاب (الحركة الأدبية في حلب) الصادر في الخمسينيات من هذا القرن. ومن قصّاصيها : فاضل السباعي ووليد إخلاصي وجورج سالم ونهاد سيريس. ومن مناضليها الكبار في هذه الآونة : المطران ايلاريون كبوشي-مطران القدس الذي أودع سجون اسرائيل لسنوات عدة، ثم أفرج عنه...الخ.

وإذا عدنا الى الكتاب الذي نراجعه (حلب في كتب البلدانيين العرب) فإننا نرى فيه، على قيمته، نواقص وثغرات وملاحظات نَسُوقُها على النحو التالي:

١- إنَّ العنوان لا ينطبق على المحتوى، فالعنوان (حلب في كتب البلدانيين العرب) ولكن المحتوى ضم كتباً غير عربية، ألّفها مستشرقون أو أعاجم. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإنَّ الكتب التي استُقِيَت منها النصوص ليست كلها بلدانية، ففيها ما هو تاريخي، مثل (بغية الطلب)، وما هو لغوي صرف، مثل (لسان العرب)، و(تاج العروس). والذي يبدو لي ان السجعة المعقودة ما بين (حلب... وعرب) كانت وراء هذا الاختيار، فوقعت التضحية بالدقة لصالح العنوان المسجوع.

٢-والتضحية بالدقة والصحة لم تقتصر على العنوان فحسب، بل تجاوزته الى بعض النصوص المقبوسة في الكتاب، وخاصة في مجال الشعر، وسنضرب أمثلة على ذلك ولا نستقصي كل شيء:

أ-نقل المؤلفان عن كتاب "مختصر كتاب البلدان" للهمداني المعروف بابن الفقيه، والمطبوع بليدن سنة ١٤٠٢(ص٤٢ من كتابنا) هذين البيتين لعمرو بن كلثوم:

وعندَ الله يأتيهِ دُعاها — الى أرض يعيشُ بها الفقيرُ
لأرضِ الشامِ وهْيَ حِميً وخبُّ — وزيتونٌ وثَمَّ نشا العصيُر

وفي البيتين، حسب هذه الرواية، غموض وتحريف كثير. ولو كلف المصنفان نفسيهما العودة الى ديوان عمرو بن كلثوم (ط أميل بديع يعقوب ٤٣ ـ ٤٤) لوجدا الرواية كما يلي:

وعبد الله ثانيةٌ دعاهم — الى أرضٍ يعيشُ بها العسيرُ
الى أرضِ الشآم حمىً وحبّ — ولم... فشا العصيرُ

فكلمة "ثانية" حُرِّفت إلى "يأتيه" وكذلك حرِّفت كلمة "حب" الى "خب". والحب أكثر ملاءمة لكلمة (وزيتون) الواردة في الرواية السابقة. وربما كان التلفيق بين رواية الديوان والرواية الواردة في الكتاب الذي نراجعه تصحح البيت وتقيم وزنه .

ب – وكذلك يلاحظ المرء التحريف وغموض المعنى في بعض أبيات ابن أبي عُيَيْنة التي قالها في حلب، ولا أدل على ذلك من هذا البيت مثلاً:

وسِربٍ من الغزلانِ يرتعْنَ حَوْلَهُ — كما انْسَلَّ متطوَّمٌ من الدُّر مِنْ سلكِ

وكلمة (متطوّم). محرفة عن (منظوم)، بلا ريب.

ج-وفي البيت التالي أيضاً خلل وتحريف فقد روي كمايلي:

فيا طبيبُ ذاك القصر قصراً ونزهةً — بأفيحَ رحبٍ غيرِ وَعْرٍ ولاضَنْكِ

وكلمة (طبيب) هنا، محرفة عن (طيب) دون شك..

٣- لم ينتبه المصنفان الى وجود عبارات مقحمة أخلّت بسياق النص المقبوس، ولم ينبّها عليها. فذكرا في (ص٥٤) من كتابهما نقلاً عن كتاب « صورة الأرض » لابن حوقل (المتوفى سنة ٣٦٧هـ) (ولننتبه الى تاريخ سنة ٣٦٧هـ) هذا النص عن حلب: « وكان لها أسواق حسنة وحمامات وفنادق كثيرة ومحال وعراص فسيحة ومشائخ وأهل جلة، وهي الآن في زماننا، وهو نيف وسبعين [كذا!] وثلاثمائة للهجرة... الخ ». فكيف يكتب ابن حوقل المتوفى سنة ٣٦٧ عن زمن غير زمانه، هو السنة ٣٧٣ هـ ؟ إذن هذه عبارة مقحمة على نص ابن حوقل، أقحمها النساخ على الأرجح، أو أن كلمة سبعين قرئت خطأً، وهي في الأصل (ستين). وهذا احتمال آخر.. ومن ههنا كان لابد من معالجة هذه المسألة في حاشية من حواشي الكتاب، ولكن هذا لم يقع لسوء الحظ.

ومن المؤسف أنّه ورد ما يشبه هذا الأمر في (ص٥٣). فجاءت عبارة مناقضة للسياق، وناقصة، وغامضة، ولامعنى لها. تقول تلك العبارة:

"جند قنسرين: مدينتها حلب، وكانت عامرة غاصة بأهلها، كثيرة الخيرات على مدرج طريق العراق الى الثغور وسائر الشامات، وافتتحها الروم، -وكان الروم قد افتتحوها في تاريخ ثلاثمائة ونيف وسبعين- مع سور عليها حصين من حجارة لم يغن عنهم من العدو شيئاً بسوء تدبير سيف الدولة، وما كان به من العلة، فأخرب جامعها وسبى ذراري أهلها وأحرقها". ولاشك أن في هذا النص سقطاً يكشفه مابعد العبارة المقحمة والمغلوطة أصلاً، كما سنرى فالمعنى لم يقم اذا تجاوزنا العبارة التي تشير الى تاريخ فتح حلب، والخلل واضح فاضح..!

أما أن يكون الروم افتتحوها -حسب العبارة المُعْترضة في النص- سنة ثلاثمائة ونيف وسبعين فهذا غير صحيح، وقد مر بنا من قبل أن (نقفور) احتل حلب سنة (٣٥١هـ/٩٦٢)، وفر منها (سيف الدولة) ثم عاد إليها. فتأريخ فتح الروم لحلب إذاً غير صحيح، ولم يُنبِّهْ عليه المصنّفان.

٤- إن بعض المصادر التي عاد إليها المصنّفان لم تقدم للباحث شيئاً يذكر، ويبدو أن الرغبة في التكثر كانت وراء العودة إليها. فمثلاً عاد الباحثان إلى كتاب (لسان العرب) لابن

منظور المصري، فنقلا منه هذا النص: "حلب مدينة بالشام. وفي التهذيب: حلب اسم بلد من الثغور الشامية" وهذا نص يبدو غير ذي قيمة، إذا قورن بنص آخر لياقوت الحموي، ساقه المؤلفان وبلغ (١٤) صفحة. فمبدأ التناسب لم يكن وارداً في ذهن المصنفين إذن.

٥ - وبالمقابل غفل المصنّفان عن كتب هامة أرّخت لحلب، و لم يستفيدا منها. ومن تلك الكتب مثلاً كتاب (تاريخ حلب) للعظيمي (نحو ٥٥٦/ ١١٦٠)، وهو كتاب صدر بدمشق عام ١٩٨٤ بتحقيق ابراهيم زعرور، وأصله رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب بجامعة دمشق.

٦-لم يكلف المصنفان نفسيهما، أحياناً، شرح بعض المصطلحات القديمة. وكان في وسعهما أن يفعلا ذلك بشيء من الجهد، فمصطلح "السكة" وهو مقياس مسافة، كان يمكن استنتاج حقيقته ومقداره، اذا قارنّا بين بعض أقوال المؤرخين الواردة في الكتاب وبعضها الآخر، فقد ذكر ابن خرداذبة (٨٩٣/٢٨٠). أن بين حلب ومنبج تسع سكك، ثم ذكر قدامة بن جعفر في كتابه (الخراج) أن المسافة ذاتها تفصل مابين دمشق بعلبك، فلو عرفنا على نحو تقريبي مقدار هذه المسافة بالكيلو مترات، وقسمناها على تسعة، لعرفنا ماذا يعني مصطلح " السكة"، ولاستطعنا أن نعرف الطرق التي كان يسلكها الناس بين المدن، حسب أقوال القدماء فيها.

٧- لم ينبِّه المؤلّفان على وهم جاء فيما نقله (شيخو) عن كتاب اطلع عليه عند (فردريك بوخه) في رحلته إلى حلب. فالكتاب نُسِب، غلطاً ، إلى القزويني . والصواب أنه للمقريزي . أما عنوانه فهو (المواعظ والاعتبار) . وهو المعروف بـ (الخطط المقريزية). وكذلك وقع خطأ في اسم من روى عنه المقريزي المعلومة المتصلة بمكتبات القاهرة ، فهو المسبحي وليس المسيحي . (انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي ط بولاق ٤٠٨/١ - ٤٠٩)، وسنسوق نص المسبّحي الذي نقله شيخو بعد قليل .

والحقيقة أن شيخو قد لاحظ شبهاً بين هذا الكتاب الفاقد العنوان وكتاب الخطط المقريزية فقال عنه : إنه على مثال الخطط المقريزية . وكان على الصواب في ذلك (ص ٢٢٠) .

٨ - وبخصوص الإخراج الطباعي، فعدا عن الأخطاء المطبعية الكثيرة في الكتاب، وقع غلط في تحديد حواشي الكتاب، فما جاء في (ص٢٦) من الكتاب كله حاشية، ولكن لم يفصل بينه وبين ما يمكن أن يكون متناً بخط، كما هي الحال في الصفحات الأخريات.

ولكن رغم كل ما تقدم، فإن الكتاب الذي نراجعه ضمَّ بين دفتيه نصوصاً نادرة، من كتب طبعت قديماً، وليس من الميسور الحصول عليها. كما شفع مُعِدّا الكتاب بعض مقبوساتهما بخرائط قديمة نادرة للمنطقة العربية، مثل خريطة العراق والجزيرة العربية للادريسي، الواردة في (ص٧٧)، وخريطة العالم كله، التي رسمها القزويني، وقد وردت في (ص١١٣).

وتستوقف الباحث في هذا الكتاب معلومات قيمة ذكرها الرحالون الذين مروا بحلب الشهباء عبر القرون. ومن تلك المعلومات القيمة ما ذكره الأب (لويس شيخو) في رحلتين له الى حلب، الأولى قام بها في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، والثانية نفذها بعد مضي عشر سنوات من الأولى. وقد نشرهما في (مجلة المشرق) وهما فيها على التوالي : السنة الثامنة لعام ١٩٠٥، والسنة ١٩ لعام ١٩١٦.

والملاحظ من مطالعة ما كتبه (شيخو) أن سكان حلب قد زادوا نحو مئة ألف في غضون عشر سنوات، فكانوا نحو (١٥٠) ألفاً ثم صاروا (٢٥٠) ألفاً في عام ١٩١٦.

وكان من أبرز ما ذكره (شيخو) في رحلته الثانية الى حلب إشارته الى حاجة المدينة آنئذٍ الى الماء والكهرباء.. ولكنه أشاد بصناعة النسيج فيها آنذاك فقال: إن عدد الأنوال فيها لايقل عن عشرين ألف نول ! وكذلك أشار في رحلته الأولى الى قوم يتعاطون العلم فيها، فذكر منهم الشيخ كامل الغزي، وهو صاحب كتاب (نهر الذهب في تاريخ حلب) وكان يصنفه آنئذٍ. وذكر أيضاً أنه لقي من أدبائها جرجس الخياط، وقسطاكي الحمصي، وميشال الصقال... الخ.

ولكن (شيخو) المغرم بالكتب والمنهوم بالعلم حدثنا عن حلب- مدينة الكتب التي تكثر فيها المخطوطات، فذكر أنه اطلع في المدرسة الأحمدية، بمعونة جناب السيد أحمد أفندي الجلبي، على المخطوطات التالية: تهذيب اللغة، للأزهري (٣٧٠هـ)، وكتاب ما يعول عليه

من الأمثال، لمحمد أمين المحبي، وكتاب الذيل على مرآة الزمان في معرفة الخلفاء والأعيان لأبي الفرج بن الجوزي، ألّفه قطب الدين موسى بن محمد البعليكي، وعلى كتاب طبقات الملوك للثعالبي. وقال: في فهرست هذه المدرسة كتابٌ للفارابي يدعى الرسالة الفتحيّة، وكأنه فقد إذ لم يمكن اكتشافه (ص٢٢٠). ونعرف مما نقله شيخو عن الكتاب المعزو ، غلطاً، للقزويني، وهو للمقريزي ، أنّ نسخة من كتاب العين، للفراهيدي ، قد بقيت إلى زمن الفاطميين . وكذلك نسخة من كتاب الطبري (تاريخ الأمم والملوك) بخط يده ، تُدولتْ حتى زمن متأخّر أيضاً (ص ٢٢١) .

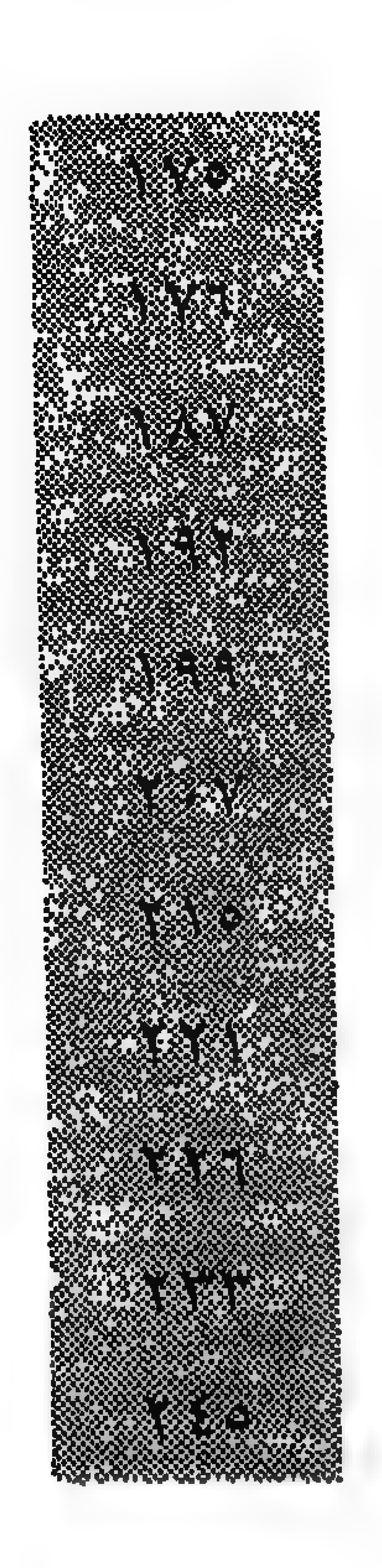
ويذكر (شيخو) أيضاً أنه رأى من المخطوطات كتاب (الدر المنتخب في تاريخ حلب) لعلاء الدين بن الخطيب، عند كامل أفندي الغزي، وكتاب شرح مقامات الحريري للمطرزي في مكتبة الموازنة. ورأى عند الخوري (جرجس شلحت) نسخة من كتاب (جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس) لابن الخطيب وكتاب (المذكر والمؤنث) للفراء تاريخ سنة (١١٨٩/٥٨٥)، ونسخة من (كتاب الأضداد) لابن الأنباري (وقد طبع بليدن) عند الأديب قسطاكي الحمصي، وكتاب التيفاشي في (المعادن والجواهر)، عند الشيخ أحمد أفندي الزرقاء، وعند الأخير أيضاً عايَنَ كتاب (الوشي المرقوم في حل المنظوم)، المنسوب إلى البديع الهمذاني، والمشهور أنه لابن كثير، وكتاب (عجائب المخلوقات) للقزويني، (كتب سنة ١٥٨٠/٩٨٨)، وفي المكتبة المارونية كتاب (دمية القصر في تراجم أدباء العصر) للباخرزي. وكتاب (البرهان في علم الميزان) للجلدكي، وكتاب (أدب القضاة) للشعراني، وكتاب (مفتاح الرحمة وكنز النعمة في الكيمياء)، وكتاب السكافي في الطب، لأبي نصر عدنان بن منصور بن العين زربي، وكتاب (التشويق الطبي) لصاعد بن حسن.

ولم يبعد (شيخو) عن الحق حين نعت حلب بأنها (مدينة الكتب)، فمما يعزز منزلتها هذه، ويؤكد قولته، أن حلب كانت المهد الأول للطباعة العربية، وهي أول مدينة عربية عرفت الطباعة، إذْ أنشئت فيها أول مطبعة عربية سنة ١٦٩٨، وقيل بل سنة ١٧٠٢، وهي مطبعة البطريرك (دباس). وكان أول كتاب طبع في تلك المطبعة هو كتاب (القنداق)،

أي خدمة القداس الشريف، ثم تلاه كتاب السواعي، وهو باليونانية والعربية. وكان البطريرك (دباس) قد استقدم آلات مطبعته من (بخارست) في (رومانيا).

وأخيراً، فمهما يكن الشأن، ومهما شاب هذا الكتاب (حلب في كتب البلدانيين العرب) من هنات، وما مازجه من ثغرات، يبقى كتاباً مفيداً لمن يريد تناول الأشياء على عجل، ولمن يشاء أن يعرف بعض المختصرات، وبعض النصوص عن حلب، مما كتبه مصنفون خلال أكثر من ألف عام. ولكن تلك النصوص، كما هي شروطها، بقيت مواد خاماً، لم تدخل في بناء تأليفي وتصنيفي علمي محكم متكامل.

المحتويات



صدر للمؤلف

أ ـ في التأليف :

١. إضاءات في النقد الأدبي ، دمشق ١٩٨٠ ، وطبعة ثانية دمشق ١٩٨٥ .

٢. خمسة إشكالات نقدية ، دمشق ١٩٨٩ .

٣. بشر بن أبي خازم الأسدي ، بيروت ١٩٩١ .

٤. الشعراء الجاهليّون الأوائل ، بيروت ١٩٩٤ .

٥. دراسات في المكتبة العربية التراثية ، دمشق ١٩٩٧ .

ب ـ في التحقيق :

١. الأوائل ، لأبي بكر تقي الدين بن زيد الجراعي الحنبلي ، بيروت ١٩٨٨ .





المؤلف في سطور

- الدكتور عادل الفريجات مولود في قرية خبب بمحافظة درعا عام ١٩٤٩ .
- حائز شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها .
- يدرس الأدب الجاهلي بجامعة دمشق .
- ناقد أدبي وباحث في التراث العربي .
- عضو اتحاد الكتاب العرب منذ عام ١٩٨١ .
- حرر أكثر من مئتي مقال صحفي وعمل بحثي .
- شارك في أكثر من مؤتمر نقدي خارج القطر العربي السوري .
- بلغت مؤلفاته حتى الآن ستة كتب مطبوعة .